عارف حجاوي

إعصار في الهلال الخصيب

رواية

مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution L.L.C

إعصار
في الهلال الخصيب

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

إعصار
في الهلال الخصيب

رواية

عارف حجاوي

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل 2018 م – 1439 هـ

ردمك 978-614-02-3577-9

حقوق الطبعة العربية

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبو ظبي هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آرائه وليس بالضرورة عن آراء الدار.

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

1

الكذبة الكبيرة يصعب تصديقها.. وتكذيبها. والكذبات الصغار يجمِّلن القصة المختلقة. ولو أنني أردت تجميل سردي هذا بما هو مثير لبدأت بالقول إنني نزلت إلى قاع عمَّان بمعطف سُمَّاقي.

لا حاجة بي إلى التجميل، فما مر بي من وقائع أغرب من كل اختلاق. شهدت في عمري بلاداً تنشأ وبلاداً تزول، وشهدت النفوس ترحل عن موانئ ألفتها مئات السنين لتخوض بحر المجهول.

في مطلع هذا العام انتصف القرن، وما كنت لأتوقع أن النصف الثاني من القرن سيشهد إعصاراً يبدأ في الأردن ويعصف بالمنطقة، ولا توقعت أنني سأكون في وسطه. على أن العالم دخل النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين بهدوء.

قد نزلت إلى قاع عمَّان بمطعف رماديٍّ له رقعتان بُنِّيتان من جلد عند المرفقين كنت اشتريته من بوسطن، وحملته معي إلى الأردن كي أتقي به برد أكتوبر.

صباح الجمعة مشرق وبارد. وما زلت أعالج أوقات نومي وصحوي بعد رحلة أمس الأول. جُلت جولة على دكاكين العائلة، واستوثقت من مواقعها في سقف السيل وعلى طريق الوحدات، ثم عبرت ساحة المسجد الحسيني الكبير إلى سوق البخارية الذي بدأ يستيقظ بتثاقل. ومضيت إلى شارع السلط لأحصي الدكانين الأخيرين.

في بوسطن كنت أغلقت الباب على الأدب، وفتحت باباً على المال. وأمريكا تشحذ في المرء غريزة الكسب، حتى وإن لم يكن يدرس إدارة الأعمال في جامعة الـ «ميت» العريقة.

بعد أن تفقدت مواقع دكاكين العائلة انحرفت نحو الفوال لإفطار مبكر. وعلى بابه لاقاني ابن خالي هيثم.

وضع من يده الكيس أرضاً، وأخذ يعانقني قافزاً بقامته القصيرة، طابعاً القبلات على وجنتيَّ المرتفعتين عن الأرض مئة وتسعين سنتمتراً، وراح يواليني بالسؤال تلو السؤال.. عن أمريكا طبعاً. ثم أردف هاتفاً، ولمَّا أتمكن من إجابة أي سؤال: اليومَ معزومون عندنا! أمي ستصنع المسخَّن. والتقط كيسه وأشار إليه: بصل وسُمَّاق.. لزوم المسخن. كل هذا وضحكاته المملوءة بالحبور تشرق في وجهه البريء.

تذكرت الوليمة الموعودة، وقلت في نفسي: لا حاجة بي إلى إفطار قد يُلحق التقصير بأدائي في بيت خالي. ماشيت هيثم إلى أول الطريق الصاعد إلى سفح جبل الحسين، وركب سيارة الأجرة، وأخرج نصف جسمه من النافذة وهو يحثني على القدوم باكراً قبل موعد الغداء، وتلك الضحكة البريئة لا تفارق وجهه. ثم مضيت أتجول في قاع المدينة، أتأملها وهي تصحو متثائبة في يوم جمعة.

أول ما يصحو في قاع عمان صناديق الكرتون التي يحجز بها البؤساء أماكنهم قبل أن يضعوا فوقها علب السجائر وأكياس المحارم الورق. ولا ألوم الزائر الغريب إن ظن أن أهل عمان يستهلكون المحارم الورق كما يستهلكون الخبز. هي أمامك في كل دكان وعلى كل بسطة، إن وقفتْ بك السيارة على إشارة ضوئية لوح صبي في وجهك بعلبة محارم ورق، وإن مشيت على الرصيف تبعك آخر وقد شهر في وجهك علبة محارم ورق.

مئات الآلاف من الشبان المترفين في عمان لم يطأوا قاع المدينة. كنت من أواسط المترفين، غير أنني بعد وفاة أبي تجشمت عناء استكشاف أملاكه الغافية في قاع المدينة بضع مرات؛ فقد غدوت وأنا في الرابعة عشرة رجل الأسرة، وما كنت لأدع أمي وأختي تقومان بما يفترض فيَّ أن أقوم به.

والآن بعد أن أنهيت سنتي الجامعية الثانية في بوسطن، أتيت لزيارة الأهل للمرة الأولى، وأخذت أتفقد أملاك العائلة بعين أخرى. وسأقضي في عمان ستة أسابيع، مقتطعة من بداية الفصل الدراسي، لأجري بحثاً اقتصادياً ضمن دراستي.

يخيفني قاع عمان، ولا أظنني أجرؤ على أن أجوس خلاله بعد إغلاق المحلات أبوابها. إنه محكوم بقوانين الفقر والصعلكة، لا بسيادة الدولة ولا بالقبليَّة. له قوادوه وسماسرته وحتى لهجته. اختلط فيه على مر العقود الأردني الفلاحي الشمالي والبدوي الجنوبي والفلسطيني والأنباري والشامي. ونحن، أهل عمان الضواحي، نتصرف على نحو مختلف ونتكلم لهجة مختلفة. وفيما بيننا وبين قاع المدينة يعيش أهالي السفوح من الأغلبية المتوسطة؛ منهم من ينزلق إلى القاع بعد انحدار تدريجي، وقليل منهم من يصعد. وكان بيت خالي، في سفح جبل الحسين، قلعة من قلاع الطبقة الوسطى المتشبثة بوضعها.

بعد أن تخرجت أختي منال أصرت أمي على أن ترسلني إلى أمريكا حتى أحمل مشعل العائلة وهي تحاول أن تستمر في الصعود. وبعد أيام سأجدني في دائرة الأراضي ثم في الضواحي البعيدة متفقداً أطيان العائلة.

***

ركبت إلى ضاحية عبدون حيث الفيلا التي لم يعرف وعيي سواها منزلاً.

كانت منال تهيِّئ لوازم الرحلة التي ستقوم بها مع زملائها وزميلاتها في المصرف، وقد نبشت بيت الغسيل باحثة عن الحذاء الرياضي العتيق. أمي تُكفِّت لها الكفتة، بينما منال تصرخ من بعيد: إياك والبصل. ثم بصرخة استدراك حادة: وبدون ثوم طبعاً!

انسللت إلى غرفة المكتب، وكنت رجوت أمي قبل سفري إلى أمريكا ألا تفرط في أي كتاب. أجَلتُ البصر في الرفوف التي تكاد تصل إلى السقف ببعض خيبة الأمل. نعم، كل الكتب على حالها، والمكتب على حاله كما تركته قبل سنتين. لكنني أنا تغيرت.

بخطى وئيدة اقتربت من رف كان دائماً عزيزاً على قلبي. بهدوء وبقليل اكتراث سحبت جزءاً من سلسلة كتب الزبدة المكتظة بالأشعار. قلبت صفحاته، وأعدته سريعاً إلى مكانه. هذا من الكتب القليلة التي اشتريتها بنفسي، فأما معظم الكتب فهي مكتبة ابن عم جدي، وكان اصطحبها معه من الشام عندما ألجأته الثورة السورية قبل نحو أربعين سنة إلى عمان. ضاقت بها شقته الصغيرة، فأنزلها ببيتنا، ومات عنها.

طفت ببصري على الرفوف.. كل هذا قديم. كتب الاقتصاد لم تعد ذات نفع، ومثلها كتب العلوم، ومثلها كتب الأدب القديم والجديد، الذي لم يعد جديداً. «ماذا جرى لك يا أحمد!» قلت لنفسي، «أإلى هذا الحد غيرتك أمريكا؟».

بعد أن انصرفت منال، جلست مع أمي نحتسي القهوة وقد تعاهدنا على ألا «ننصب» سفرة إفطار، ففي انتظارنا المسخن في بيت خالي. طمأنتني أمي إلى أن منال تعيل نفسها وترفد البيت، وإلى أن معاش المرحوم والدي يقوم بالباقي. وبالطبع فأنا في أمريكا أعمل في مكتبة الجامعة، وأكسب بين الفينة والفينة بعض المال في أسواق الأسهم والعملات، ولم أكلف العائلة إلا القليل في السنة المنصرمة. أما أموال العائلة المجمدة في الأراضي والعقارات فهي مما سأغوص فيه في هذه الزيارة.

مضت أمي في حديث الجيران. ولا جيران في ضاحية عبدون المترفة، هم مساكنون فقط. كل فيلا كيان مستقل. وكل فيلا ترقب بحسد ما لدى الفيلات المجاورة من سيارات.

– لم يفرط أبوك في قطعة أرض واحدة، بل بنى الفيلا من مدخراته أيام كان الدينار ديناراً. وبناها في ثلاث سنين. ولو كان المرحوم باع قطعة أرض لكانت فيلتنا وحديقتنا أكبر، ولما كنا في الشارع مجرد فيلا متوسطة. لكن، الحمد لله.

– متى تعود منال من جَرَش؟

– قبل الظلام، بالتأكيد. أتعرف! بعد تخرجك – على خير – سنطبق حصر الإرث.. لكن، في البداية يجب تثمين وتخمين كل شيء.

– بعد غد سأفهم الكثير من المحامي.. وما زال لدينا وقت. هل فتحت منال معك موضوع التوزيع؟

– أبداً. أنا فقط أذكِّرك بأن ما نملكه كثير، ولكنه بحاجة إلى حركة.

لست ممن يقيم وزناً للمال. ليس، على الأقل، في النطاق الأسري الضيق. كنت قد تخطيت العشرين بأشهر فقط، ولم أرَ نفسي مستقلاً عن أمي وأختي بحال. وكنت أعُدُّ نفسي ثالث ثلاثة غير

متميز عن أختي وأمي في التركة، سيما وأنني في سنتي الجامعية الأولى، وبعض الثانية، استنزفت من المال مبلغاً غير قليل.

***

أجلسني خالي إلى يمينه على الكنبة الكبيرة حتى يقبض على ركبتي بيده الغليظة كلما أراد أن يؤكد أمراً. وجلست أمي إلى يساره على كنبة أخرى. وبعد الترحيب والأسئلة المتوقعة عن أمريكا أخذ بلهجته السلطية يجيب أمي لدى سؤالها عن الأحوال:

– باختصار.. جالس أنتظر التقاعد. إيه، أين أيامك يا أبو أحمد!

والتفت إليّ:

– كان المرحوم أبوك مثل المسطرة، نزاهة وشرفاً؛ ولا يتخلى عن موظف، ولا يتساهل مع موظف.. حتى لو كان أخا زوجته وابن بلده.

كان أبي مديراً في الجمارك، وكان خالي موظفاً فيها، ولأن كليهما من السلط عرف أبي أخت زميله وتزوجها.. فهذه أمي.

عن يميني كان يجلس هيثم مائلاً إليّ بوجهه ومستغلاً كل فرصة لتوجيه دفة الحديث إلى أمريكا، ومتكئاً في الحين بعد الحين على ركبتي الأخرى المندفعة إلى أعلى ونحن جلوس في هذه الكنبة التي زادتها السنين هبوطاً مثلما زادتني طولاً.

تبادل خالي وأمي كلمات بالشركسية، ولا أظنهما يعرفان من الشركسية سوى هذه الكلمات يتباهيان بها أمامنا. وأظن أمي أعرف منه، ولعلها هي التي علمته؛ فعندما توفيت جدتهما الشركسية كان خالي طفلاً.

خرجت زوجة خالي بأكواب العصير وهي تزيدنا ترحيباً، وتريثت أمي قبل أن تقطع كلامها الشركسي الموجه إلى خالي. كيد نساء!

نادت زوجة خالي بنتيها المنشغلتين في المطبخ، ودعتهما إلى الجلوس فسحبتا كرسيين، وصغراهما تنظر بعبث إلى هيثم الذي كان في حالة صعبة من الاهتياج.

بالتدريج بدأت أعيش أجواء بيت خالي. هؤلاء هم الناس العاديون، هؤلاء هم أبناء شعبنا. بملابسهم، بأحذية بناتهم المنزلية، بضحكهم وسرورهم، وبحالتهم المتوسطة. هم في عمان نصف الناس.. وهم في الأردن كل الناس.

– بنات أمريكا جميلات؟ ههه.

هذا هيثم عندما يقرر أن يكون غبياً. وضحكت أخته الصغرى عليه. وقرَّعته الكبرى التي تصغره بسنة:

– يا ويلي، ما زلت فرخاً لم تأخذ التوجيهي بعد، وبدأ التفكير المنحرف!

راح هيثم، الذي بدأ لتوه السنة الأخيرة في المدرسة، يضحك على نفسه بحبور. واستمر الكبار في حديث الكبار. ثم قامت زوجة خالي تهز مؤخرتها، وبإشارة من رأسها تبعتها ابنتها الكبرى إلى المطبخ.

زوجة خالي، إيه! كانت جلستها معنا دقائق، ولكن نعومة وجهها المستدير، وضحكتها التي لا تنير وجهها فقط بل تنير الصالة الضيقة كلها، رشَّتا في الجو عطراً دافئاً من حنان وحب.

وبدأت الطاولة في طرف الصالة تعمر بالأطباق وزبادي اللبن، وقعقع شيء في معدتي الفارغة مع قدوم دست المسخن الكبير تحمله زوجة خالي مادة ذراعيها به وموازنة ثقْله بدفع عجيزتها إلى الخلف.

وتفضلوا. وأخذتْ ربة البيت تفرش كل طبق من أطباقنا، بادئة بي طبعاً، برغيف مشرب بزيت الزيتون، ومحمل بالبصل المدبوغ بالسماق، ثم فوقه نصف دجاجة محمرة. لم يكن بها حاجة إلى أن تأمرنا بالأكل باليدين، لكنها فعلت. وزادت رغيفي بصلاً اقتنصته بأصابعها من حواشي الدست.

– ليس عندكم مسخن في أمريكا!

لعلها أيضاً قصدت أنه ليس عندنا في عائلة السلطي مسخن، فهذه أكلتها التي تعبر بها عن فلسطينيتها. غير أنها تجيد أيضاً طبخ منسفنا. من يطبخ جيداً يطبخ كل شيء جيداً. المعذرة لهذا

الوجه الجميل المليء بالرضا، ما أظنها قصدت بكلماتها إلا أن تحثني على الأكل.

كان هيثم يأكل لقمة ثم يعاف طبقه كي يكلمني. حدثني عن أستاذه:

– والله والله، ليس هناك شيء في الدنيا إلا وهو يعرف عنه. موسوعة متنقلة. قلت له عنك فصار يكلمني عن أمريكا كأنه عاش فيها. قلت له إنك في بوسطن فحدثني عنها. موسوعة. ووعدته أن آتي معك لزيارته. ليس بعيداً. يسكن في الشارع الذي فوق شارعنا.

كان المسخن ألذ من حديث هيثم، فكنت أهز رأسي وأدع اللقمة بعد اللقمة تنزلق في حلقي. وتكفَّلت أمه بإسكاته مرة بعد مرة.

بعد الغداء ثم الشاي ثم القهوة بدأت أمي تعبث بمفتاح سيارتها. واستشعر هيثم الخطر.

– ستأتي معي لنزور الأستاذ. لقد وعدته، ورحب كثيراً. هذا ليس شخصاً طبيعياً. موسوعة.

لم يكن لديّ ما أصنعه في عصر الجمعة، وكانت نفسي منصرفة عن الكتب العتيقة في المنزل. وحسَبت في عقلي: أجرة تاكسي آخر! لا بأس. فلتنصرف أمي وحدها، فهي لا تستغني عن قيلولتها.

***

وقفنا أمام العمارة العتيقة نسترد أنفاسنا قبل صعود درج يبدو أنه سيكون طويلاً. سألت هيثم:

– كم تدفع للحصة الواحدة؟

– قليلاً، أحاسبه كل شهر، ويتهاون معي. كل مرة تقريباً يعيد إليَّ عشرين ديناراً، ويقول خذ اشتر بها شيئاً لنفسك. وأمر ثانٍ: لا أحتاج إلى أستاذ آخر، فهو يدرسني كل المواد. قلت لك موسوعة.

– موسوعة مطبوعة؟

– مم.

كانت النكتة عصيَّة على هيثم. سألته عن الطابق، فقال الثالث. صعدنا ببطء حتى لا نصل متهدجيْ الأنفاس، وانصرف فكري كل الانصراف عن «الموسوعة». فكرت في والدي الذي كرر عليَّ الوصية في مرضه الأخير بأن أدخل الفرع العلمي في سنة الاختيار المقبلة. كأنه أراد أن يصرفني عن كتب الأدب والتاريخ التي كنت مشغوفاً بها. كأنه رأى بعين التجربة أن ما أنا منغمس فيه سيؤدي بي إلى أن أصبح معلماً، وهذا مستقبل لا يريده عاقل لولده في بلدنا. وتأملت السنتين الصعبتين اللتين عشتهما طالباً في الفرع العلمي، وأقررت أنهما أعدَّتاني لفهم الواقع، ولتحصيل القدر الكافي من الرياضيات والعلوم.

كان الأستاذ على باب شقته يسقي أصيصاً. كان يلبس روباً وفي قدميه حذاء منزلي من قماش. وهتف ونحن نصعد الفَرضة الأخيرة من الدرج: هيثم، يا مرحباً.

همست لهيثم أستخبر إن كان الأستاذ رد على رسالته، أم أننا واغلان متطفلان؟ ولكن هيثم كان منشغلاً بالموسوعة يتقدمني نحو أستاذه قافزاً، مبتهجاً أنه جاء للأستاذ بي كما وعد.

حوَّل الأستاذ كيْلة الماء إلى يساره، ووقف بقامة معتدلة ينتظر وصولنا ليصافحنا. وشعَّت من عينيه الضيقتين ابتسامة وادعة. و«هيثم شلونك؟» وصافحناه، وتقدَّمَنا إلى داخل الشقة.

أجلسنا إلى كنبة قديمة في صالة صغيرة تختنق برفوف الكتب. ودخل وراء رف كتب مزدوج ظهراً لظهر يختفي وراءه شبه مطبخ. وعاد يسأل عن الشاي، ثم غاب يصنع الشاي. قمت، بالغريزة، أتفحص الكتب: عربي، فارسي، ولكن أكثرها إنجليزي. تاريخ في معظمها، وبعض كتب المناهج الأمريكية الجامعية في العلوم. وكتاب «الزبدة» بأجزائه الخمسة مرة أخرى. يبدو أن هذا الكتاب سيلاحقني. لكن ثمة فقراً في الروايات، على الأقل بقدر ما استطاعت عيناي أن تمسحا.

وعندما جلست أشار إليَّ هيثم أن أَجلسَ في مكان آخر، فهذا هو المقعد الأثير للأستاذ.

وعلى المنضدة المنخفضة المخصصة فيما يبدو للتدريس وضع الأستاذ صينية الشاي. وجلس يعالج بيد خبيرة طقم الشاي الذي يوحي بذوق وميل للتأنق. وبعد ترحيب قصير:

- أحمد هنا مدة طويلة، كما سمعت، ماذا عن الفصل الدراسي في بوسطن؟
- أقوم ببحث هنا ضمن المساق المقبل. بحث اقتصادي.

وتدخل هيثم فسرد سيرة حياتي في دقيقة.

– أيضاً «السلطي» مثل هيثم، ليس فقط ابن عمته.

– كل من جاء من السلط إلى عمان فهو سلطي. لكن هيثم سلطي أصيل. نحن فرع آخر.

– ولماذا غير أصيل؟

– نحن ممن التحق بالأمير عبد الله قبل كم؟.. مئة سنة!

– مئة وثلاثون ربما! أنتم السريجاوية أم الصقال أم أبو الراغب؟

واضح أن هذا العراقي إما أنه فعلاً موسوعة وإما أنه ضابط مخابرات.

– السريجاوية. بعضنا لا يعرف هذا الأصل البعيد. اختلطت الأنساب كثيراً. مئة وثلاثون، نعم في العشرينات من القرن الماضي.

– الأمير عبد الله جاء أولاً إلى السلط، لكنه تحول إلى عمان. وتملك بعض الشوام بيوتاً في السلط، ولكن معظمهم التحق بالأمير في عمان.

– حضرتك يا أستاذ من مواليد الأردن؟

جرَّأني على السؤال أن الرجل خاض في جذور عائلتي خوضاً سريعاً، وبأريحية وبدون ذلك التحفظ المفتعل المعروف، وكأنه لا يعرف مدى اعتزازنا بالانتساب فَقَطيَّاً إلى الأردن. ففي عروقي من الدم الأردني، وربما أيضاً بعض الفلسطيني، بقدر ما فيها من دم شامي. لكن أسلوبه المسترخي كان ذا سحر خفي. وأجاب:

– لا. أنا مولود في النجف بالعراق، نحن شيعة. وفي النجف درست، لكن ليس في الحوزات. دراسة مدنية، وتخرجت من جامعة طهران.

شربت شايي بصمت. كان هيثم قد قال لي إن أستاذه عراقي، ولكنني ظننته من أبناء الهجرة القديمة أيام صدام، وممن توطن. غير أن لهجته كانت تشي بأنه عراقي طازج. راح يسأل هيثم عن

بعض أموره الدراسية، وعن التخطيط الدراسي للسنة التي بدأت لتوها، وكيفية ضمان نجاح معقول في امتحان التوجيهي. ولم يتركني الأستاذ الأربعيني أمعن في تخمين ارتباطه ببلدي..

– أنا هنا منذ ثلاث عشرة سنة. بدأت زائراً بزوجتي المريضة، ومعي طفلتي الوليدة، وتوفيت زوجتي بمرضها، وراق لي أن أظل بعيداً عن ذكريات العراق. وتجنست قبل ثلاث سنين، في حملة التجنيس أيام حكومة أبو الراغب.

ساد صمت، أحسسته ثقيلاً. ولكن هيثم موجود، فلا يطول صمت:

– الأستاذ قال إن بوسطن أصل التاريخ الأمريكي.. صحيح يا أستاذ؟

– أحمد يعرف أكثر بالتأكيد. لم أزر بوسطن ولا أمريكا.

رفعت كوب شايي، وتحذلقت:

– بوسطن موطن «حفلة الشاي»، وبداية حرب الاستقلال.

– بداية التاريخ الرسمي الأبيض للولايات المتحدة، وقبله وبعده هناك تاريخ أسود عرفه الهنود الحمر والسود وعرفه العراقيون. هل لمست آثار الفقر في بوسطن؟

– في قاع المدينة، نعم. لكنها من المدن ذات الرخاء عموماً.

مضينا في حديث عن الأردن وعن الفقر. وعن بحثي الاقتصادي المتعلق بالاستثمار ونجاعته. ووجدت الأستاذ ينير لي جوانب من البحث بكلمات قلائل يدسها في تضاعيف الحديث. أخذت سمت الشاب الذي يتلمس طريقه في عالم المعرفة، واستمعت. وظل السؤال يروح ويجيء في عقلي: لماذا، حقاً، مكث هذا الرجل في الأردن؟

كان يحسن بي ألا أطيل التفكير في أمر من أموره وأنا في حضرته، ببساطة لأنه كان يقرأني بسهولة. ففي انحراف مفاجئ قال:

– لا أدري لماذا هجرت العراق إلى الأردن. أظن أنني فررت بابنتي، لم أرد لها أن تنشأ في العراق، وحسب.

كان يلمس السياسة لمساً هيناً، لكن دون التواء ودون تخابث، وكأنه لا يلقي بالاً للفترة الصعبة التي نعيشها منذ نحو سنتين حين استعاد الملك زمام المبادرة، وعاد بالحريات سنوات إلى الوراء، مستعيناً بالتشرذم الحزبي والنقابي.

اختلط في حديثنا التاريخ بالأدب بالسياسة، ووجدت أن الأستاذ يحادثني كأنني ند له، ولا يتعالم، ويقصر الحديث على مقدار معرفتي، فلا يفتح أبواباً لا أستطيع مجاراته فيها. وكلما مضينا شوطاً التفت إلى هيثم وأدخله في الحديث من باب ما يعرفه هيثم من خلال دروسه. وانقطع الحديث مع رنين هاتف الأستاذ:

– أنهيتم التدريب؟ حسناً. لا، فقط ربطة خبز. لا، باباتي، فقط خبز.

لا بد أنها ابنته. وعاد يسألني عن دراستي، وعما أريده لمستقبلي..

– يبدو أن أمريكا جعلتني رأسمالياً. أفكر دوماً في الاستثمار، لكن ليس في الحجر. عندنا بيت، ولا نريد قصراً. لكن لدينا بعض الأملاك التي يمكن تنشيطها.

وما حان أن نتبادل أرقام الهواتف والعناوين حتى شعرت أن هذا الأستاذ قد تغلغل فيّ. هو فارِق العمر. هي ثقافته. لكنْ، ثمة أيضاً شيء في شخصيته.

وفُتح باب الشقة ودخلت ابنته، وعلى كتفيها حقيبتها المدرسية، وبيدها ربطة الخبز. وتقدمت لتصافح ثم دخلت وراء رف الكتب المزدوج. ظللت وهيثم واقفيْن نتبادل إيماءات الانصراف، فضرب الأستاذ على ركبته ووقف.

بعض الناس يودعك بعد سيل من المجاملات، وقد تجد من يصرفك من منزله صرفاً. لكن الأستاذ ودعنا بالأناقة التي استقبلنا بها.

نزلت الدرج مفكراً في هذا الأستاذ العجيب. ليس هكذا معلمو المدارس، ولا أساتذة الدروس الخصوصية الذين يجوبون البيوت ويعشِّشون في معاهد التقوية.

مضينا في اتجاه الشارع السفلي. أمسك هيثم بذراعي بحماسة:

– رأيت؟ أما قلت لك موسوعة. يعرف كل شيء.

– موسوعة مطبوعة!

– ههه.. مطبوعة.

فهم هيثم النكتة أخيراً. ثم في غمرة حبوره سبقني خطوتين، ومشى بظهره، والتفت بوجهه إليّ:

– سمعت كيف قال لابنته على الهاتف «باباتي».. ههه.

وضحكت من قلبي. هيثم شخصية لا تمل. وقفنا ننتظر سيارة تكسي، سألت هيثم، وببعض الخبث:

– ماذا يدرس «باباتي» في مدرستكم؟

– ليس في مدرستنا. هو فقط أستاذ دروس خصوصية، عنده حقيبة سوداء عتيقة، يدور بها على البيوت. نصف بيوت جبل الحسين تعرف الأستاذ. أنا فقط آتيه إلى بيته.

ثم فجأة أردف هيثم:

– الأستاذ «باباتي».. ههه.

التقط هيثم النكتة عندما وصل إلى آخر جوابه. الحمد لله.

***

كتب لي «باباتي» رسالة شكر قصيرة للزيارة، وشكرته بالمثل في ليلتها. ثم، وأنا في معمعة العقارات والأطيان أطوف بدوائر الحكومة، وأزور النافذين من الأقارب والأباعد الذين يملكون بعض الروافع في البلد، بعث الأستاذ «باباتي» إليَّ بدراسة عن الاستثمارات في البلد، أرجأت النظر فيها أياماً. وذات مساء نظرت في الدراسة فإذا هي دراسة حقيقية لا ورقة أكاديمية تافهة، دراسة تتغلغل في المشكلات الاستثمارية في البلد. كأنها مكتوبة لمنفعة مستثمر كبير يريد معرفة حقيقة الوضع. كتبت لباباتي شاكراً. ومع انغماسي في بحثي الجامعي أحسست أنني أريد جلسة مع «الموسوعة».. جلسة أنانية خالصة.

وحددت موعداً وذهبت وحدي. نعم، بخلاف من يرسلون لك الكتب والدراسات جزافاً، كان باباتي قد قرأ الدراسة بإمعان، وقرأ كثيراً غيرها. وجلست إليه وأنا أكتب بعض ما يقول في دفتري. ولم تمضِ الساعة حتى كان ينحرف إلى السياسة، ويبشر بأن البلد يتغير، ويجب أن يتغير. تعجبت من هذا الذي تجنس قبل ثلاث سنوات ثم لا يتورع عن الخوض في ما يتحسب حتى أهل البلد من الخوض فيه من وجوب التغيير. لم يخفَ عني أن الرجل صاحب دعوة. ولكنني كنت أنا من طلب الموعد، ولغرض انتفاعي شخصي. والتزم مضيفي بطبيعة الزيارة، فلم يفصح عن دعوته.

توادعنا على أن أحدثه عن بعض ما أصل إليه من نتائج، وعلى أن أزوره قبل سفري لاحتساء الشاي الصباحي، فهو في العادة منشغل بعد العصر بدروسه الخصوصية.

في الأسابيع القليلة المقبلة كنت باحثاً ميدانياً مجداً. زرت الشمال والجنوب والأغوار، وعرفت وحل المزارع، وسخام المصانع، وغبار المحاجر. وكان هيثم يوافيني بأخبار شباب جبل الحسين، ونشاطات باباتي الدعوية (مصاغة بفهم هيثم طبعاً).

حملت همَّ الزيارة المقبلة لباباتي كأنها زيارة لطبيب الأسنان. لم أكن مستعداً لنقاش سياسي لا أملك أن أكون فيه طرفاً لقلة خبرتي. الشاب في العشرين يمكن أن يُقاد، ويصلح أن يخرج في مظاهرة، فأما أن يناقش رجلاً في الأربعين فلا سبيل. على أنني عرفت عن أوضاع البلد اقتصادياً بقدر ما عرفته في العشرين سنة الماضية وأكثر. وأحسست بلذة في التغلغل، وظللت أشعر أن واجبي الأخلاقي هو تثمير ممتلكات العائلة.

ومن قليل ما تلقَّطته من هيثم وغير هيثم رسمت في ذهني صورة لباباتي نبياً يبشر بدعوة جديدة. لكنني أحسست أن هذه الصورة ستمَّحي فور جلوسي إلى باباتي، وستحل محلها صورة مختلفة.. لا أدري ما هي. كان قد بقي على إقامتي أسبوعان، وكان لا بد من الزيارة التي لا سبيل إلى تناسيها.. من باب حسن الأدب.

***

وصلت إلى موعدي الصباحي، ولكنني وجدت عند باباتي رجلاً في نحو الخمسين جالساً باسترخاء. وبعد تعارف قصير، أكملا حديثهما. ميزت «مطلوب جوهر» من وجهه فهو من نواب

حزب «الإصلاح اليساري»، ولعله الرجل القوي في هذا الحزب الذي شاخ زعيمه شيخوخة غير صالحة. قال «مطلوب» يخاطب باباتي مقفلاً حديثاً سبق قدومي:

– تكافل أم إصلاح.. المهم أننا اتفقنا على أن الجوهر واحد، والأسلوب واحد وهو التدرج. حسناً، جلسة ممتعة، ولها ما بعدها..

وتحرك السيد جوهر حركة من يريد الانصراف، فاستبقاه باباتي:

– أحمد ليس غريباً. يوشك على الفراغ من بحث اقتصادي لجامعته في بوسطن. نشرب الشاي معاً.

ووجه الحزبي اليساري حديثه إليّ:

– وهل ظل اقتصاد في البلد يمكن الحديث عنه؟

السيد مطلوب يرمي خمسين سنة من التجربة في وجه عشريني الغضة، ثم يسكت. إذن علي أن أدخل معه في هذه القافية الصعبة:

– لو نظرنا إلى فوق سنتشاءم، ولو نظرنا إلى تحت فهناك مجال للتفاؤل.

– وتريدنا أن نلحق بالركب الصاعد إلى فوق.

– بالضبط.

– مقولة بحاجة إلى تفكيك كثير كي تؤول إلى.. لاشيء. اللحاق اللحاق. لماذا لا نصنع الحدَث؟

– وبهذا نلحق.

– اللحاق من جديد!

لم أكن مرتاحاً لنبرة الصدّ الحادة. ولا كنت قادراً على التعبير عن نفسي. فجاء صوت باباتي من وراء رف الكتب المزدوج:

– ما العيب في اللحاق يا مطلوب؟

– ها نحن لاحقون في المولدات الشمسية. فما النتيجة؟ هل استغنينا عن الفرنسيين؟ لا. هل امتلكنا التقنية؟ لا. هل المشروع بكليته رابح؟ لا.. وكلا.

ووجدت مدخلاً لأدلي ببعض ما عرفته عن قرب:

– كنت في دوار التوليد الثالث في الجنوب قبل عشرة أيام. المشكلة مالية وعلمية معاً. لم نضخ رأسمال كافياً، ولم تتمكن مدارسنا وجامعاتنا من الحفاظ على سيل كاف من الخبرات. ثم إن المتميز يطير إلى فرنسا أو أمريكا ولا يعود، والعادي يتواكل؛ ويظل الفرنسيون ممسكين بالتقنية التي تتجدد بوتيرة سريعة.

كنت قد درست الوضع جيداً في يوم كامل قضيته هناك. واختار النائب اليساري أن يغير الموضوع. كانت عيناه الزائغتان قد بدأتا تجريان حسابات سياسية محضة. ولم يعجبه صغر سني. لعله ظن أنني من جماعة «التكافل» فلم يرق له أن يخوض نقاشاً يكون فيه فرداً مقابل اثنين.

شرب شايه وهو يقص على باباتي تفاصيل آخر فضيحة جنسية سياسية، ويطلق ضحكة مدوية كلما تبرع باباتي بتعليق خبيث، فتوحي أسنانه المفروقة بأنه رجل يحب المفارقات وبأنه يملك أن يضحك ويعبث. وانتصب فجأة مدركاً أنني أنا جئت بموعد، وأن عليه أن يخلي المكان.

أعجبني أن باباتي لم ينتف ريش ضيفه المنصرف. وقد تعلمت – ربما متأخراً، وأثناء دخولي في صراعات الطلبة العرب في بوسطن – ألا أفعل هذه الفعلة، تعلمت ألا أطعن الناس في ظهورهم، تعلمت ذلك من زملائي الذين جاءوا من خلفيات قروية، فالقروي حذر متحفظ، ومتأهب دائماً لتغيير ولاءاته بحسب مصالحه الصغيرة التي هي عماد حياته، لكنه لا يحرق جسوره. احتسيت شايي وأنا أقدم لباباتي ملخصاً لنشاطي، وأثني على الدراسة التي كان بعثها إلي. وفجأة قلت له:

– سمعت عن حزب «التكافل» من هيثم، والآن غدوت أظن أنك زعيم الحزب.

– رسمياً أصبح التكافل حزباً قبيل التشديد الأخير. والآن قصرنا نشاطنا على الطلبة والموظفين وأخذنا نتجنب إحداث دوي. أصبح وضع الأحزاب في البلد على كف عفريت كما ترى. ثم.. لا، لست الزعيم.

وضع باباتي فاصلة منقوطة في كلامه بشكل هرير محبب، و..

– الزعيم لا يكون عنده كتب كثيرة.

ثم وضع فاصلة تمثلت في حك حاجبه، وفتح جفنيه لتتسع عيناه الضيقتان إلى الحد الأقصى مع هزة رأس..

– الزعيم هو من يتخيل نفسه في صباح كل يوم مسوقاً إلى المشنقة.. هذه رياضته الصباحية. فإذا سيق (فعلاً) إلى المشنقة سار الهوينى غير حاسٍّ بالفارق بين الخيال والواقع. الزعيم ثائر محترف.

– وزعيمكم ثائر محترف؟

– منذ سنوات هو كذلك.

– لكنكم مع «التدرج» كما سمعت.

– ومع السلمية التامة. «فابيُّون» إن شئت، أو دعاة إصلاح، مع أن كلمة إصلاح غدت حكراً على حزب الإصلاح اليساري. نحن دعاة التكافل.

– هذا اسم الحزب؟

– هكذا سميناه في آخر كراس.

– بعث إليَّ هيثم نسخة.

– لكنني حذرت هيثم من الخوض في السياسة، وحثثته على التركيز على دروسه، فلم ننشئ بعد فرعاً للشبيبة. لكننا نفكر في الأمر. لماذا سألت عن الزعيم؟

– فقط ظننته أنت. ربما فضول.

– لماذا لا تقابله؟

– يسكن قريباً؟

– ليس بعيداً. في سجن المحطة.

– أها. لم أدرك أنه سجين. ربما انشغلت أكثر من اللازم في الأسابيع الماضية، فلم أتابع الأخبار.

– وأبعثُ إليه معك كتاباً.

وقام باباتي بثقة، واستل كتاباً إنجليزياً ورقي الغلاف عن تاريخ الأردن. وأحسست أنني أتعرض للتوريط. وقال بقدر من اللامبالاة وهو واقف يقلب الكتاب:

– هذا إن كان لديك وقت، وأحببت فعلاً التعرف إليه.

– تقصد أن (أتورَّط) مع المخابرات في سياق التعرف إليه.

هز رأسه بالموافقة، وبدون فواصل أو نقاط، وحتى بدون أن يحدجني بنظرة يستل بها موافقتي (كان باباتي يقرأني دون أن يحتاج إلى النظر في عيني) مد يده بالكتاب:

– هل مرَّ بك؟

هززت رأسي نفياً. فلم أكن أقرأ بالإنجليزية قبل أمريكا سوى أقل القليل. أمسكت بالكتاب بيد متوترة. وكان من بالغ لطف باباتي أن انسحب وراء رف الكتب بحجة إعادة صينية الشاي مانحاً إياي دقيقة للتفكير.

عندما عاد. سألت من فوري عن اسم الزعيم، وعن مكان سجن المحطة.

– التاكسي سيضعك على باب السجن. قل للعسكري على الباب: زيارة. وقل له: الزعيم، أو الزعتري.

غير معقول هذا الذي يحدث: رضيت أن أزور زعيم حزب مغضوباً عليه، ورضيت أن أتورط مع حزب كل ما أعرفه عنه أنه أصدر كراساً جيداً! لم أكن آنذاك قد قرأت أشهر كراس تأسيسي في تاريخ أحزاب الدنيا وهو البيان الشيوعي لكارل ماركس وصاحبه إنجلز، ولكنني ما ظننته يكون بسلاسة كراس التكافل. كنت أقلب الصفحات العشرين على جهازي حانقاً لأنني لا أجد الثغرة التي أقف حيالها وقفة الناقد. وقد تعلمت من أمريكا، وحتى قبل أمريكا بقليل، أن لا أقبل فكرة

على عواهنها، وأن أدق إزميلي في الصخرة حتى تبوح بالعِرق الذي سيشقها. لكن كراس التكافل كان مكتوباً كأنه قصة أطفال لا تحتمل الخطأ. نص ليس فيه جملة صعبة ولا فكرة صعبة، ولا يملك قارئه إلا أن يقول بعد كل فقرة: هذا صحيح.

نهضت، فعرض باباتي فنجان قهوة، فاعتذرت وصافحته بعزم، وفي يسراي الكتاب. وشيعني بابتسامة عذبة.

***

أخذت التاكسي من باب بيت باباتي إلى سجن المحطة. نظر عسكري البوابة إلى ساعته، وقال متبرماً:

– بقيت عشر دقائق فقط. لماذا تتأخرون؟ وبعد ذلك نضطر إلى أن نجركم جراً إلى الخارج.

– الزعيم..

ولم أكد أنطقها حتى قال عسكري البوابة لعسكري الكشك «زيارة للزعيم». ثم اقتادني خطوات إلى الداخل، وأسلمني إلى عسكري آخر، وقال له «زيارة للزعيم». بدأت تعجبني التمثيلية.

تخيلت نفسي واقفاً بعد قليل أمام قضبان يقبع خلفها رجل خمسيني كمطلوب جوهر اليساري. ورجوت أن يكون هذا «الزعيم» أسمن قليلاً من ذلك اليساري الأعجف الذي كانت تنفرج قهقهته عن أسنان مفروقة وهو يتلمظ بالفضائح. لكنني أعترف أن انطلاق تلك الضحكة من أعماق فؤاده كان يجمل أسنانه.

الذي يملك أن يقهقه للتوافه قد يكون تافهاً، وقد يكون غير تافه، لكنه لا يستطيع أن يكون خبيثاً.

مررنا بعنبر الزيارات ورأيت الزوار يقفون أمام الشَّبَك المزدوج المشطور بقضبان خضر يحادثون السجناء بصراخ يصم الآذان. وتمهلت هنيهة، ولكن العسكري ظل يمشي، فتبعته، وانحرفنا إلى اليمين ودخلنا في ممر فخفتت أصوات الزوار. ربما بدأ العساكر يحثونهم على المغادرة. وفي آخر الممر أُجلست إلى مقعد خشبي طويل وانصرف العسكري. دقائق ثم صفا هواء الممر من ضجيج الزوار، وران الصمت. شعرت أنني سجين.

لقد تركت بطاقتي على البوابة. حسناً، أنا سجين الآن. لعل حزب التكافل الوليد يريد أن يسجل نقطة نضالية بوضعي في السجن بأيسر سبيل.

خرج من الباب المقابل لمقعدي عسكري مهندم. ضابط.

– تفضل.

دخلت حجرة مرتبة لكنها فقيرة الأثاث، وفي صدرها مكتب عليه لافتة (مدير السجن). وإلى جانبي المكتب كرسيان. وكأنَّ مدير السجن توقع أنني أعرف الشاب الثلاثيني الذي وقف بجانب كرسيه لمصافحتي، وأنه يعرفني، فلم يقل شيئاً. أطفأ سيجارة كانت تحتضر في منفضته، وخرج من المكتب وأنا أصافح الشاب مندهشاً، عرَّفت بنفسي، ومددت يدي بالكتاب.

– أهلا بك يا أحمد. تفضل.

شكرني للزيارة، وسألني إن كنت أدرس أم أشتغل. فقصصت عليه قصة أمريكا وبوسطن وبحثي الاقتصادي في نصف دقيقة. نظر في الكتاب.

– كنت أبديت رغبة في قراءته، ثم فاجأتنا الإجراءات الأخيرة.

وراح يسألني عن أمريكا سؤال عارف. قال إنه كان في تكساس مدة، وإنه زار بوسطن.

لم ينقضِ تعجبي من سنه، نحو ثلاثين، قل اثنين وثلاثين. ومع ذلك يبدو زعيماً حقاً. عينان سوداوان ثابتتان يخرج منهما شعاع ليزر. ووجه مكتنز مدور لا يلتفت يميناً ولا يساراً، ويجتذبك لكي تسبح في عينيه. لم أكن أُومن بالتنويم المغناطيسي قبلئذ. على رأسه طاقية الحُجَّاج، ويرتدي معطفاً أسود وبنطلوناً رصاصياً، وينتعل حذاء أسود. وياقة قميصه الأبيض نظيفة. وكانت أمي علمتني أن أنظر، في الرجل الذي يرتدي قميصاً أبيض، إلى ما يظهر للرائي من باطن الياقة، أنظيف هو! فهذا فرق ما بين الجنتلمان الحقيقي والزائف. بدأ بسؤال:

– لماذا اخترت موضوع الاستثمار في البلد؟

– لأنني بعد حين أريد أن أثمر ممتلكات العائلة.

– نحن نصعد اقتصادياً أم نهبط؟

– نصعد بأبطأ مما يحافظ على المكتسبات، وهي قليلة.

– هل أسفر بحثك عن توصيات؟

دخل عسكري بكوبي شاي. وضع كوباً أمام الزعيم:

– تفضل زعيم.

ووضع كوباً أمامي، وخرج. لم أجب عن سؤال الزعيم، بل سألت بدوري:

– زعيم وسجين.. لعلك تسمح لي بأن أندهش.. هذا إن لم تسمح لي بالسؤال!

أجاب بابتسامة ضيقت عينيه، وأخمدت فيهما للحظة شعاع الليزر:

– لي في البلد علاقات، بعضها مع الأمن. ليست شيئاً سرياً. الزعيم، قديماً، رتبة في الجيش.. اليوم يسمونه العميد.. ولست عميداً.

مع ارتشافنا الشاي دخل مدير السجن، وجلس إلى مكتبه.

– أهلاً بالزعيم، وضيف الزعيم.

– ضيفنا اقتصادي واعد.

والتفت الزعيم إليّ:

– متى تقفل عائداً من أمريكا؟

– بعد سنتين. لن يتاح لي أن أزور البلد كل سنة. أنهي دراستي وأعود.

– تفكر باستكمال الدراسة؟

– لا. الأمر أهون من ذلك. جهد ضائع.

قاسني بعينيه القياس الأخير. وقام مودعاً، وهو يشكرني لإحضار الكتاب، وقام بقومته مدير السجن، وهو يدق جرساً للعسكري الذي فتح الباب ثم صحبني إلى الخارج وأنا أستحم في عرق

الفضول.

***

كدت أركب سيارة إلى بيت باباتي، ولكنني ارعويت.

لن تقلني طائرة العودة قبل أن أعرف حقيقة هذه التمثيلية التي قمت فيها بدور المغفل.

ركبت الباص إلى وسط البلد، إلى قاع عمان، وفي الباص دققت رسالة إلى باباتي أخبره فيها بأنني عائد من زيارة الزعيم، وأن الزعيم يشكره على الكتاب. أردت في الواقع أن أقول لباباتي إنني رجل «فعل»، فقبل ساعتين أو ثلاث كنت في بيتك، والآن قد فرغت من المهمة الغامضة. أردت أن أقول له إنني أحسن الإمساك بالثور من قرنيه. وقد علمتني دهاليز أهل المال والقرار في الأردن في الأسابيع الماضية أن من لا يمسك الثور من قرنيه سيحس بهما في أحشائه.

قررت أن أترك الفضول يشوي أمعائي ولا أطلب موعداً مع باباتي الذي لم يجبني على رسالتي. وفي المساء هاتفني:

- أحمد، أليست طائرتك الأحد فجراً؟
- بلى،
- فأنت ستبدأ في الصحو مبكراً منذ الآن، بقي لك كم من الأيام.. خمسة أيام؟
- نعم،
- تعال نفطر سوياً غداً، ما رأيك؟

***

لا أريد أن أسافر حاملاً في حقيبتي ألغازاً من شأنها أن تشغل تفكيري، وتصرفني عن كثير من أمري. بكرت إلى بيت باباتي. فتحت لي الباب ابنته وهي بمريولها متهيأة للذهاب إلى المدرسة.

دس في كلامه ما فهمت منه أنه لا يفكر فيَّ كعضو في «شبيبة» الحزب، وشرح أن الوضع الحالي، إذ يشدد جلالة الملك قبضته، لا يمكن أن يدوم طويلاً. حتى لويس السادس عشر اضطر إلى

البرلمان عندما أراد فرض الضرائب. وسيكون لحزب التكافل الوليد شأن في المرحلة المقبلة. كان يتكلم باسترخاء وهو يدفع نحوي بالطبق بعد الطبق من حواضر البيت في إفطارنا المتواضع.

ظلت الأسئلة كثيرة. كل لقمة كانت تحجز وراءها سؤالاً. لم أكن تعشيت فأقبلت على مائدة باباتي بشهية.

وعلى الشاي خجلت أن ألقي كل أسئلتي، لكنني أيضاً شعرت أن كل سؤال يزيدني انغماساً في موضوع لم أهيئ نفسي له. لا يفلح امرؤ يتزوج «على» زوجته التي يحبها. وأنا قد عزمت على الزواج من العمل الحر. والسياسة قيد.

فقط سألت عن الزعيم. فقال باباتي:

– كما رأيته فهو قليل الكلام. لاحظت ولا شك؟ وما أعرفه أنه من الزعاترة أصحاب الأرض التي قام عليها المخيم المشهور أيام الثورة السورية. وعندما شب رأى أهله قد جعلوا من قضية اللاجئين السوريين قضيتهم، واتخذوهم جيراناً، حتى بعد أن تحول المخيم إلى مدينة. وتصدر الزعيم القضية، وصار في الدولة صاحب كلمة لأن وراءه مليون سوري في البلد. وانخرط في دوائر الأمن وعلت رتبته غير أنه ظل أميناً لقضيته. وسافر إلى أمريكا لجمع المال للقضية ومكث نحو سنتين، وعاد لتصبح قضيته أوسع.. كل الذين انقطعت بهم السبل صاروا قضيته. وقبل مدة جاءني عندما بلغه أنني أنشر أفكاراً تشبه أفكاره، ولم يكن هناك حزب بعد.

– لماذا هو في السجن؟

– جلالة الملك غاضب عليه. فقط. قال اسجنوه. جلالته يرى فيه ضابطاً تجرأ على الدخول ليس فقط في السياسة، بل في تأليب الناس على الحكم. والزعيم يرى نفسه صاحب قضية أولاً، ولكن ظروفاً غريبة اضطرته إلى أن يكون ضابطاً.

– ويقرأ الإنجليزية..

– أحسن مني. ربما يكون قد درس في الجامعة الأميركية. هو ليس ممن يقرأون كثيراً، فكيف واتته هذه الإنجليزية؟ لا أدري.

– لستم مثل الأحزاب الوليدة. أراكم منفتحين وليس عندكم أسرار.

– تركنا الأسرار كلها لليسار بدهاليزه وشبكاته الاجتماعية، ولحزب الحق الذي يمكنك الآن أن تصنفه كعائلة لا كحزب. كلا الحزبين يتكاثر بالانشطار الداخلي، كأنهما طائفة الصابئة التي لا تأخذ ولا تعطي منذ آلاف السنين. وأما نحن فأهل سلم وتدرج في المطالب.

– واليسار، كما قال مطلوب جوهر، أهل تدرج.

– هم عائلة، ونحن حزب.

انتظرت أن يدعوني باباتي إلى الانتساب للحزب، لكنه اكتفى بأن سألني إن كنت مستعداً لتقديم عون في أمريكا بالاتصال ببعض الأثرياء الأردنيين من أصدقاء الحزب الذين جندهم الزعيم وهو هناك.

– بأي صفة يمكنني أن أخاطبهم؟

– يا أحمد أنت معنا، وأنت ثقة.

هكذا بلا تقديم طلب وبلا دفع اشتراك، أصبحت عضواً في حزب التكافل.

خرجت من عند باباتي بعد مصافحة قوية وابتسامة هادئة. تأملته بقامته المنتصبة وفمه الواسع ونظرته الصافية كأنني أريد أن أختزن صورة له ستعيش معي بالتأكيد سنتين قبل أن أعود من أمريكا إلى الأردن.

لم أحمل في حقيبتي ألغازاً، بيد أنني حملت همَّاً سرعان ما سيتحول إلى نحس ناحس.

2

فاجأتني غرفتي في النزل الذي حجزته عن بُعد على أطراف حي المال. ما كان أجمل الصورة على شاشة موقع الحجز، وما أقبح الواقع. كانت هذه أولى المناحس. وكنت أعول على مهارتي في اقتناص الدولارات من سوق الأسهم، واكتشفت سريعاً غبَّ عودتي أن أصابعي تيبست على جداول الأسهم، فقد فقدت في الأسابيع الكثيرة التي غبتها ميزة المتابعة الحثيثة. ولسكناي شرق النهر بعيداً عن الجامعة – التي لم أغدُ شديد احتياجٍ إلى محاضراتها لاتجاهي في الدراسة اتجاهاً بحثياً – لم يتيسر لي العمل المأجور في المكتبة. فأخذت أتبلَّغ بسويعات صباحية أعملها في مطعم «جنة الفلافل» أطحن الحمص وأعد الخلطة، وبمساءات أقضيها نادلاً في المطعم الإيطالي أيام السبت. كل هذا حتى لا أثقل على العائلة.

فقدت أصدقائي وصديقاتي، وانسلخت عن الجو الطلابي. غير أن المنحسة الأوجع كانت أن أستاذي انتقد بحثي بعاطفة غضب قوية توازي ما قال إنه «عاطفة تسللت إلى مفاصل بحثي». لبثت أسبوعاً أعانده وأعاند نفسي. ثم تسلل إليَّ بالتدريج شعور هادئ بأنني صغت مقدماتي ونتائجي صياغة رغائبية. ليس من الحكمة أن يجري الطبيب جراحة على أمه.

أخذت أتصل ببعض من كنت قابلتهم خلال بحثي وأطلب المزيد من المعلومات. وقعدت وكتبت البحث كتابة جديدة. وما كدت أنتهي حتى جاءني اتصال من باباتي. خرج الزعيم من السجن. حسناً، هذا متوقع. و.. هل يمكنني أن أتوجه إلى أورلاندو بفلوريدا لمقابلة ثري يعِد الحزب بمبلغ كبير، ولكنه بحاجة إلى أن يستفسر عن أمور؟ ورسالة أخرى من باباتي تتضمن جدولاً بنفقات الحزب ونشاطاته.

هبطت كتفاي، ودقَّت ذقني صدري تحت وطأة التغيير المفاجئ الذي طرأ على حياتي، وبفعل التمزق الذي بدأت أعانيه بين هم حزبي وهم معاشي وهم دراسي. ثم رفعت رأسي، وحجزت إلى أورلاندو. لا أظنه غاب عن باباتي أن المسافة ألف كيلومتر، لكنه لم يشر إلى ذلك في رسالته إشارة امتنان أو اعتذار، إنه يحك معدني.

***

استقبلني السيد أنطون في مطعم شرقي أدركت سريعاً أنه يملكه. ومضينا في حديثنا: سيد أحمد وسيد أنطون، إلى أن التقطت من النادل كنيته فبدأت أخاطبه بأبو فادي. كان يرتدي بنطلون جينز وقميصاً معرقاً لا يحلم رجل في الستين، كأنطون، في بلادنا بأن يرتديه. كان يجلس إلى كرسية مسترخياً ماداً ساقيه، فإذا ما عرف أنني أعمل في «جنة الفلافل» أقبل عليَّ باهتمام وأخذ يوالينني بالأسئلة عن جودة المطعم وزبائنه. تحفظت بعض تحفظ، فضحك وقال:

لا بأس، أنا رجل صاحب غرض في هذا الاستفسار، فأنا أملك سلسلة مطاعم شرقية، وقد أفكر في بوسطن.

حدثني عن أمواله وأشغاله، فأحسست أنه محدث غنى، وأنه لن يتبرع بالكثير. لكنه عرض أن يدفع لي ثمن تذكرة الطائرة، فرفضت بإباء. وسجَّل تبرعاً معقولاً للحزب.

***

ليت باباتي يمعن النظر في الخريطة قبل أن يطلب مني القيام بمهمة أخرى. وقمت بمهام أخرى. لا بل إن بعضها جاء بمبادرة مني، فجنيت تبرعات طيبة للحزب، وكونت له مجموعة داعمة من الأصدقاء الأغنياء، ونظمت بعض الطلبة الأردنيين أعضاءً في الحزب. ثم سرى الدم في أصابعي وحققت مكاسب طيبة في الأسهم أراحتني من العمل في المطاعم، وامتلكت سيارة.

كنت ذات عصر أجلس في متنزه على نهر تشارلز عند كيمبردج، أقضي ساعة قبل التوجه إلى موعد في جامعة هارفارد. وكنا نحن طلبة جامعة «الميت»، وربما طلبة كل جامعة أخرى في أمريكا، نحسد طلبة هارفارد، ولا نقترب منها، نتعالى تعالياً كاذباً. كان يوماً ميتاً في حياتي، فقررت بث بعض الحياة فيه بأن أتعرف إلى هارفارد: لماذا هي أهم جامعة في الدنيا؟ ليس أنني أحلم بأن يكون لنا في عالمنا العربي جامعة مثلها. ولكن، لعلي أخرج بعبرة.

قضيت الساعة في حلم يقظة، ثم نفضته عن ذهني بصعوبة وأغذذت السير، أخذت شطيرة من مطعم كادوبا المكسيكي، وعبرت الشارع إلى مكتبة هارفارد المركزية.

التقيت فتحي الطالب المصري. في الثلاثين من العمر، ويحلم بجامعات حقيقية في بلده، ويصد نفسه عن الحلم كلما ألم به:

– أحسن شيء أن ينظر المرء إلى الأوضاع في تشاد والصومال فيحس بالتفاؤل. مع ذلك لسنا في الوسط، نحن قريبون من القاع.

– هل ستفيدك حقاً الدكتوراه في العلوم السياسية عندما تعود إلى مصر؟

– ستفيدني، ولكنني أشك في أنني سأفيد مصر بها. فائدة شخصية. ومقدماً أقول لك إنني سأطبع على بطاقة التعريف تحت اسمي «دكتوراه من هارفارد».

مضيت إلى ما جئت من أجله أستخبر عن الأساتذة ومكانتهم العلمية الحقيقية، وعن المختبرات وعما يصدر عن هارفارد من علم جديد.

تعلمت أشياء وعدت بحسرة إلى غرفتي التي أصبحت الآن قريبة من حرم جامعتي. ثلاثة كيلومترات تفصل جامعتي «الميت» عن هارفارد، فكم سنة ضوئية تفصل هارفارد عن أحسن جامعاتنا؟

كان الهم السياسي قد تمكن مني، يرتدي ثوباً اقتصادياً حيناً، وثوباً تعليمياً حيناً.

اتصل بي بعد مدة صديقي المصري فتحي يعرض اصطحابي إلى مدرسة «ماذر» حيث دعي ليلتقي الطلبة ويحدثهم عن الشرق الأوسط.

كل شيء في بوسطن هو أقدم شيء في أمريكا، فهي أولى المدن البيضاء، وهي صاحبة حفلة الشاي الشهيرة. ومدرسة ماذر، في السياق نفسه، هي أقدم مدرسة في الولايات المتحدة كلها. وكان لا بد في الدقائق الأولى من أن يصدعوا رأسنا بهذه السابقة. لكنني فزت بمجموعة من الكتب المدرسية التي جعلتني أعيش الثقافة التي يتم عليها تنميط الطفل، ثم الفتى، الأمريكي، وجعلتني

أشرب اللغة الإنجليزية – الأمريكية من المعين الصافي. فأما لغة الشارع فقد عرفتها في الشارع، وأما لغة الدراسات الأكاديمية فقد غثيتْ بها نفسي.

***

تلكأت في الفصلين الدراسيين الأخيرين، فالحزب يوشك على خوض الانتخابات النيابية، ولم أكن أريد أن أجد نفسي في مهرجان انتخابي، ولا عنصراً في حملة انتخابية. يكفيني ما شهدت هنا من مهازل انتخابية أمريكية. وجاءتني رسالة رقيقة من الزعيم يطلب فيها أن ألتقي أشخاصاً يعرفهم في تكساس. ولم أجد بأساً هذه المرة، فميزانيتي تسمح، وليكن نصيبي من الصخب الانتخابي في الأردن مجرد رحلة إلى تكساس. ذهبت وجمعت المال للحزب. وفي النتيجة فزنا في الأردن، بثلاثة مقاعد من أصل المئتي مقعد: الزعيم وعصام ويسرى. يبدو أن باباتي يريد أن يظل الأصابع الخفية، أم أنه هبط على السلم الحزبي؟ أم لأنه حديث عهد بالتجنس؟ أم لأنه شيعي، والحزب لا يريد أن يؤتى من ناحية الطائفية؟ لم أستطع تقدير الموقف.

هاتفتني أمي تريد التحضير لرحلة لها ولأختي منال إلى أمريكا (بدعوى حضور حفل التخرج). حسن أنني لم أبعْ سيارتي! وعليَّ الآن أن أقوم بدور الدليل السياحي عشرة أيام.

بدأت أتعجل الأيام، فلم يبقَ لي في أمريكا شيء أنتظره. والإنسان الإيجابي يسير في حياته ناظراً إلى الجزرة التي أمام عينيه، غير مكترث للحجر الذي تعثر به قبل خطوتين، ليس أنه سيأكل الجزرة!

نيويورك، فيلادلفيا، واشنطن، ثم العودة إلى بوسطن. ثم شحنت نفسي وأمي وأختي في طائرة العودة.

ما أصعب اجتثاث المرء نفسه، حتى لو كان ذلك لغرض العودة إلى الوطن. وما أصعب أن يعود المرء عودة هي قفزة في الظلام، ينتظره بعدها تمزق بين السياسة وبين العمل الحر.

واكفهرَّ شتاء عام ألفين وثلاثة وخمسين.

3

يمكنني أن أصبح تاجر أراضٍ، بادئاً بأملاك العائلة وإن تكن متواضعة بالقياس إلى ما يملكه تجار الأراضي في بلدنا. ولكن هذا الممكن لم يكن ما أريد. تاجر الأراضي يسحو قشرة بعد قشرة من الأرباح، مثل العامل على سيخ الشاورما في مطعم «جنة الفلافل»، يقضي نهاره وهو يسحو، وفي النهاية يفوز بسيخ عار. تاجر الأراضي تروح وتأتي قطع الأرض أمام عينيه، ولا يرتبط بأرض دون أرض، ولا يقف في سهل أو على سفح جبل فخوراً بما عمره. أراضيه بور صفراء أو جبلية وعرة، فإذا رآها بعد حين قد عمرت بالمباني واخضوضرت بالبساتين فهي لم تعد أراضيه، وقد تورثه أسعارها الجديدة الحسرات.

لم أكتب على بطاقة تعريف أنني متخرج من أمريكا، ولا كانت لي أصلاً بطاقة تعريف.

بعد يومين من وصولي كنت في مخدع باباتي. كنت، كالمرة الأولى، أعاني النعاسات الغريبة بعد الرحلة الطويلة. وكالمرة الأولى كنت بصحبة هيثم. الوقت صباح، فباباتي يداوم مساء في معهد تقوية، ويدرّس خليطاً من اللغة العربية والإنجليزية والعلوم بحسب ما ينشأ من فراغات في جدول المعهد. وهيثم، الذي زايله قدر من بساطته، طالب في كلية مجتمع، وهو عضو في الحزب.

فرق بين أن يناصرك الشباب وبين أن يتفضلوا بالتوجه إلى مراكز الاقتراع. كانت سمعة الحزب تزاحم بقوة سمعة الثلاثة الكبار: اليسار، والحق، والمستقلين – أي الحزب الملكي –. كان القوة الواعدة. ولكن نظام المناطق حرم التكافل من الثلاثين مقعداً التي يؤهله لها عدد الأصوات، وأبدله منها ثلاثة مقاعد هزيلة هزت مكانة الحزب في أعين الذين انتخبوه، وأورثت أعضاءه غضباً على النظام الانتخابي. لكن الأردن هو الأردن منذ خمسين سنة. والنظام الانتخابي لا يكاد يتغير إلى

الأفضل فيحتوي على جرعة من التمثيل النسبي حتى يعود القهقرى إلى المناطقية البغيضة. فازت يسرى والزعيم عن الشمال، وعصام عن البقعة. وباباتي كامن في مخدعه.

سعدت بلقاء باباتي، أحسست أنني في عائلتي. وسألني عن كل شيء سؤال أخ أكبر. رأيت فيه والداً فقدته يافعاً، وأخاً أكبر لم يكن لي. وعندما فتح موضوع الوثيقة الحزبية الأخيرة التي نشرت بُعيد الانتخابات ولم تتطرق للانتخابات بكلمة، أثنيت على أنها أصرت على معالجة القضايا الكبيرة دون التأثر بالنتيجة الانتخابية. وسألت عن نقاط في حقلي التعليم والاقتصاد.

قطع عليَّ القول وصول الزعيم.

رحب الزعيم بي بالقبلات الأردنية المعهودة وبوجه عامر بالثقة والمحبة. نعم، قد كنت حسبت في ذهني الأموال التي جمعتها في مغتَرَبي للحزب؛ ونعم، كنت أعرف ويعرف الحزب أنني لم أتقاضَ من هذه الأموال دولاراً واحداً، لا ثمن تذكرة ولا وجبة. لكنني لم أكن أحس في أعماقي بأنني مفضل على الحزب. رأيت الامتنان في ترحيب الزعيم وفي كلمات الشكر التي لم أتوقعها. هذا هو الفارق بين زعيم يحسن أن يثني ويكافئ، ويحسن أن يلوم ويعاقب، وبين مفكر يتعامل مع الناس والأفكار ببرود. هذا هو الفرق بين باباتي والزعيم. ثم نظرت في وجه باباتي، فإذا هو يتألق انشراحاً بينما الزعيم يرحب بي ويجلسني بجانبه على الكنبة الكبيرة المهترئة، بينما جلس باباتي في مكانه قريباً من باب الشقة.

كان هيثم قد انتحى جانباً وجلس على كرسي. وأشفقت عليه من جلسة يكون فيها على الهامش، وأشفقت على نفسي في جلسة أكون فيها في موضع صداري قد لا يؤهلني عمري له. غير أن باباتي أسرع بتذكيري بما كنت بدأت فيه من حديث عن الوثيقة الأخيرة.

أهلتني أمريكا، والبورصة، وجامعتي، وأهلتني أيضاً قراءاتي الغزيرة القديمة في الأدب والتاريخ لأن أعرف كيف أوجز.

باباتي رجل يعرف كيف يحمل حقيبته السوداء المهترئة ويذهب بها عصر كل يوم إلى معهد التقوية لكي يقوت نفسه وابنته، ويعرف كيف يكون عقلاً، وكيف يكون مخلصاً. ولا يهمه أن يأتيه شاب في نصف عمره كي يزرع دبابيس النقد في وثيقته، ولا أظن أحداً كتب معظمها سواه.

والزعيم يجلس الآن بجانبي يحك بيده اليمنى حاجبه الأيسر، ويتهيأ للاستماع إليّ.

حاججني باباتي بالكلمة وبالإطراقة وبوضع سبابته على شفتيه. وقلت كل ما عندي بأناقة. سأل الزعيم:

– علمت أن لكم بيتاً في السلط. ألا تسجل سكناك هناك!

– نعم، بيت نابلسي عتيق بنوافذ عالية، بيت عقروقي كما كان يقول والدي. تسكنه الآن عجوز من العائلة ومعها ابنتها.

ساد صمت، فمضيت:

– قد يكون مفيداً أن أفعل ذلك.

سعدت بفكرة أن يريدني على قائمة مرشحي الحزب المقبلة، عن السلط. ولم يكن المغزى بعيداً عن باباتي بالطبع، فأما هيثم فظل جالساً على كرسيه منتحياً، إلى أن حياه الزعيم تحية مفاجئة:

– وأخبار الكلية يا هيثم؟

وأشرقت ابتسامة هيثم هيَّابة، وقال كلمات قليلة. ونازعه الزعيم الكلام هنيهة. ثم تدخلت حريصاً على عدم تضييع المناسبة، وعاطفاً كلماتي على ما سبق من انتقاداتي:

– ليست الدراسة الجامعية بأقل إحباطاً من المدارس. وقد فرحت بأن وضعتها ورائي.

وما أتممت عبارتي حتى تدخل الزعيم مبتسماً ومذكراً إياي بعبارة قلتها له قبل ثلاث سنين في سجنه:

– جهد ضائع!

ابتسمت، وتابعت وأنا مصمم على ألا أفوّت رسالتي المهمة:

– الآن سأدخل دوامة الاستثمار والعمل الحر. أرجو أن يكون جهداً مثمراً.

تدخل باباتي وغير الموضوع. ربما نجحت بعبارتي تلك في أن أنسحب من عمق الحياة الحزبية، ولكن باباتي حريص عليّ.

شد الزعيم على يدي وهو يودع:

– السلط، لا تنس!

وعرف الزعيم من إيماءتي المبتسمة أن هذا سيكون.

***

انصرفت سعيداً بأن الزعيم راضٍ عني. وسألني هيثم بعد أن خرجنا:

– أتعرف لماذا لم يدخل باباتي الانتخابات؟

– لماذا؟

– لا أعرف.

– ولا أنا أعرف. ومن هو «باباتي» بالمناسبة؟

– ههه. كل شباب الحزب في جبل الحسين يسمونه باباتي، وأنا أخاف أن يعرف أنني أنا وأنت سبب هذا اللقب. هو لا يعرف الآن شيئاً.

لكن أمنية هيثم خابت سريعاً. فقد أخذت المواقع تسميه باباتي: في البداية المواقع المعادية، ثم سريعاً كل المواقع. بدأت شهرة باباتي تتسع. لم يكن ناسك الحزب تماماً. كانت له نشاطات حزبية فكرية وندوات، وبعض الملاسنات المتلفزة. كان الأمين العام للحزب.

أما أنا فوفيت بوعدي وبدأت أتهيأ للانغماس في العمل الحر. وقبل أن يتاح لي الانغماس الحقيقي وجدتني عضواً في مكتب القرار، الهيئة التنفيذية للحزب، في أول تشكيلة رسمية له.

لكنني ظللت مصمماً على العمل الحر. ومرت الأيام بطيئة حيناً وسريعة حيناً، لكن أشهراً كثيرة مرت والسياسة فيها على هامشي.

وانتصف عام ألفين وأربعة وخمسين.. وأنضج صيفه الحار في رأسي مشروعاً.

4

أقنعَتِ البقيةُ الباقية في جيبي من دولارات أمريكا أمي وأختي بأنني جدير بالتصرف في أموال العائلة المعقولة بعقال الإيجارات القديمة. لم أكف عن الإغارة على البورصة العالمية والسوق المالية في عمان، ولكنني تابعت تنفيذ قرارات إخلاء الدكاكين، وكنت استصدرت هذه القرارات أثناء رحلتي البحثية قبل ثلاث سنوات.

لم أتعجل تأجير الدكاكين، أو تجديد عقودها. ولمحت في دكانين متجاورين فرصة فأنجزت إخلاءهما سريعاً. لا بد أن تجار وزبائن «سقف السيل» بحاجة إلى شطيرة وقت الظهر. راقبت مطاعم المكان وكافتيرياته. وكانت «جنة الفلافل» المحاذية لحي المال في بوسطن حاضرة في ذهني.

لم يكن مسموحاً لي في «جنة الفلافل» أن أرتب اللحم على سيخ الشاورما، ولا أن أسحوه بالسكين الضخمة وشوكة لسان الحية، فقط كنت أعد خلطة الفلافل، وقد أفرم اللحم والبقدونس والبصل بالمقادير المعلومة للكفتة. ليس أنني راضٍ عن تلك الكفتة!

لم يكن في عمان كلها كافتيريا واحدة تقدم الكفتة الأصلية. لكن، كان في السلط. ومن السلط كانت البداية.

بعد لقائي ذاك بالزعيم في بيت باباتي، وبعد رضاه عني الذي أثلج صدري، لم أشأ أن أكون متوانياً. توجهت بعد أيام إلى السلط. وأكدتُ ملكيتنا للبيت أمام العجوز وابنتها اللتين تسكنانه، ووعدت ألا نطالب بالإخلاء، وفي مواجهة النظرة الزائغة في عيني العجوز، والاكتئاب البادي على محيا ابنتها الخمسينية وعدت بأن أستصدر تعهد شرف كتابياً من شيخ الحارة بعدم الإخلاء وبالإعفاء

من الأجرة مدى الحياة للسيدتين. انفرجت أسارير الابنة وبدأت تتفهمني. فشرحت لها السبب الحقيقي، لا بل «نظمتها» في الحزب.. مِنْ مَرَّة. وطلبت أن أقيم في جانب الحديقة ملحقاً أسكن فيه عندما أحتاج إلى البقاء في السلط لسبب انتخابي مثلاً. وسجلت نفسي كأحد سكان السلط.

سارت الأمور على ما يرام، وحضر العمال، وبدأ الملحق يقوم مشوهاً الحديقة الجميلة. أشار كبير العمال علي أن أطلب الغداء لزملائه من مطعم الكبابجي أبو حسن. ومن هناك أحضرت لهم الكفتة. وفي اليوم التالي تلبَّثت في المطعم أستطلع أسراره. ورأيت الأحمرين: الطماطم والجمر. ويبقى البصل والبقدونس من التفاصيل التي يعرفها كل الناس.

بعت قطعة أرض بربع مليون. وجعلت من تسوية الفيلا في عبدون مختبراً. كان الهدف الأول الكفتة، والثاني الفلافل. وبسرعة سميت مشروعي «كُفتة». لهم همبورغرهم ولنا كفتتنا.

دققت في كل التفاصيل: نسبة الدهن، ونسبة الضاني إلى البقري، وكل التوابل. ولن أكشف بالطبع هذه التفاصيل التي ما زلنا نحتفظ بها سراً تجارياً.

لو كان المرء قد أكل في طفولته كفتة من أردأ لحم وأردأ خضار فسوف تكون هذه هي الكفتة الحلم بالنسبة إليه. المذاق في الطعام حنين إلى الطفولة لا غير. ومع تباين طفولات جموع الناس الذين يرتادون «سقف السيل» في عمان فلا توجد وصفة صحيحة. لكنني كنت أريد تأسيس وصفة تشكل للجيل المقبل طفولته الكفتوية. وأردتها مما ينبت في البلد ويعرفه أهل البلد. ولعل في حليمات تذوق كل الناس طعم قار الفحم منذ الطفولة، فهذا فارق بين كفتتي وبين الهمبورغر.

وشهد مختبري وصفة للطحينة المخففة، وأخرى لعصير الطماطم مع الخل والسكر والبصل، ولا بد من البطاطا المقلية. فبعد كنتاكي ومكدونالد لا نجاح لمطعم ليس فيه بطاطا مقلية. أبهظتني التفاصيل. وشاركتني منال بحماسة.

وبينما كان الترميم وأعمال الديكور تجري على الدكانين المتلاصقين، كان المختبر يعمل ليل نهار. وعندما استقرت وصفة الكفتة، انثنيت إلى الفلافل. وإلى الخبز. وإلى شخصية الشطيرة، وسرعة إعدادها.

مرت بضعة أشهر قبل أن ترتفع اللافتة وعليها الشعار، الذي غدا الآن بعد كل تلك السنين معروفاً في كل مكان.

كان ثمة تطور في كل شهر. ومع انتشار الفروع في مدن الأردن كانت لنا أنواع مسجلة رسمياً من العصائد ننتجها بالتعاون مع مصنع أغذية له سمعته. وكانت لنا شبكات لتوريد اللحم، والخضار. واحتفظنا بسر الخبز الذي يجب أن يكون جيباً سميكاً يحتضن محتوياته فلا تنتثر، ويتشرب العصارات ولا يتفسخ، لكنه لا يشابه بحال خبز الهمبورغر، تلك الأطباق الطائرة التي تحتاج إلى أربع أياد كي تثبتها في مكانها وأنت تقضم والأشياء تسيل على يديك وذقنك، وقرص اللحم يروح ويجيء بين خبزتين.

آتى الجهد أكله بعد أشهر معدودة، وانفرجت أسارير أمي بعد طول قلق. وسجلت الشركة باسم ثلاثتنا أنا ومنال وأمي.

عندما كنت أحضر جلسات مكتب القرار في الحزب كنت أنسى كل شيء يتعلق بمطاعم كفتة. كانت منال تنوب عني في الانشغال بأمر «كفتة»، وكانت خير شريك. وسرعان ما استقالت من المصرف وتفرغت.

ومثلما كنا نخطط في مكتب القرار لمستقبل البلد، كنت أنا ومنال نخطط لمستقبل الشركة. صممنا في مصر آلة لتشكيل الفلافل في رقائق حتى ينال فلافلنا من القلي والقرمشة نصيباً أوفر مما يناله الفلافل التقليدي. ورأسمال صاحب الكافتيريا، أي كافتيريا، زيت كثير يغش به معدة الطاعمين فيشبعون من حيث لا يحتسبون، وقرمشة تجعلهم يسمعون لِما يأكلون صوتاً تحت أضراسهم.

أصبحت صاحب رأسمال قوي قبل حلول موعد الانتخابات التي أصبحت الآن نقطة تحول في التاريخ السياسي للأردن. وللانتخابات تبرعت للحزب بما أمكنني.

وكنت قد بنيت قاعدة انتخابية جيدة في السلط كلفتني التردد على المدينة كثيراً، وأجبرتني على عقد بعض التحالفات العائلية السخيفة. لم أفاجأ بأدائي الانتخابي القوي، فقد قرعت الأبواب باباً باباً، وخضت حملة خليطاً بين الأمريكية والعشائرية.

لولا منال لكنت انسحبت من الشركة مع انقشاع الغبار الانتخابي، فقد أصرت على أن النشاطين لا يتعارضان بدليل ما يحدث في أمريكا. كنت أعتقد أن المال والسياسة لا يقعدان معاً مرتاحين في الضمير العربي خلافاً لما هي عليه الحال في أمريكا، لكن منال كانت أمريكية في هذا الجانب أكثر مني. كان التحدي أن أكون رجل أعمال نزيهاً وسياسياً نزيهاً.

قبل الانتخابات بقليل كنت قد بدأت أفكر في الزجاج والسيراميك. فليس معقولاً أن نستورد الأطنان الكثيرة من هذه الأشياء الثقيلة الهشة، وعندنا الطين والرمل. بعثت عدداً من خريجي الكيمياء والهندسة الميكانيكية إلى أوروبا ليعودوا بأسرار الزجاج والسيراميك. وكنت سبقتهم برحلة إلى ألمانيا لهذا الغرض. صنع شطيرة كفتة قياسية في الأردن أمر صعب، لكن امتلاك ما يكفي من الكيمياء والفيزياء، ومن محض الخبرة، لصنع لوح زجاج ومغسلة هو ترويض المستحيل. ودفعت ثمن حماستي المبكرة للخروج من أسر الشطائر الاستغناء عن أرض، والاستقواء بقرض. وتوترت منال، وتوترت أمي. وعرفتُ أنني مغامر وحالم في الوقت نفسه. لكنه أدرينالين سياسي فيما يبدو.

كان في وسعي أن أكتفي بالتوسع الكبير لفروع «كفتة»، وانتشارها في دمشق والقاهرة، وفي أمستردام وروما وعديد من المدن غيرها في السنتين الماضيتين. لكنني كنت أرى الأردن قادراً على إنتاج ما هو أعقد من شطيرة. كنت أريد أن أكون رائداً صناعياً، ليس أنني الأول في هذه، فقد كان في الأردن صناعة وصناعيون. أردت أن أكون مثلهم.. على الأقل.

نزلت في حفرة الزجاج والسيراميك وحدي، وتعففت عن نيل مخصص شهري من كفتة، مكتفياً بأسهمي.

لا أطيل في سرد تفاصيل السيراميك والمغاسل والمراحيض، ولا بالحيل التي احتالها علينا الزجاج في خضم عملية طويلة لتطويعه. فهذا يعد من الحديث المكرور بعد أن أصبح في مقدورك الآن – بعد سنين طويلة من تلك البداية الصعبة – أن تغسل يديك على سيراميك الأردن في ست قارات. فإن أردت معلومة مجانية فاسم الشركة «جرزال»، الذي تراه بالحرف العربي واللاتيني في بيوت الراحة، مشتق من «الزجاج» و«الرمال» إذ لا بد لطين المغسلة من تزجيج قبل شيِّه، فمن كان يظنه اسماً أجنبياً فقد جاءه الجواب.

لم يكتب لهيثم أن يصبح واقعياً، على أنه ظل أميناً، وأصبح الساعد الأيمن لمنال في «كفتة»، وخصوصاً بعد أن تزوجت. وظللتُ الشريك البعيد الذي لم يكتفِ بالانخراط في السياسة بل زاد فخاض مشروعاً طويل الأمد. أما المشروع فقد فضحت في الفقرة السابقة ما آل إليه بعد سنوات عجاف. وأما السياسة فأصبحت محور حياتي.

***

فاجأ حزب التكافل نفسه، بهمة الزعيم التنظيمية، وبالأسس الراسخة التي حرص باباتي عليها. وكنت من جانبي أصوغ الشعارات السياسية بنفس الحماسة التي أصوغ بها الشعارات التجارية للحملات الإعلانية لكفتة. كنت أعيش في عقل باباتي وأحسن قراءة أطروحاته الداخلية، وسواها من الوثائق الحزبية. وهو الأدب مرة أخرى. كنت أعرف كيف أسير بين الفصحى والعامية، وأعرف أن أصنع للشعار ساقين يسير بهما بين الناس. لكنني لم أكن ملتصقاً بالجماهير، كنت في هذه أقرب إلى باباتي مني إلى الزعيم الذي كان يقطع الأردن طولاً وعرضاً كل أسبوع متحدثاً إلى الناس، متألِّفاً شيوخ العشائر وأرباب البيوتات وسَراة الأرياف.

شهدته واقفاً في الحملة الانتخابية على مصطبة أمام مسمكة في سوق السكر بعمان يخطب في أهل السوق، ورأيته في السلط، إذ زارني مؤازراً، يتحدث إلى الناس في أسواقهم ومجالسهم. وما زاد على هندامه الذي انطبع في ذاكرتي يوم زرته في سجنه شيئاً، المعطف الأسود وتلك العَرَقيَّة التي في شهرة كوفية ياسر عرفات. هي تلك الطاقية التي يلبسها الكهول في بلدنا تحت الكوفية والعقال، فأما فقراء الناس فهي لهم طاقية بغير كوفية وبدون عقال. والمعطف الأسود هو هو، والقميص الأبيض النظيف هو هو، وقبته تجلل قبة المعطف. سهَّل الزعيم على رسام الكاريكاتير غير الماهر المهمة كثيراً. وكانت تكفي الشامة السوداء على خده الأيسر.

حصدنا سبعة وخمسين مقعداً، وحصد اليسار مثلها، ونشأت أزمة. كنا ملكيين أكثر من اليسار بكثير. لقد آمن حزب التكافل بأن الملكية حققت للبلاد استقراراً في مفاصل صعبة، وجعل التكافل الحكم الملكي – أو الملكي الدستوري إن استجيبت دعواتنا – أساساً في دستوره الحزبي. وحرصنا حتى في كلامنا الخاص على وصف الملك بالجلالة. وبالطبع فقد وضعتنا ملكيتنا في مأزق الآن مع هذه النتيجة الانتخابية المتكافئة. فإن استدعانا جلالة الملك لتشكيل حكومة فلن ترضى مبادئنا الحزبية بالقفز عن اليسار إلى حزب الحق أو إلى المستقلين.

كنا في مكتب القرار ستة: يسرى وعصام وإلهام، والزعتري وباباتي وأنا. الأمين العام باباتي، والزعتري هو الزعيم، وكنا اتفقنا على تسمية زعيم الحزب بـ «المرشح» لقباً، فهو الذي يتصدر القائمة الحزبية.

في هذه المرة دخل باباتي مجلس النواب عن دائرة جبل الحسين، فكان مكتب القرار بكامل أعضائه من النواب المنتخبين. وجلسنا نفكر في الأزمة قبل الاستدعاء المرتقب إلى القصر. ماذا سنخسر بالتحالف مع اليسار في ائتلاف حكومي؟ ماذا سنربح إذا استنكفنا عن الدخول في الحكومة وقررنا أن نكون معارضة فاعلة؟ وماذا سنخسر بالاستنكاف؟ أليس الذي انتخبنا إنما انتخبنا كي نحكم لا كي نعارض؟

كان الزعتري يرفع كفه بهدوء كلما وصل النقاش إلى الملاسنة أو رفع الصوت. فيهدأ المتوتر، ويثوب إلى صوابه من أخذته الحماسة بعيداً. وكنت، أنا وعصام، الأصغر سناً. لكنني تميزت بفهم طريقة النقاش الباباتية الزعترية باكراً. كنت أتورع عن الرأي الفطير، وأحسن الاستماع أكثر مما أندفع إلى الكلام. تعلمت من باباتي اقتداء. فإن صدرت نكتة من يسرى فيها رائحة الكفتة ابتسمت لها برفق ابتسامة شخص أخذ يُعَد ثالث ثلاثة، أو رابع أربعة، من قدامى الحزب. لي أن أصنع الأعداء، لكن ليس الآن. وعندما ستنتخب اللجنة الموسعة لمكتب القرار – بحسب اللوائح الجديدة – سيكون قاسياً عليَّ أن أجد نفسي خارجه. لم أتورع عن مناقشة الزعيم أو باباتي، ولكنني، على نحو متزايد، بدأت أراني مضطراً إلى المصانعة.

لا بد للشاب الطري العود في عالم السياسة من أب. وكان أبي باباتي، وكان الزعيم أبا عصام. قسمة ضيزى. لكن، هنيئاً لعصام.

بعد مناقشة طويلة بدا واضحاً، دون اللجوء إلى التصويت، أننا نريد أن نحكم إذا تطابقت الوقائع مع السيناريو الذي رسمناه. ثم عرفنا من «صديق» لنا في المكتب السياسي الموسع لليسار أنهم سيظلون يناقشون حتى يأتيهم الحل جاهزاً من الخارج.

ودُعي الزعيم إلى القصر.

***

أقرَّنا شيخنا الهاشمي، كما كنا ندعو الملك أحياناً، على اعتقادنا بأنه لا سبيل إلى تجنب اليسار، ورضي أن تقسم رئاسة الحكومة بيننا وبين اليسار سنتين سنتين. وترك للزعيم أن يفاوض بشأن الأسبقية.

كنا حزباً شاباً يملك الزعيم القوي الذي يمكنه أن يكون رئيس وزراء حتى بدون الخبرة في الحكم، ولكنه لا يملك من يمكنهم أن يتولوا الحقائب الوزارية بكفاءة. واتجه الرأي إلى أن نكون البادئين بترؤس الحكومة فنحن سنستظل بشخص الزعيم، ولن نكون في الصدارة لتلقي سهام النقد عندما تترهل الحكومة في آخر أيامها.

عرف زعيم اليسار «مطلوب» كيف يمسك الزعيم من يده التي تؤلمه إذ أصر على وزارة الداخلية لحزبه، بينما أراد الزعيم أن يتولاها بجانب رئاسة الوزراء. وسجلت من جانبي اهتماماً بوزارة التعليم، وفغر عصام فاه دهشة. ظنني سأطلب الاقتصاد. وكان من بعض همومنا تجنب وزارة الخارجية.

وتم عقد الاتفاق على ما رسمنا. صار مطلوب جوهر نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية، ونلت التعليم، ونال عصام الأشغال العامة. وذهبت حقيبة الاقتصاد إلى اليسار، فتنفست الصعداء لأن الاقتصاد بالذات ليس معنا، إذ كنت في بداية طريق السيراميك الصعبة ولم أكن بحاجة إلى أي اتهام بأننا نستخدم الوزارة لمصالحنا الشخصية.

كنت على أبواب السابعة والعشرين مثل عصام الذي يصغرني بأشهر أو أصغره بأشهر. عندما أرى الصورة الرسمية لأعضاء الحكومة عقب تشكيلها أراني بطولي الفارع واقفاً إلى يمين الصورة متحاشياً أن أقف بجانب الزعيم، وأرى عصام يلوذ به ناظراً بعينين مفتوحتين إلى عدسة المصور. الزعيم يقف بكتفيه العريضتين وجسمه الوافي وإلى يمينه «مطلوب».

كلما كانت لحظة النشوة قوية كانت اللسعة التي لا بد أن تعقبها مؤلمة. ودخل خريف عام ألفين وسبعة وخمسين وئيداً.. وبارداً.

5

أحاطت بنات آوى بالثور. ولم يعد أمامه سوى أن يقف وقفة حياة أو موت. غداً سأقود سيارتي في اتجاه وزارة التعليم، لكنني مساء اليوم أقود سيارتي نحو بيتنا في عبدون، ولا يعيش فيه سواي مع أمي، بعد أن تزوجت منال.

ليت غداً يوم جمعة!

أقود سيارتي بعد تكليف وزاري سأكون فيه على المحك. وقد ضجت المواقع بأن صاحب «كفتة» صار وزيراً للتعليم.

يقولون إن المقبل على موت محقق تمر في مخيلته أحداث حياته كلها كشريط مصور سريع. وأنا أخذت أفكر في طفولة سعيدة قطعها موت الأب وما ترتب عليه من الاعتبار الجديد الذي أخذ يفرض نفسه علي بوصفي رجل العائلة، وقطعها التحول الدراسي بعيداً عن الأدب والتاريخ اللذين أحببتهما، ثم رمتني أمي إلى أمريكا لأنني يجب أن أصعد بالأسرة. ونجحت. لكنني ظللت أعاني من نزيف داخلي. يرى الناس نجاحي في العمل وفي السياسة، وأحس أنا بأن أعوامي السبعة والعشرين لا تكاد تحتمل هذه الدوامة.

غداً سأذهب إلى الوزارة. لكن معي قبل أن أواجه بنات آوى ساعات مسائية قليلة أقضيها مع أمي. ليتها تكف عن بث مخاوفها، هذه الليلة فقط. ليتها لا تعبس، أريد أن تفرح لي، حتى وأنا نفسي غير فرح بهذه الورطة التي وقعت فيها.

أنقذني من أفكاري شرطي المرور. كان يتوسط الشارع ويشير بيده أن قف إلى اليمين. قد التقطني رادار طيار. كدت أحس بالشكران للشرطي أن أنقذني من هواجسي. تناول ببرود الأوراق،

وفحصها وحرر المخالفة. وقدمها إليّ، وبدون ابتسامة:

– معالي الوزير!

مضيت في طريقي، والابتسامة تتراقص على شفتي. أخرجني هذا الشرطي من اكتئابي. سررت أن أجد شرطياً في بلدي يتابع الأخبار ويعرف اسمي، وربما شكلي أيضاً. لست مغموراً في البلد، فأنا صاحب كفتة، الشاب الطويل الذي «اخترق كونتاكي ومكدونالد» بحسب تعبير الجريدة المجانية. لكنني سررت أن في بلدي الآن من يحرر مخالفة للوزير بمثل هذا البرود.

فيلتنا تسبح في أضواء الحديقة. وأمامها سيارة خالي، وسيارات أخرى.

كانت القبلة الصادقة الوحيدة قبلة هيثم، ترافقها ضحكته الجميلة. وقبلة أمي كانت قبلة الواجب. وخالي راح يردد العبارات الاعتزازية المهترئة. وهنأني بعض الأصدقاء الحزبيين، وانصرفوا بعد قليل. منال تحدج زوجها حتى لا يمضي في هرائه بترديد العبارات التي هي من اختصاص خالي وحده، وقريباً منها يجلس هيثم ساعدها الأيمن. غير أنه يتميز عنها بأنه أصبح «ابن الحكومة»، فهو تكافلي قديم، وهو الذي جرني إلى هذه الورطة.

لم يبد على زوجة خالي – صاحبة الوجه المخلوق مستبشراً، الوجه الذي تنبع البسمة من عينيه وثغره ثم تنتشر إلى محيطه وتشع – أنها تريد تسويق ابنتها الكبرى؛ ولم يبد شيء من ذلك على نداء التي تخطت العشرين، وأخذت وجه أمها متجانفة عن سلامة صدر أخيها. على الأقل كان تحصيلها في الجامعة يشهد أنها تحسن أن تقرأ كتاباً.

ولملمت زوجة خالي أسرتها وقاموا. وعلى الباب قال لي خالي ممازحاً: حسناً يا.. معالي الوزير! فأمسكته من عضده، وجعلت وداع الباب قصتي مع الشرطي:

– وهكذا يا خالي.. فاز بها الشرطي.. كان أول من قالها لي.

***

اللعنة! هل سأدور في ممرات المبنى الضخم باحثاً عن مكتب الوزير. أما كنت اصطحبت معي موظفاً من موظفي الوزارة. كل مسؤول يجب أن يكون مصحوباً. هل رأيتم في بلدنا مسؤولاً

يمشي وحده؟ المسؤول يجب أن يكون ذا مرافقين. وهل سأشرح لرجل الأمن على بوابة الوزارة أنه يحق لي الدخول بسيارتي لأنني صرت وزير التعليم؟

لغط تافه يدور في رأسي وأنا متجه إلى مبنى الوزارة. نحن، التكافليين، لسنا أبناء حزب فوضوي يريد تكسير كل التقاليد. ولكن، ها أنذا ماضٍ إلى وزارتي كأنني أحد المراجعين البسطاء.

الرجل الطويل مصنف تلقائياً في الحمقى، ولا سيما إن مشى ويداه تتحركان إلى جانبيه، وإن أكثر من التلفت. لست كذلك، لكنني طويل.

«هيا يا أحمق، ادخل وباشر عملك»، قلت لنفسي.

***

اقتحمت بناية وزارة التعليم، والساعي يهرول أمامي بعد أن قلت له بلهجة حاولت أن أجعلها آمرة: مكتب الوزير! كنت في حمأة العمل الحر آمر وأنهى وأوظف وأفصل دون أن أجد في ذلك شيئاً غريباً. كان بين يدي مشروع، وكان المشروع هو الذي يأمر وينهى لكن بلساني، وكان يوظف وكان يفصل الناس لأنه هو، المشروع، يريد أن ينجح. وفي وزارة التعليم ليس لدي مشروع، فتلجلجت.

إذا كان أمامك طبق شهي فأنت تأكل وجوعك يأمرك، وشبعك ينهاك، فأما إذا طلب منك أن تمثل عملية الأكل من طبق فارغ فستجد صعوبة؟ كان الممثل المشهور لورنس أوليفييه يقدم مشهداً سينمائياً مع ممثل مغمور، وكان على الممثل المغمور أن يدخل الغرفة وهو يلهث، وقبل أن تدور الكاميرا أخذ الممثل المغمور يركض في مكانه كي يستخرج لهاثاً. نظر إليه أوليفييه، وقال: ماذا بربك تصنع؟ قال: أستحضر اللهاث. قال أوليفييه: لم لا تمثِّل!

لن أجيد تمثيل دور الوزير. لذا يجب، وبسرعة، أن يكون لدي مشروع.

جلست إلى مكتبي. نعم، أول مرة أجلس فيها إلى مكتب رسمي في حياتي. ومتأخراً وصل مدير المكتب، دخل مع نصف انحناءة وهو يبارك. قمت له، أريد الجلوس إلى كرسي أمام المكتب، فأسرع نحوي ويداه ممدودتان، وكفاه كأنما تدفعانني، وبلسان يقطر عسلاً مغشوشاً: «إلى مكتبك معالي الوزير وأنا آتي إليك»، وجلس على كرسي قريب.

عرَّف بنفسه، وعرَّفت بنفسي في تواضع طبيعي. وأخذ لسانه يقطر من عسله على المكتب، فيصبح المكتب دبِقاً. فسألت:

– ساعات الدوام؟

فشرح، وهو يدسُّ عذراً لتأخره اليوم.

– كم موظفاً يتبع مكتب الوزير مباشرة؟

وشرح.

من باباتي ومن الزعيم تعلمت أن الصمت يورث النفوس هيبة. تركت أبو شحمة يشرح. وأراد أن يكسر صمتي فتظارف وقال إنني سأمسك بالوزارة، والكل يعينني ويأتمر بأمري، سأمسك بها كأنها شطيرة كفتة. ورشقته بابتسامة صفراء يستحقها. ثم أمرت:

– اجتماع في الساعة الحادية عشرة لموظفي المكتب والمستشارين. تفضل.

وانهمكت بفتح حقيبتي ثم فكِّ شطيرة إفطاري، غير ملقٍ بالاً إلى آخر كلماته.

وما إن خرج حتى أطل من الباب رأس بشعر أجعد غزاه الشيب. رجل في نحو الخمسين ينحني تذللاً وهو بعد لم يدخل، وكفاه أمام صدره كأنه يؤدي تحية هندية. ويتنحنح ويتمتم بمعالي الوزير، ويبارك ونصفه في المكتب والنصف الآخر خارجه. وأشرت إليه بالدخول واضعاً شطيرتي جانباً، ودخل وعينا أبو شحمة ترمقان قفاه:

– أول يوم لك، بل أول ساعة، نحن محظوظون بك معالي الوزير. ولن أطلب شيئاً لنفسي. وما كنت طلبت في عمري شيئاً لنفسي. فقط الإنصاف لرجل.. ماذا أقول؟ بل تسمعه بلسانه. أستأذنك معالي الوزير.

وارتد على عقبيه ينادي صاحبه. ودخل صاحبه. رجل في نحو الستين قصير حد القماءة.

لا، لست ضد القصار. أما كنت قلت إن الطويل يغلب عليه الحمق؟ حسناً، والقصير يغلب عليه الخبث. الولد القصير مضطر في ساحة المدرسة وفي الحارة إلى أن ينال مبتغاه بالتحايل لأنه لا يملك أن يدخل في شجار بالأيدي.

كان فمه قد اتسع إلى أقصى حد بابتسامة ضيقت عينيه، ثم انطبقت شفتاه فأصبح فمه كالجرح المخيط، يريد أن يتخذ سمت الرجل الوقور. صافحني القصير بيد وغمر كفي باليد الثانية. أليس أكبر مني سناً! كم ذا نعالج من نفوس ونحن نعبر سنوات هذا العمر!

وأشرت إليهما بالجلوس، وأردت أن أجلس على مقعد قريب فقاما كلاهما، وبأكف انطلقت نحوي:

– إلى مكتب معاليك.

وجلست إلى مكتبي. لم أتعود الجلوس إلى مكتب واستقبال الزائرين القاعدين أمامي. هل يتخيل هؤلاء الناس أنني أتخذ المكتب دبابة أتحصن فيها؟

عرفني الموظف الأول باسمه وبوظيفته في الوزارة، وباسم صاحبه القميء، وأخذ يشكو باسم صاحبه:

– الأستاذ مخضرم، ونال تقاعده من التدريس مدرساً أول في الجغرافيا والتاريخ قبل سنين. ولكنه صاحب باع طويل، وحرم من فرصة المشاركة في تأليف المنهاج قبل أعوام، وتقدم بطلب عمل بالقطعة مرة ومرة. وكان يؤخذ من هم في سن أبنائه لهذه الأعمال مع أنهم ذوو وظائف ثابتة.

لم يتدخل القميء إلا بهز الرأس. فاستأنف الموظف:

– فهل جاءك معالي الوزير يطالب بأي شيء؟ أي شيء مطلقاً. أبداً. جاء فقط يعرض قضية عادلة.

– صحيح معالي الوزير. وننتظر من الوزير الشاب ألا يغض النظر عن خبرة كهل ما زال يملك طاقته الكاملة، وفوقها خبرة عريضة.

ثم استرسل القميء في عباراته الرخوة. وأخذ يتثنى ويحرك يديه قريباً من صدره، كأنما يريد من عشر أصابعه أن تكون عشرة ألسنة تنطق بجدارته المزعومة. وراح صاحبه ينتظر بفارغ الصبر فرصة لكي يتكلم، وقبل أن يتكلم بدأت كفاه تتكلمان قبل لسانه:

– السيدة الوكيلة. سيدة فاضلة، لا أقول عنها إلا أنها سيدة فاضلة. ونياتها حسنة دائماً. لكن سيدي، ألم يقولوا إن الجنة مرصوفة بحسن النوايا. ههه.. أم هي جهنم! لا أزيد، فأنا رجل احترافي في عملي، ولك أن تسأل من تشاء.

كان السيدان الكهلان يتناوبان هذا الموشح، وأنا أصغي. قد امتلكت موهبة منح من هو أمامي الوقت الكافي لكي يبرز كل ما عنده من تهافت. وقمت وقاما، وصرفتهما بعبارة لا تحمل وعداً.

– الأستاذين الكريمين! أراكما بخير.

كان يوماً أول لي في وظيفة لم أعد أريدها. هي وظيفة. في غياب المشروع يصبح العمل وظيفة، وبالنسبة إليّ يصبح كريهاً.

***

قد ينسى الأردنيون الرقم عشرة، وحتى مئة، ولكنهم سيظلون يتذكرون لسنوات كثيرة الرقم 167. كان أول مشروعاتي. أطلقته في أول يوم لي في الوزارة. في اجتماع الساعة الحادية عشرة.

جلس الموظفون والمستشارون حول منضدة الاجتماعات في الغرفة الملحقة بالمكتب. باركوا وشكرت. وسألت: كيف كانت نسبة النجاح في امتحان التوجيهي الماضي؟ وجاءت الإجابة: 58%، وبدأوا يفصِّلون، الفرع العلمي كذا والأدبي كذا. والمناطق، والـ..

– لنأخذ الفرع العلمي، ما أقدار الرياضيات والعلوم والعربية والإنجليزية من أصل المعدل؟

واستمعت إلى جواب أعرفه جيداً لأنه لامس جلدي قبل أقل من عشر سنوات. ثم الفرع الأدبي، ثم الصحي والمعلوماتي والمهني.. زراعي، صناعي، منزلي، فندقي. وتركت حبل النقاش للناس كي ينفسوا عما في صدورهم من كلام.

– لنفترض أن العلامة الكلية 167، بدل 100؟

تبلبلوا. كان أبو شحمة يكتب المحضر، فترك القلم، فأمليت عليه:

– اكتب: يكون معدل علامات الطالب في امتحان التوجيهي محتسباً من أصل 167، وليس من أصل 100.

وأصدرت قراري بأن يجتمع ثلاثة لحساب هذه النسبة بالتقريب للعدد الصحيح لكل مادة ولكل فرع. و.. «تفضلوا بالانصراف».

وفي اجتماع لاحق صغت القرار. شهادة التوجيهي لا يكتب في ذيلها ناجح ولا راسب. وتتوزع العلامات على الموضوعات بحيث يكون المجموع 167 لكل مادة ولكل الفروع، وفي المعدل العام. وشكلت لجنة تدرس القرار قبل إعلانه. يحبون اللجان. تجعلهم يشعرون أنهم مشاركون.

لم يهز أحد رأسه. ولكن، كانت في داخل كل رأس عبارة مكتوبة بالخط الكوفي: ما هذه المساخر التي جاءنا بها الوزير الولد! بعضهم ضاع في متاهة تجليات هذا الرقم الصعب. ولكن الذكي فهم أن المقصود إدخال البلد في متاهة لا يُعرف فيها الناجح من الراسب.

لم يثر القرار أي رد فعل عند الناس. مجرد أرقام، والمحصلة واحدة. لكن الخوف من الرسوب زال من نفوس الطلبة. سيتعب الآباء في احتساب النسبة المئوية، وسيكون كل طالب ناجحاً. الطلاب سيفهمون مغزى المشروع قبل غيرهم. وأخذ القرار يتسلل بالتدريج إلى النفوس. وحنق في الوزارة كثيرون لأن الوزير الولد هز هيبة التوجيهي. وطالب بعضهم بحوار وطني.

في اجتماع مقبل قرأت على المستشارين أسطراً قليلة من كتاب التربية الوطنية، وبعد كل سطر كنت أسأل: أهذا صدق أم تشويه للواقع؟ وعندما وصلَت الفكرة طلبت إليهم قراءة كتب المنهاج للتربية الوطنية، تمهيداً لاجتماع مع المؤلفين. وجاء المؤلفون. وناقشنا هؤلاء المنافقين برفق. وصدر القرار بتخفيف العبء عن الطلبة، فالتربية الوطنية غير مطلوبة لكل المراحل هذا العام.

بهذين القرارين أنهيت أسبوعي الأول في الوزارة.

***

بعد انفضاض الاجتماع الأسبوعي الثاني للحكومة استبقاني الزعيم:

– قراران جيدان. وجيد أن تقود الناس من الأمام. لكن، حتى تضمن أنهم يسيرون خلفك، لا أنهم بدأوا يتخلفون عنك ليرشقوك بسهامهم، ربما يحسن بين الحين والحين أن تعود إلى الخلف لتسوقهم بالمحاسنة والاستمالة. وفي أي قرار كبير.. شاور.

صمتّ. فاستأنف الزعيم:

– أظنك مقدماً على أكثر من ذلك. تريث، وشاور.

– سأفعل. لك الشكر زعيم.

– القراران جيدان.

ووضع يده على معصمي، وهو يجلس إلى رأس الطاولة وأنا متخذ مقعداً بقربه:

– نحن، التكافليين، نؤمن بالتدرج. أحمد، تجربتك الناجحة في العمل الحر مختلفة. قراراك صحيحان، ورسالتك إلى الجامعات والمعاهد فيها الشرح الصحيح، وطريقة إدارتك للأمر صحيحة.. أسلوب الصدمة، ولكنه سيلقى ترحيباً بين الناس. أراك تتهيأ لأمر أكبر فيما يخص المناهج. تريث وشاور.

بانحناءة ممتنة وعدت أن أشاور.

أفلت معصمي راضياً، وقام. ثم قمت. وفي المساء لا بد من باباتي. مضى علي أسبوعان كأنهما شهران لم أره فيهما. هو رئيس الحزب، وهو الذي يكتِّل أعضاءه في البرلمان ليناقشوا ويصوتوا بما يخدم الانضباط الحزبي. مهنة شاقة. وقدرت أن يكون مخدعه خلية نحل. فهو الآن متفرغ لعمله الجديد، ولم يعد يدرس. هاتفته، فطلب أن يزورني، في ساعة مسائية متأخرة. فرحبت وأتيت منزله كي أصحبه إلى منزلي للمرة الأولى.

أخذت أقيم في التسوية بعد أن تخلصت من بقايا مختبر الأغذية العتيد.

عرَّفت أمي على باباتي، واحتسينا القهوة، ثم اختلينا في الدور الأرضي. كنت عطشاناً للنصائح. عندما خاض في قراريَّ بوزارة التعليم أحسست أنه نسق الأمر مع الزعيم، ولم أحاول التحري، لم أشأ أن أدخل بين البصلة وقشرتها، فالعلاقة بين باباتي والزعيم عميقة، يتفاهمان بقرون استشعار خفية.

– أبدأُ أستاذي بالكفتة والفلافل. بالمناسبة هل أكلت من عندنا يوماً؟

– ههه، نصف أرباحكم من جيبي يا أحمد. وهل هناك ندوة تخلو من شطائرك؟ وأحياناً أحضر شطيرتين للبيت.

– ببساطة، فلسفتي أن نحترم أنفسنا. نحترم طعاماً نصنعه نحن، ونصنع علامتنا التجارية، ونضع مقاييسنا الثابتة. أردت أن يعرف الزبون ما هي الشطيرة التي يحصل عليها، وأن يحصل عليها بنفس المواصفات كل مرة. هذا لا يحتاج إلى علم. ولكن بلدنا تميع مثل هذه الأمور. ليس إلى هذا قصدت.. مناهجنا هي في صلب فلسفتها مناهج الحكم البريطاني. وحتى قبلئذ هي مناهج المشايخ صعوداً إلى ألفية ابن مالك.

هز باباتي رأسه هزة عرفت منها أنه سبقني إلى كل هذه الأفكار. فسكتُّ. وسكت. ثم تنحنح:

– المشكلة ليست في الطالب بل في المعلم، وفي المنهاج.

زايلتني حماستي للكلام وفتحت أذني. وعندما تيقن باباتي أنني في وضع استقبال تنحنح أخرى:

– النظام القديم كالكرة المطاط، تضغطه بسهولة، وتتركه فيعود إلى سابق عهده. هناك لحم بشري مليء بالأعصاب. اترك الكفتة قليلاً. المعذرة.

كان باباتي يعالج ابتسامة حلوة وهو يعتذر. وأنا تطامنت لما بدا من سذاجتي وأنا استخدم نجاحي التجاري حجة في غير محلها.

باباتي يقترب من الخمسين وهو يعيش دوره الجديد بمنطق أن ما تلقيه السماء تتلقاه الأرض. وكأنما أرادني أن أعيش دوري الجديد بدون صدمات. مضى يشرح شيئاً عن التعليم العام والتعليم المتميز، وعن كيفية احتفاظ البلد بالخبرات. فما فائدة أن نعلم أبناءنا تعليماً متميزاً ثم يهاجر أفضلهم!

سردت له مقولة سمعتها في مدرسة ماذر في بوسطن: «القراءة والكتابة والحساب». هذا ببساطة محور اهتمامهم. ونضيف نحن، بجانب العربية، الإنجليزية لأنها لغة الدنيا.

واستمعت. ولم ينفتح خزان نصائحه. كنا بحاجة إلى وقت، كلنا. الحكومة طرية، وأنا طري العود. وفهمت.. علي أن أتريث.

أوصلت باباتي بسيارتي إلى بيته.

صعدت شارعاً أعلى من شارع باباتي ثم شارعاً آخر على سفح جبل الحسين، ووقفت بسيارتي هنيهة أنظر إلى عمَّان من عل. في هذه البيوت القديمة التي سالت مياه الميازيب المتفسخة على حجارتها شتاء بعد شتاء فرسمت خطوطاً سوداً، في تلك المخيمات التي بدأت خياماً فبيوتاً من طوب تحمل على رؤوسها صفيحاً فوقة حجارة ثم لحقت ببيوت عمان الأخرى ولحق أهلها بغيرهم من الناس، في قاع عمان المخيف حيث تحضن متسولة ابنتها في الليل وتبكي بدمعة صامتة تغوص في شعر البنت التي تغفو استعداداً لرحلة الغد الصعبة؛ في كل عمان يوجد مئات آلاف المبدعين. خرج منهم على مدى عشرات السنين جحفل يتلو جحفلاً لكي يبنوا ويعمروا في بلاد الله الواسعة، وبقي في عمان منهم من سُدَّ في وجهه طريق الهجرة وظل يَرُوض نفسه على فكرة أن المال يأتي من الخارج، وأن الحياة في الأردن كفاف، وهكذا خلق الله الأشياء، وهكذا يجب أن تكون.

البداية ليست من المدرسة وحدها. وإذا كان حزبنا سيقود البلد والمجتمع فلا بد من أن يحكم، وأن تطول سنيه في الحكم، ولا بد من أن يجعل التغيير وقود اشتعاله، وإلا فلماذا التكافل!

ومضيت إلى بيتي في هذه الساعة الليلية أريد اقتناص النعسة الأولى، فإنها إن ذهبت اقتضاني الأمر ساعتين حتى يدور النعاس دورته ويعود إليّ.. غداً رحلتي طويلة.

***

لا أظن وزير تعليم قبلي صحا في صباح الجمعة في الساعة السادسة. استيقظت أمي على حركتي في المطبخ وأنا أعد لنفسي شطيرة. وودعتها وانطلقت.

مررت بمستشاري التربوي، والتقانا عنده أبو شحمة الذي سيرافقنا، ليس لأنه مدير مكتبي، بل لأنه من الكرك. وانحدرنا جنوباً. لم أكن قد صرفت سيارتي الوزارية ولا سائقها، لكنه يوم جمعة فاستخدمت سيارتي الخاصة. غير أنني سلمت المقود لأبي شحمة، وجلست في المقعد الخلفي مع المستشار وأخذنا نتذاكر تفاصيل المشروع الجنين الذي أريد تجريبه بحذر في الكرك.. طبعاً بعد أن أشاور، وأتريث.

فككت شطيرتي، وعرضت على أبو شحمة والمستشار المشاركة عرضاً مراكبياً. فرفضا بالطبع زاعمين أنهما أفطرا. مددت رأسي وكلمت أبو شحمة وهو يسوق:

– لا أسمع منك كلمة عن الكفتة أبو شحمة.. ها!

– ههه.. يا معالي الوزير. والله يا دكتور معالي الوزير طيب جداً. في أول يوم كان مشدوداً، وفقط أردت أن أتحذلق وقلت له شيئاً عن الكفتة، ويا ويلي من تلك النظرة التي رماني بها. والله يا معالي..

– انتبه أمامك، ولا تسرع. معنا وقت.

ثم انثنيت إلى الدكتور وألقمته سؤالاً ينشغل بجوابه وأنا التهم شطيرتي:

– لماذا يداوم الطلبة خمسة أيام؟ لماذا لا يداومون ستة؟ أو أربعة مثلاً؟

وسرد الدكتور كل الحجج التي تؤيد الواقع، والتي مؤداها «ليس في الإمكان أبدع مما كان». واستغل فرصة قضمي وبلعي لكي يدس دسيسة. كلهم يفعلون هذا. مسحت فمي بعد الشطيرة، ومسحت أذني من الدسيسة.

لم يكن أبو شحمة أَهدانا في شوارع الكرك، فسألنا حتى عرفنا مكان بيت مدير التعليم في المحافظة. كنا مبكرين ساعة عن موعدنا معه، فلم نترجل، بل انفتلنا نريد تبديد هذه الساعة في وسط المدينة التي لم يسبق لي أن زرتها. أبو شحمة يعرف وسط البلد جيداً، أردنا أن نزور القلعة، وقبل أن نصل لاحظ سائقنا أمام المسجد العمري حركة مستغربة.

– توجد سيارات كثيرة ليست من سيارات الكرك!

وقف واستفسر.. «رئيس الوزراء يصلي الجمعة مع المحافظ ووجهاء المدينة ومشايخ العشائر»، فأمرت:

– هيا نعود إلى موعدنا. لا نريد أن نتأخر. الزعيم سيتغدى مع المحافظ ونحن سنتغدى مع مدير التعليم. لا فائدة من التسليم على الزعيم.

لم يكن أحد يملك أن يلاحق حركة الزعيم، فهو دائم التطواف بأرجاء البلاد، في عمان وخارج عمان.. وفي كل مكان.

وصلنا في موعدنا. وشربنا الشاي، وأكلنا المنسف. الأردني أكرم ما يكون سخاء وخلقاً وسماحة وأنت تأكل طعامه. وكان من حسن حظي أن أبي علمني أكل المنسف باليد صغيراً. وهذا علم كركوب الدراجة لا ينساه المرء. وضعت يسراي خلف ظهري وأخذت أغترف اللحم والأرز وأكوّر وأقذف في فمي، ويضع مضيفي أمامي الأطايب ولا أتوانى. وجيء للدكتور بالطبق والملعقة.

وعلى المنسف كنت آخذ الاستراحة بعد الاستراحة، وأقذف المضيف ببعض خطتي، وقد عدَلتُ عن طرحها عارية.

– لو داومت المدارس ستة أيام لكان للتلاميذ متنفس لممارسة الهوايات، وتأسيس النوادي المدرسية في يوم، ولكن لا بأس بيوم آخر للرحلات، ترويح للمعلمين وللتلاميذ.

– يعني: التدريس أربعة أيام؟

– أليست الرحلات علماً؟ وممارسة الهوايات المفيدة والنشاطات الأدبية في النوادي، أليست علماً؟ وبلدنا الأردن! أنحصر أبناءه في مدنهم وقراهم. هل عمان عاصمة أهل عمان فقط؟ وهل يخسر ابن إربد إن زار قلعة الربض؟

النغمة الوطنية لا تقاوم في مثل هذه المواقف. ورميت في جوفي بلقمة كبيرة اجتهدت في أن يرى مضيفي حجمها وأن يرى كيف كللتها بما خصني به من أطايب اللحم.

وشربنا قهوتنا. وانتظرنا حتى يكون المدراء قد تغدوا في بيوتهم فيأتوا إلى الاجتماع مسترخين نصف قائلين – هذه من القيلولة.. ومن القول أيضاً فلا نريدهم أن يقولوا كثيراً، بل أن يسمعوا – نريدهم أن يأتوا وقد تعطلت آلية المناكفة في عقولهم. زد المعلم قرشاً على مرتبه فهو عيون وآذان، وتكلم معه في شؤون التعليم فلن يعفيك من جدال هدفه الوحيد أن يقنعك بأن تغير الحال من المحال. ولم تكن في جعبتي أي زيادة في القروش.

لم يتخلف عن الاجتماع أحد.

تسلل الدفء رويداً رويداً إلى القاعة الباردة مع أنفاس المئتين من مديرات ومدراء مدارس الكرك. أسعدهم الاهتمام الحكومي، وكانوا عرفوا منذ الأمس بزيارة رئيس الوزراء، هذه الزيارة

التي فاجأتني، أنا وزيره. نزعت الميكروفون من مكانه ونزلت عن المنصة، ووقفت أمامهم خطيباً:

– لم يعد الدنَّار يأتينا بربطة الخبز، كانت الدينير قليلة في الماضي وكان فيها بركة. أما اليوم!.. بالمناسبة.. مم.. هل نقول دِنَّاراً أم ديناراً؟

تحول المدراء والمديرات إلى تلامذة. وكنت أتكلم بالفصحى القويمة مستحضراً ما أخذت نفسي به من الاهتمام بالأدب واللغة. وتعالت الأصوات: دينار.

– فلماذا تدرّسون الطلبة أنها دنَّار والجمع دنانير، أو دينار والجمع دينير. هل هي دينير إذن؟ لماذا تعلمون طلبتكم هذا الهراء؟ لقد صنع قدماؤنا علم الصرف صناعة، وصبوا اللغة في قالب رياضي.

مضيت أحدثهم عن المناهج وأنها غير مقدسة، وأننا – مع ذلك – لا نفكر في تغييرها. نريد من المعلمين والمدراء أن يفكروا معنا ضمن «حوار وطني». لم أخض معهم في وظيفة المدارس كأوعية تنميط وضبط، وكأداة لتثبيت للطفل في ثقافته وفي بلده. بل رحت أدس مشروعي في العقول.

– هل يبدأ الإصلاح في العاصمة؟ ولماذا؟ ألا يمكن للكرك أن تكون رائدة؟ نحشو عقل الطفل بقواعد اللغة الإنجليزية، فهل يخرج بعد التوجيهي وهو يعرف ما هو الباست بارتيسيبل. تعلمون أن الإنجليز أنفسهم لا يعرفونه. فلماذا نفرضه على طلبتنا؟ يقولون إن القواعد النحوية تنشط التفكير الرياضي. لماذا لا ننشط العقل الرياضي في دروس الرياضيات ونترك اللغة المسكينة تسير سيرتها الطبيعية؟

كنت أتحدث بلا ورقة. وما كنت أعددت في ذهني قبل خطبتي تلك سوى مثال الدينير.

– لماذا لا يكون في المدرسة نادٍ للجغرافيا. ترسم فيه الطالبة وزميلتها خريطة الأردن وتجعلان قرب الكرك القلعة، وقرب عمان المدرج الروماني، وعند إربد أشجار الزيتون، وترسمان الجبال بالبني والصحراء بالأصفر. وتبتدعان أشياء لا تخطر ببال أحد. هذا أجلُّ فائدة وأرسخ في العقول من تكثيف الدروس. الشاب غير المتعلم يتعلم قيادة السيارة أسرع كثيراً من المثقف. هذه قضية معروفة. فلماذا؟ لأن تعلم قيادة السيارة يتم باليدين لا بالعقل. وتعلم الجغرافيا كذلك، والتاريخ.

هناك محرك في الدماغ اسمه الرغبة، فإذا رغَّبنا أبناءنا في التعلم تعلموا وحدهم. والنوادي كفيلة بذلك. نادٍ لتعلم العزف على الناي والربابة، ونادٍ للشعر وآخر للألعاب الرياضية. ويشترك التلميذ في أكثر من نادٍ، وللتلميذ أن يتنقَّل بحسب رغبته. يتم التعلم في جو من الحرية. فلنخصص يوماً للنوادي. تخافون أن يقلب الطلبة والطالبات المدرسة إلى مزبلة؟ علموهم أن ينظفوا وراءهم. الأهالي يريدون المدرسة كي يتخلصوا من أبنائهم أطول مدة ممكنة، يريدونها «ضَبَّة». ولِمَ لا. فليداوم الطلبة ستة أيام: يوماً للنوادي، ويوماً للرحلات، وأربعة للدروس. وليقم الطالب بحل كل واجباته في المدرسة. وبالمناسبة هذه ليست قرارات وزارية أبداً. هي أفكار فحسب.

انطلق المدراء يتكلمون عن قرار إلغاء الرسوب، وعن قرار الـ 167. وأثخنوا القرارين مدحاً. وتناولوا ببعض الوجل مقترحات النوادي.

***

لا يرحب معلم في الدنيا بأن يعمل ستة أيام بدلاً من خمسة، ولا يرحب بالبقاء في المدرسة حتى الثالثة عصراً بدل الانصراف الساعة الواحدة. ولا يرحب بمنهاج جديد، ولا بتخليص المنهاج الذي تعود عليه من سفاسفه التي أتقنها وبرع في التباهي بمعرفتها أمام الطلبة المساكين الذين يعانون منها الأمرين، لكنهم يجدون للمعلم الذي يتقنها هيبة.

كنت عائداً من الكرك ورأسي يكاد ينفجر لفداحة المعركة المقبلة، لن أجد المدراء معي، وبالطبع لن أجد المعلمين في صفي. ألا يحق لي أن أحسد عصام على وزارة الأشغال العامة؟ يتعامل مع الزفت والحصى، ولم أسمع أن الزفت والحصى يعترضان على شيء.

وهل أشاور الزعيم، أو باباتي؟ هل أسمعهما المحاضرة التي ألقيتها في الكرك؟ لن يتأتى ذلك. ستتوالى الأسئلة: لا بد من زيادة مرتبات المعلمين، ولا بد للنوادي والرحلات من مال، من أين سنأتي به؟ هل نقنع وزراءنا وسفراءنا بركوب الدرجة السياحية؟ هل نلغي بنوداً في التأمين الصحي؟ أم نقتطع بعض المال من نفقات الأيتام والمعوقين؟

قررت أن أكتب مشروعي، وأن أجعله كراسة سياسية من كراريس حزبنا. هل هناك درجة أخفض من هذه ضمن درجات أضعف الإيمان؟

لم أكتب الكراسة. بل كتبت أسئلة نموذجية لامتحان التوجيهي. على سبيل التسلية أولاً، ثم بدأت أدرك أنني أنصب شركاً للمناهج. قضيت أسبوعين أدرس كتب التوجيهي، بالضبط مثلما يدرسها الطلبة. كنا في بداية العام الدراسي، وامتحان التوجيهي بعيد.

رحت أكتب أسئلة. أسئلة تتطلب فهماً لا ذاكرة. فمثلاً بعد السؤال «أكتب قصة إلغاء السلطة الفلسطينية عام 2044، ونشوء الحواضر في الضفة الغربية»، تأتي فقرة المعيار (12 علامة. الإجابة بين 7 و10 أسطر. وفيها سرد قصصي للحدث نفسه بدون بنود، ولا تواريخ. يطلب بيان سبب الإلغاء، ورد فعل المواطنين الفلسطينيين، وأثر الخطوة على حياتهم).

جمعت لجنة من خبراء أسئلة التوجيهي المخضرمين بغرض وضع أسئلة نموذجية كاملة لكل المواد تهتدي بفلسفة «إسقاط السفاسف». عندما تصل هذه الأسئلة النموذجية إلى معلمي وطلبة الصف الأخير، سيتغير التركيز، وستتغير طريقة التدريس، وسيتنفس الطلبة الصعداء. ستمر هذه الأوراق النموذجية للأسئلة بغير كثير من الضجيج لأنها مجرد أمثلة. لكنها شرك منصوب للمناهج. وعندما يحين الوقت لتأليف كتب جديدة سيكون الطريق ممهداً.

أعجبتني قدرة لجنة الخبراء على التأقلم مع رؤيتي، وأعجبني أنني أخذت أحقق نجاحاً في اختيار الرؤوس التربوية المنفتحة على التغيير. بدأت أغربل الرجال والنساء. أغلقت باب التعيينات الجديدة في مقر الوزارة، فمن مات أو تقاعد وفرنا مرتبه لاستقدام خبراء يعملون مياومة.

ثم شاورت. ولقيت حماسة من الزعيم فاجأتني. سأطرح الأسئلة النموذجية، وسيكون لدي، مع بداية العام الدراسي المقبل، في الكرك ثلاث مدارس جديدة سأنقل إليها معلمين ومعلمات ممن يتحمسون لتطبيق تجربة النوادي والرحلات. والكراسة ستكتب وستناقش في الأشهر المقبلة. هذا خير. وأما داخل مبنى الوزارة فثمة مسمار سيدخل في لحمي، وسيخلف التهاباً.

6

لم ألقِ بالاً في معمعة الشهر الأول في الوزارة إلى ما يدور في المكاتب من لغط، وما يحاك من دسائس وما يُعقد من تحالفات. كان أبو شحمة يوافيني بالقليل مما يعرف، فلا هو يشعر بأنه راسخ القدم في حلفي، ولا بأنني راسخ القدم في الوزارة. إيماءاته تدل على أنه طوع بناني، لكنَّ في عمق عينيه تحفظاً. وكان المستشار وبعض زملائه – ممن يفترض أنهم يحسنون التركيز على جوهر العمل أكثر مما ينفقون من جهد في الانخراط في الأحلاف الداخلية – يترفعون عن إبلاغي بما يحدث، ويكتفون بالتسلي برؤية الفخار يكسر بعضه.

غير أنه بدا لي واضحاً أن وكيلة الوزارة تقود حلفاً مضاداً. إنها لا تتركني لحظة. أمر بمكتبها صباحاً أو ظهراً لغرض فتقوم عن مقعدها بغاية الاحترام والانقياد لسلطتي، وتقول لي: بل أنا آتيك في مكتبك، معالي الوزير. وتأتيني وتجلس إلى كرسي بجانب المكتب، وعيناها تدوران في محجريهما كعيني الغول. وأذناها تتصيدان أي كلمة، تنصت إلى مكالماتي الهاتفية وهي مقعية بجانبي، وترصد كل حركة. وعندما تبارح المكتب تخرج بوجهها نحوي متراجعة على عقبيها مع ابتسامات ود مصنوعة.

عالجتها وعالجتني بضعة أسابيع، وهي بين أصابعي كالعجين الرخو لا خلاص لي منه إلا أن أغسله غسلاً. لا أفهم دوافعها، ولا ما تريد، ولا ما لا تريد.

حان أن نضع أوراق الأسئلة النموذجية، بعد أن ثبت الخبراء المفاهيم. ووصفوا السؤال الناجح مع فيض من الأمثلة.

استدعيت الوكيلة إلى مكتبي، وشرحت لها بقدر الاستطاعة فلسفتي في الأسئلة، وقدرة مثل هذه الأسئلة على توجيه دفة الطالب في دراسة كتبه، ودفة المعلم في تدريسه هذه الكتب لطلابه. أجبرت نفسي على الاعتقاد بأن في رأسها عقلاً يهتم بما هو إيجابي وحقيقي، ولا يكتفي بالتسلي بلعبة التآمر.

كلفتها بمتابعة لجان وضع الأسئلة. خرجت من مكتبي ووجهها إليَّ والملف بين كفيها، وهي تردد تعليماتي: «لجان صغيرة، وعشرة أيام فقط، وسأراجع النتيجة ثم أوافيك بكل شيء».

وبدأت الحملات في وسائل التواصل وفيها نتف معلومات مبعثها أروقة الوزارة: وزير التعليم يطيح بهيبة التوجيهي.. وقريباً بالتعليم نفسه؛ المطلوب من الطلبة ألا يدرسوا بعد اليوم؛ معلومات المدارس لا تعجب الوزير.. الأفضل أن يتخرجوا أميين.

أخذت أنقب عن أخبار المستشار أريد توظيفه جاسوساً لي على الوكيلة. فاكتشفت أنه في حلفها. وأبو شحمة يناصبني الحذر. بدأت أشعر بالحصار، كبطل تراجيديا يقف وحده يصارع العالم. ومضت الأيام العشرة.

***

كان رأسي ملقى بكل ثقلة على كفيَّ وأنا جالس إلى المكتب في صباح ممطر لا يبعث أصلاً على التفاؤل. وجاءت رسالة من عمرو مدير جرزال: هل يمكن أن أكلمك؟ وهاتفته.

– هل تريد الأخبار السيئة أولاً أم الحسنة؟

– تكلم.

– إذن السيئة. لا يوجد. والحسنة: الطلبات تتوالى كمطر ليلة أمس، وعندنا نماذج مقنعة. نريد اجتماعاً سريعاً لتدشين وردية ثانية.

كانت قروضي قد بدأت تسبب لي ضغطاً نفسياً رغم عدم حلول مواعيد السداد أو إعادة الجدولة، لذا جاءت أخبار عمرو حكَّاً على جرب. انتشيت، وانتشلت رأسي من بين كفيَّ وقمت من على مكتبي.

كان أبو شحمة مشغولاً بأوراقه، ولم يقم عن مكتبه كعادته لظهوري أمام باب مكتبي. تنمَّرت. وكبطل تراجيدي، رفعت كتفي، وفرشت صدري. وخرجت. عبرت الممر المؤدي إلى مكتب الوكيلة، وهو يطل على الساحة التي يحتويها مبنى الوزارة احتواء. تأملت المبنى الدائري بممراته المكشوفة. مبنى حكومي، مبنى موظفين. وأنا؟ من أنا هنا؟ أنا قادم بقرار سياسي. أنا سياسي لا موظف. أنا هنا القرار. والوكيلة موظفة. أنعشتني الفكرة.

فإلى مكتب الوكيلة. قامت لي سكرتيرتها، ثم قامت الوكيلة وهرولت نحوي كالعادة، فقلت:

– غداً اجتماع الأوراق. واليوم ظهراً أريدها على مكتبي.

وبدأت تتمتم بعبارات تنطلق من قاع بئر لا تنوي الوصول إلى فوهته، لكنني انصرفت دون أن أعطيها فرصة لتقديم عذر بالتأخر يوماً. ونزلت إلى سيارتي. وكتبت لعمرو أنني سأكون معه بعد ساعة.

***

في مصانع جرزال ثمة مشكلة في الأفران. ثمة مشكلة في الخبرات. أحسن شيء عندنا مدير التسويق، فهو لا يكتفي بالاتصال بالعملاء المنشودين، بل يتابع عملية الإنتاج ويرصد التطور، ويحسب الأسابيع. لا يريد أن يسوق منتجاً غير موجود، ولا يريد أن يسوق بضاعة معيبة. عمرو يملك الحماسة والتدفق، ومدير التسويق عقل بارد.

إذن فهناك حاجة إلى قرض كبير، وإلى إرسال مجموعة من الشبان للتأهل في الخارج. أهذه هي الأخبار الحسنة؟

واقفاً في وسط المصنع بدأت أتحسس هاتفي، هاتفت مدير مجموعة «الاتحادية» عارضاً أسهماً.. شراكة بعشرين في المئة. فاستمهلني أسبوعين. هاتفت منال سائلاً عن الأرباح المتوقعة للربع الوشيك، فطمأنتني. لقد اشتريت أرضاً واسعة في المنطقة الصناعية، فلماذا لا أبيع أرضاً من أراضي الشمال التي تملكها العائلة؟ هاتفت منال مرة أخرى، فقالت إنها تريد التحدث مع زوجها.

منال غير مؤمنة أصلاً بمشروع السيراميك، وهي سعيدة بالاكتفاء بإدارة «كفتة». اتخذت زوجها حجة؟ لا، ليست منال هكذا. لكنني لم أكن مرتاحاً إلى دخول زوجها الثرثار في أشغالي.

بدأت أطوف المصنع وتوابعه كالممسوس، أطلع على أدق التفاصيل، وأسأل عشرات الأسئلة:

– المصنع مكيف معظم أشهر السنة، والأفران تطلق الحرارة. لماذا لا تخرجون بطون الأفران خارج المصنع حتى تزداد كفاءتها، وتقل فاتورة التكييف؟

ابتسم عمرو، وأشار إلى مدير التسويق. وبتواضع جم قال الأخير: كانت تلك نصيحتي، ولكنني جئت متأخراً بعد إتمام البناء.

– ادرسوا الأمر وحركوا الواجهات ليحصل المطلوب. ادرسوا أولاً.

وفي مكان آخر سألت عن العدد الكبير من العمال الذين يقفون بلا عمل في مصنع الزجاج. وعرفت أننا في انتظار كذا وكذا. المشكلات لا تُحصى. ولكن وجود عمرو ومدير التسويق هو الضمانة. إيمانهما هو الضمانة، وأنهما يعملان ليل نهار هو الضمانة.

هاتفت منال:

– لا نبيع الأرض، حسناً. فهل تقبلين بتقديمها ضماناً لقرض مصرفي آخذه؟

وقبلت منال فوراً. ثم قبلت أمي. وكيف لا تقبلان، وأنا مَن أسس المشروع الأول الناجح، وأنا من فرض لهما ثلثاً ثلثاً تفضلاً مني؟

هو القرض. وسأرهن أراضي العائلة كلها. فأما ما بقي لنا من دكاكين قاع المدينة فهو باق على حاله بإيجارات قد تحسنت كثيراً، وأصبحت تمدنا فقط بما يقوت، لا بما يستقر في حساب مصرفي.

أسرعت إلى الوزارة. شعرت أنني كسيدتنا هاجر وهي تسعى بين الصفا والمروة تريد إنقاذ طفلها. الإدارة قد تكون بناء، وقد تكون تلبيس قبعات، وقد تكون إطفاء حرائق. وأنا الآن في طور إطفاء الحرائق، لكنني مصمم على الوصول إلى مرحلة البناء. وعندما تترهل الأمور وتصبح الإدارة بالنسبة إليّ تلبيس قبعة هذا لذاك، وذاك لهذا، فلن أمكث يوماً.

***

أخذت أوراق الأسئلة النموذجية من الوزارة وانطلقت من فوري إلى البيت كي أنفق عشر ساعات في دراستها، وبجانبي على منضدتي في البيت أكوام كتب المناهج المدرسية المعتمدة من الوزارة.

وفي ملف اسمه «ملاحظات المستقبل» كتبت: (الطالب الذي يتعلم كيف يضع مسألة حسابية – كأنه يقوم بدور المؤلف أو الأستاذ – يكون أقدر على حل المسائل التي يضعها غيره. نعم، حتى الأساتذة لا يؤلفون المسائل بل يأخذونها من الكتاب، لكنني أريد من الطلبة أن يؤلفوها).

وزينت أوراق الأسئلة النموذجية بقلمي الأحمر، ويا لفداحة ما رأيت. ثم.. هل من حقي، وهل من حق العلم أن ألغي كتاب التفاضل والتكامل للصف العلمي الأخير؟ ومن أنا حتى ألغيه؟ هو مجرد تسلية فكرية، هو مجرد.. إنه علم مجرد. لكنني لا أفهمه. طلبت التحدث إلى أستاذ جامعي قدير في الرياضيات. وفهمت منه أن إلغاء هذا الموضوع من المدارس سيكون من أفضل قراراتنا، وشرح وأقنع. ودونت ملاحظة مستقبلية بهذا الصدد.

وكان الصباح، وحضر رؤساء اللجان، وجلست الوكيلة إلى كرسي بجانبي عند رأس الطاولة. وبدأت:

– الدكتور محمد! تطلب في سؤال ذكر خمس قرى في الأردن، فهل يعرف مصححو الامتحان كل قرى الأردن؟

– معالي الوزير القرى الخمس مذكورة في الكتاب المقرر.

– لكن السؤال يقول فقط «خمس قرى». فهل تريد تعديله ليكون «القرى الخمس المذكورة في الكتاب المقرر»؟

– تعديل جيد معالي الوزير.

– إذن فأنت تطلب من التلميذ أن يحفظ كل التفاصيل التي في الكتاب؟

وبدأ يجادل. ونظرت بطرف عيني إلى الآخرين، فإذا هم مطأطئو الرؤوس، سعيدون بأن سواهم من يتعرض للتقريع.

– معالي الوزير الطالب يكون قد درس المنهاج وتلقى توجيهات المعلم وفهم المطلوب.

وبعد تقريع آخر، وانتقادي لسؤال آخر فاسد، اتبع تكتيكاً آخر:

– معالي الوزير، نضع الأسئلة منذ سنين. هذا أمر فني اختصاصي.

كان جوابي على مثل هذا الرد أن حولت نظري عن الرجل تحويلاً. مضيت إلى ورقة الرياضيات. أشرت إلى ثلاثة أخطاء مطبعية، وإلى خطأ في أرقام أحد الأسئلة. ثم إلى الكوارث..

– سؤال الإحداثيات فيه خلل، منحنى الجرس لا يطابق صيغة السؤال. السؤال السادس كذا، والثاني عشر كذا..

كنت أُطلق ملاحظاتي بانتظام ورتابة وبصوت هادئ، كمن يطلق رصاصات من مسدسه، رصاصة على كل سؤال. ونرمين تحاول مقاطعتي كي ترد، ولا أنتهي عما أنا فيه. ثم.. تفضلي:

– طبعاً هذه نسخة أولية. و..

أخذت تهذي هذه الفتاة، أخذت تتكلم بكلام مرصع بتعابير إنجليزية. وأخذت تميل بجسمها يميناً ويساراً. وضعت يدي على خدي. أأنا في حلم أم في علم؟ فتاة ذات وجه بيضوي وشعر مسترسل كستنائي، شفتان رقيقتان تفترَّان عن أسنان بيض، قوام متناسق. طويلة وتشير بأصابع طوال يساعدنها في هرائها. لا شيء فيها غلط، قولة أمي. ولكن، لا لون ولا جاذبية. وقطعت هراءها:

– عشرة أيام ثم تأتيني أسئلة الرياضيات بهذا الشكل؟

ومضت نرمين في كلام يشبه الكلام الأول غير أنه مليء باستعطاف بغيض، وبحجج أخرى لا يقبلها عقل.

– من وضع ورقة الأسئلة؟

– طبعاً أساتذة قديرون، لكن، معالي الوزير، كان ثمة ارتباك في تجميع الأسئلة، فقط بسبب السرعة.

كان واضحاً لي أن لجنة الرياضيات فيها علة. مضيت في استعراض الأوراق. ووزعت على كل رئيس لجنة نسخة مصورة من ورقته بإشاراتي. وصرفتهم صرفاً غير حميد.

هكذا إذاً. السيدة الوكيلة كلفت أقل الناس كفاءة بوضع الأسئلة ورمت ملاحظاتي وتوجيهاتي في سلة القمامة. بل هي لم تفهمها. إنها تملأ ساعات دوامها بالتآمر، وتعمل «ساعات إضافية» لإنجاز مزيد من التآمر. تلك مهنتها الوحيدة.

جررت رجلي إلى مكتبي. ووقفت أمام النافذة أنظر إلى الغيوم الداكنة. هي الحرب. وهي حرب ضد الرداءة، وضد من لا يريدون أن يأكلوا لقمة شريفة.

***

هاتفت باباتي. وتيقنت أنه فارغ البال. وهرعت في المساء إلى مخدعه.

سمعني طويلاً. ما أجمل أن يجد المرء إذناً مصغية وراءها عقل ذكي، وحكمة. قصصت القصص، ووصفت وفصلت تفصيلاً.

– ربما دققت في ملفات تعيين رؤساء لجان الأسئلة. وواضح أن الوكيلة مشكلة، وقد يكون الأفضل أن تتغير، لكن ليس الآن. المشكلة أن الوزير السابق كان مجرد وزير سياسي لا شأن له بالتعليم، وسمح للوكيلة بأن تلعب في الوزارة لعبة السيطرة لا لعبة العمل.

لم يقدم لي حلاً. لكنه ثبَّتني. وسرني ما قاله بعد ذلك من أن الحكومة تسير سيراً سلساً، وأن الزعيم حريص على أن يغلغل الحزب في المجتمع، وأن يقتلع العائلات من بين براثن الأحزاب الأخرى. ولكن مدار الأمر كله على أن يتحسن الاقتصاد بشكل معقول ليشعر الناس بالفرق. عموماً قبل أن يشعروا بالفرق هناك التطور المستمر لأفكار الحزب. وبالطبع كنت قرأت أوراقاً حزبية عن السياسات والأفكار القصيرة المدى والمتوسطة المدى. وأما ورقتي عن التعليم فلها أن تنتظر.

نحن حكومة ائتلافية، ونرأس الحكومة سنتين لا أربعاً، وبعدها نأخذ المقعد الخلفي، وقد يعن للرئيس المقبل للحكومة أن يريح رأسه من وزير تعليمٍ تكثر شكاوى موظفيه. لا بد أن أزور مطلوب نائب رئيس الوزراء في بيته قريباً. يجب أن أذهب إليه كي أستمتع بقهقهاته، وبأسنانه المفروقة.. وكي أفرض عليه صداقتي.

انصرفت عن باباتي هادئ البال.

***

بعد العطلة الأسبوعية، مضيت إلى الوزارة. عبرت الممر المؤدي إلى مكتبي ورأسي منحنٍ مع ميلٍ كالثور الذي يريد أن يبقر بطن المصارع، فإن بقره فهو الموت ذبحاً، وإن انغرس السيف في عاتقه فهو الموت في ساحة القتال. كلتاهما ميتة شريفة. ومن يدري، فقد أنال شرف «الإندلتو» وأعيش عيشة هانئة. والثور الذي ينال شرف الإندلتو لا يبقر بطن غريمه، بل يعاييه طويلاً حتى ترفرف المناديل على المدرج طالبة منح الثور الحياة.

دخلت مكتبي ثوراً، ووجدت مزهرية فيها ورد في غير أوانه. ولحق بي أبو شحمة: «ورد من السيدة الوكيلة». المزهرية أنيقة وأنثوية. نحيلة لا كجسم السيدة الوكيلة الريان المفعم بالقوة.. وبالأنوثة أيضاً، فهي في الأربعين تملك حيوية ابنة الثلاثين وتحب الحياة، وتستمتع بالصراع.

ورد أحمر. لو كان أبيض لأوَّلته بالراية البيضاء. لكنه بلون الدم. أهي إشارة حب أم حرب؟

طلبت على الفور مدير شؤون الموظفين. وقبل أن يأتي كانت الوكيلة تدخل مكتبي ووجهها مشرق. دخلت تبشر بالصباح الجميل. وبادلتها البشر والانشراح. ليس رجلاً من لا يضعف أمام وردة من امرأة. توجهت الوكيلة إلى النافذة وفتحتها، وهي تنعطف إلي بوجهها وقد استراحت عيناها – الزئبقيتان في العادة – في محجريهما، وجللت وجهها المكتنز غلالة من فرح. جاملتها:

– بعد كل هذا المطر نستحق يوماً مشمساً.

ثم أغلقت الوكيلة النافذة بعد هبة هواء باردة. شكرتها على الورد، فكأنها أخذت الإشارة بالجلوس فجلست. ولتجلس، ولتشهد كل شيء. ومن هي حتى تجبرني على أن أدير شؤوني في الخفاء؟ عندما يلوح الشر فأنا أقابله بشر، وأرمي الصخر بالصخر، والنار بالنار. فار دم الصراع في عروقي. وكدت أصرخ بأبو شحمة أن يأخذ المزهرية إلى مكتبه هو. لكن، انتابتني نوبة تعقل. تريد الصراع، وأريد الصراع. تحبه وأنا لا أمانعه. وهي امرأة وأنا رجل. لن أصرع الموتادور بل سأبرهن له بقرنين فولاذيين أنه لن يصرعني. لا أريد شرف الميتة ذبحاً ولا شرف الميتة طعناً. هدفي النجاح لا الانتحار ولا قتل الخصم.

دخل مدير شؤون الموظفين. واستللت قائمة من حقيبتي:

– أريد ملفات المذكورين هنا. بعد ربع ساعة؟

نظر في القائمة التي تضم أسماء رؤساء اللجان، وهز رأسه بالموافقة. قلت له:

– سآتيك أنا إلى مكتبك بعد ربع ساعة.

وقبل أن يوليني ظهره انبعثت شرارة شر من أعماقي، واستوقفته:

– لو سمحت. خذ.. هذه الآنسة نريد توظيفها مسؤولة تربوية، هنا في الوزارة.

وخفضت صوتي وأنا أكتب الاسم على ورقة صغيرة: خديجة علي السلطي. نطقت بالاسم وأنا أكتبه. فتنحنح وذكر شيئاً عن وجوب فتح تعيين استثنائي. وطبعاً فهمت، فأنا قد أغلقت باب التعيينات في الوزارة منذ قليل. قلت له بصوت أخفض، وكأنني أجري صفقة بيع حشيش في مقهى مكتظ:

– تعيين واحد استثنائي، ابنة عمي، جامعية وتخصصها التربية. سأوافيك بكامل أوراقها.

مع أنني كنت مطأطئ الرأس، فقد رأيت بعينين مركبتين في أعلى رأسي نظرة رشق بها الرجل الوكيلة، ورأيت الوكيلة تشيح بوجهها عنه. يا لهذا الوكر الذي أعيش فيه.

ثم انثنيت نحو وكيلتي بوجه باسم، فعادت عيناها تسبحان في زئبقهما، وصار وجهها أسود رغم الابتسامة المصنوعة.

بعد ربع ساعة كان المراسل يرافقني إلى مكتب شؤون الموظفين. فرغت مكتباً لنفسي ووضعت الملفات أمامي. طلبت مدير الشؤون القانونية، فجاء مهرولاً. لم يعجبني منظره. صرفته. طلبت من أبو شحمة أن يأتيني فجاء.

– هل مدير الشؤون القانونية من حلف الوكيلة؟

فوجئ أبو شحمة بصراحتي. وهز رأسه بالموافقة.

– أبو شحمة، أنت لا يجوز لك أن تكون لا من حلفي، ولا حلف الوكيلة. أنت أمين على مكتب الوزير. هل هذا صحيح؟

اقترب مني أبو شحمة، منحنياً باتجاهي:

– سلِم فمك معالي الوزير. أنا والله لا أبوح لزوجتي بما يجري في الوزارة. أنا أسمع وأرى، ولا حيلة لي، لا أريد إغضاب أحد. تراني أتكلم وأمزح مع بعض الموظفين مزحاً بريئاً، لكنني أحفظ لقمتي بالصمت.

ليتني أستطيع أن أصدقه. كنت محاطاً بالأعداء، فرأيت وراء كل مكتب عدواً. ما كان يجب أن أضع نقطة ضعفي في يد أبو شحمة. صرفته. تناولت ملف نرمين رئيسة لجنة الرياضيات. ناديت مدير شؤون الموظفين. قرأت قليلاً. خرجت أتجول في القسم معه. قام لي من قام، وبقي قاعداً من بقي. وأشار إلى رجل أربعيني ذي وجه غاضب ممن لم يقوموا. أقبلت عليه فقام فصافحته. يملك شبح ابتسامة لا يعرف كيف ينفقها ولا متى، وأسناناً سودتها السيجارة. وهو بمعطف وربطة. قال لي مدير شؤون الموظفين إن هذا هو الذي يدقق في العقود، وهو من يدقق شهادات كل من يعمل في الوزارة. قلت للمدقق إنني لم أقدم شهادتي. فقال إن منصب الوزير تعيين خارجي، منصب سياسي، ولا ملف له عندنا، بل عند رئاسة الوزراء. وما المناصب السياسية الأخرى؟ «وكيلة الوزارة فقط، لكن ملفها عندنا». وكيف تدقق؟ وماذا تدقق بعد تمام التعيين، وما التقارير التي ترفعها لديوان المحاسبة التابع لرئاسة الوزراء؟

ثم بعد ذلك أخذته إلى حيث الملفات، وتركته يعالجها ساعة، ثم استدعيته إلى مكتبي. وتبين له ولي جلياً أن جل رؤساء اللجان من أقل الناس خبرة، وأن الشهادة الجامعية لـ «نرمين» مزورة. وأمر آخر: هي من أقارب الوكيلة، وتعيينها استثنائي. كنت بحاجة إلى هذه الذخيرة. رجعت إلى مكتبي.

الوكيلة تحوم حول مكتبي. ضبطتها تسترق المعلومات واقفة قرب مكتب أبو شحمة. سألتها:

– نرمين ما شهادتها؟ ومتى تخرجت؟

تمتمت بكلام فتى فاجأته أمه يمارس العادة السرية. وخرجت مسرعة.

نظرت إلى الورد الأحمر، وإلى المزهرية الأنيقة. وقبل الانصراف كنت قد شكلت لجنة تحقيق فيها عضو من ديوان المحاسبة.

بعد يوم أو يومين كانت مواقع التواصل كلها تذيع نبأ نية وزير التعليم إصدار استثناء لتعيين ابنة عمه خديجة علي السلطي في الوزارة.

وجاء ردي متأخراً بعض الشيء. أردت أن أترك أصداء الخبر تتردد في كل مكان. ثم عندما جاءني «استفسار» من ديوان المحاسبة رددت ببرود: ليس لي عم ولا ابنة عم. ولا أحد في عائلتي يحمل هذا الاسم. وأرغمت المواقع التي أسرفت في تزيين الخبر على نشر الاعتذارات.

أنظر الآن إلى هذه اللعبة بعين الشك. ما كنت بحاجة إلى أن أوقع نفسي تحت طائلة اتهام. فالاتهام الكاذب يترك في النفوس شيئاً. الأفضل أن يعيش المرء حياته ببراءة، وباستقامة. لكن، كان ذلك الصراع دنيئاً ووسخاً، وخضت الوحل.

***

مع إقالة نرمين ومحاسبتها القانونية وتحميلها الغرامات كان اسم الوكيلة قد تمرغ في التراب. وربط الناس افتراء تعيين قريبة لي بـ «حقيقة» تعيين الوكيلة قريبة لها، وبشهادة مزورة.

عرضت الوكيلة استقالتها مع حرصها على ألا أتعرض لرزقها. كان الورد قد ذبل، والمزهرية قد رحلت إلى مكتب أبو شحمة. قبلت الاستقالة فوراً، وأصدرت قراراً بنقلها.

في ذلك المساء كنت ضيف «مطلوب جوهر» زعيم حزب الإصلاح اليساري. استقبلني بترحاب جميل. وما قعد في كنبته حتى ارتفعت القهقهة التي أعرفها:

– وكر دبابير الوزارة عندكم. لكنك جدع، منذ رأيتك أول مرة قلت لنفسي إنه سيكون لك شأن.

سياسي متمرس خاض فترات صعبة وسهلة، ولا تجوز عليه حيلة. ثم أردف:

– قرار الـ 167 ما زال ينعش الناس.. وبصراحة يضحكهم. لكنني أفهمك جيداً. ونؤيدك.

ومع قدوم كوب العصير:

– عندك الوكيلة مشكلة. يبدو أنها الدبور الأكبر في الوزارة.

– لهذا جئتكم. اليوم استقالت. ولعلكم ترشحون وكيلاً أو وكيلة. فوزارة التعليم ليست وزارة حزب دون حزب. هي شأن يخص ملايين الطلبة، وآلاف المعلمين. هي وزارة الوطن.

لم يحتج «مطلوب» إلى عبارة أخرى. فهم كل شيء. فهم أنني بكل بساطة أسعى إلى ان أبقى وزيراً للتعليم عندما يصبح هو رئيس وزراء، وفهم أيضاً أنني أريد ذلك لأن عندي مشروعاً، وكأنما رضي أن يكون حزبه شريكاً لي في مشروعي، لقد قال لي بعض ذلك وبكل صراحة. رجل حنكته الأيام. وبدأ يستعرض في ذهنه الأسماء، واستمهلني. وقلت له إنني أريد شخصاً قوياً مقداماً جسوراً يكون شريكاً لا مرؤوساً. وتابعت:

– هل تبلغني أستاذ مطلوب قبل أن تخبر الشخص المرشح من طرفكم؟

وهز مطلوب رأسه، وعرف أنني أريد أحداً منهم، لكنني أريد أيضاً أن أشترك في اختياره وأن أشاور زعيمي، وقبل الأمر بتفهم. التعامل مع الأذكياء نعمة.

وإذ كنت عائداً من عند مطلوب تذكرت ما جعل جبهتي تتفصد عرقاً. أليس تعيين الوكيلة تعييناً سياسياً؟ وأين المشاورة؟ لم أشاور الزعيم في شيء. وأزور رئيس الحزب الآخر ولا أشاور!

استدرت وتوجهت إلى بيت الزعيم بعد أن بعثت رسالة قصيرة.

كان يقيم في جبل عمان غير بعيد عن مقر رئاسة الوزراء. لا بأس في أن يزور المرء رجلاً أعزب في ساعة مسائية. أصعدني الحارس إلى الطابق الأول من بيت عتيق ذي سور وحماية شائكة، من المؤكد أنها أضيفت بعد تولي الزعيم المنصب. في التسوية مكتب للحراسات. وأصوات الناس خافتة، ولكنهم بالتأكيد من رجال المخابرات. تذكرت الخلفية الأمنية للزعيم، وعادت إلى ذهني صورته وهو في سجنه. ولكنني عندما وصلت باب الشقة في الأعلى، تاركاً التسوية المدججة، وجدت الزعيم بطاقيته ومعطفه الأسود يرحب بي، ويسحبني من يدي المصافِحة إلى الداخل.

– تعشيت؟

– لا.

– اقعد. وجاء طبق الفول، والأرغفة والبصل، وقنينة زيت الزيتون.

سمى الزعيم وأكل اللقمة الأولى، تشجيعاً، فآكلته. وقلت في نفسي: لو كانت الطماطم رخيصة في هذه الأيام لوجدت شرائح الطماطم على هذه الطاولة المنخفضة التي كأنها الطبلية. هذا الرجل يعيش مثل الناس، من هنا فاعليته ومن هنا جاذبيته. أخذ يتباطأ في الالتقام، ويتكلم بالعموميات. ففهمت أنه كاد يشبع، لكن أعراف بلدنا تمنع المضيف أن يرفع يده إلا إذا شبع الضيف. فازدردت ما وسعني ورفعت يدي، فرفع يده فوراً، وحمد الله. وقام وجاء بالشاي. فعاجلته بسبب الزيارة:

– جئت معتذراً.

– مشاكل التعليم معروفة. هل تتابع موضوع مدارس الكرك؟

– لا. ليس بعد.

– مشكلات الوزارة تحتاج إلى صبر.

وشدد على كلمة صبر. ثم استأنف:

– ونماذج الأسئلة طريقة ذكية لتحويل نقاط الاهتمام في إطار مناهج متهالكة.

– وكيلة الوزارة استقالت.

– حق لها بعد الفضيحة.

– ولم أشاور في تعيين البديل، وارتكبت خطأ.

شرحت للزعيم بكل انفتاح كيف ذهبت إلى زعيم المعارضة، وتغير وجهه. وسأل: متى؟ فقلت: قبل ربع ساعة. فأنار وجهه، وندت عنه همهمة رضا. قلت له إنني في حمَّى ما ألقى أتحرك أحياناً بسرعة زائدة. فازداد همهمة:

– لا عليك. لا تنس، حزبنا يرافق اليسار مرافقة حذرة، وحزبنا يتهيأ لكي يحكم البلاد وحده بعد بضع سنين لكي ينجز مشروعات كثيرة. نحن الآن في فترة انتقالية، وعلاقتنا باليسار صحبة

طريق، نحن نخطف من أنصارهم ما استطعنا، وهم يحاولون. اليسار صديق، وهو عدو، وكل حزب آخر كذلك. أنت أولاً عضو في التكافل، وثانياً وزير للتعليم. طبعاً شغلك في التعليم يأخذ معظم وقتك، ولكن أولويتك هي مشاريع التكافل كلها لا مشروع التعليم وحده.

لم يكن يلقيها كمحاضرة، بل عبارات بين رشفات الشاي. وكتلميذ ارتكب خطأ كنت أهز رأسي. ومع انتهاء كوب الشاي، طلبت الإذن بتأدب، فرافقني إلى الباب بودٍّ.

الود الحقيقي هو ود باباتي. أنا صبي باباتي، وعصام صبي الزعيم. ولا بد لك في دنيا السياسة من أب. كتبت لباباتي بما حدث. وتواعدنا على لقاء في عطلة نهاية الأسبوع.

***

زرت باباتي في مقر الحزب الجديد. شقة كبيرة في عمارة جديدة. سألته وأنا أجيل نظري في الشقة الواسعة المؤثثة بأثاث حسن عن التمويل الحزبي سؤال حريص لا سؤال داخلٍ فيما لا يعنيه، ذلك أنني ساهمت في هذا التمويل بعض المساهمة قبل أزمتي المالية الحالية. طمأنني باباتي إلى أن رأسماليي البلد يتهافتون على تمويل الحزب وأن المشكلة هي مشكلة انتقاء التمويل الأقل شروطاً. «الاتحادية» تبرعوا، و«الألومنيوم» تبرعوا. ومن جانبي سكتّ لأنني أنا نفسي بحاجة إلى من يقرضني بعض المال.

في محضر باباتي بالمكتب نسيت أنني من مخضرمي الحزب، وعندما جاءت مجموعة من الأعضاء الشباب لعقد اجتماع تنسيقي، أشعروني بأنني من طبقة باباتي، وفرحت. ثم جاء عصام كي يجتمع بهم. وعلى باب مكتب باباتي صافحته. كان واضحاً أن عصام يعد نفسه نظيري. مربوع القامة يرفع كفه كالزعيم، يصغي كالزعيم، ويشير إشارة صامتة إلى الأعضاء المتأخرين بالتوجه إلى قاعة الاجتماع. يقلد الزعيم. وبفجائية سلم ومضى كي يجتمع بصحبه. كان باباتي ما زال جالساً إلى مكتبه مبتسماً ابتسامته الهادئة. جلست وجلس باباتي إلى كرسي بجانبي، وهو يقول:

– اجتماع لتنسيق العمل الحزبي في المخيمات. كما تعرف فعصام من مخيم البقعة. ولئن زالت المخيمات الآن وحلت محلها أحياء فإن هذه الجيوب الفلسطينية بحاجة إلى مزيد من الانخراط في كل نشاطاتنا.

لم أعلق.

قصصت قصة زيارتي لرئيس حزب اليسار ثم للزعيم، ثم قصتي في وزارة التعليم. هذا وباباتي يحك حاجبه بين الفينة والفينة. هل هذه طريقته في قراءة الغيب؟

لم يعلق. كأنه رآني أسير في الخط الذي أراده قدري، فلأسر ما شاء لي القدر السير. باباتي هو أبو الحزب، وهو أبو الجميع، وهو لا يعرف الانخراط في أحلاف. حسناً. لكنه أولاً أبي السياسي. ويجب أن يحمل على كتفيه كل كلامي وهمومي.

***

في الوزارة انتبه المتواكلون إلى أن الوزير الشاب ليس ولداً، وخفت صوت من لهم تاريخ أسود في حلف الوكيلة. ولم أعين أحداً. وبدأت أنفق ما تيسر على استقطاب كفاءات تعمل مياومة. وطابت لي مسألة قراءة الرجال والنساء، واستقطاب من يحسنون الإنجاز. أصبحت الوزارة أنظف.

بعد بضعة أسابيع أخذت أظن أن منصب الوكيلة سيظل شاغراً، ولِمَ لا ففي هذا بعض التوفير، ثم جاءت مكالمة «مطلوب». ومن بين شفتيه المسترخيتين، سألني، وهو يتعمد تشويه بعض مخارج أحرفه كي يبدو لامبالياً، «ماذا عن ابتسام الصقر؟». وبسرعة وافقت، فهي كاتبة معروفة، وتحررية معروفة، وشابة، ولها على المدارس والمناهج نقد عميق، واستدركت فطلبت يوماً قبل أن أجيبه.

أيريدها مطلوب كي تخلفني في الوزارة؟ وأين سيذهب بي عندما يتولى الرئاسة؟ إلى وزارة العمل مثلاً؟ لن نرضى في الحزب. ولكن هذا مرهون بالنجاح، ومرهون بأطماع الشابة المثقفة. فإذا أصرت على أن ننجح معاً فسوف تجد طريقها الصاعد في وزارة أخرى بعد أن تعزز وضعها داخل حزبها. ولماذا كل الحسابات، قد رددت ببراءة أنني موافق، ووافقت بسرعة لأنها الشخص الملائم. فلأترك الحسابات السياسية.

لكنني طلبت يوماً كي أشاور.

هذه المرة شاورت. وأخذت الموافقة من الزعيم، وأبلغت باباتي.

ككل المثقفين تريد ابتسام أن تغير الدنيا، أو بالأحرى أن يغير الآخرون الدنيا لتطالب بتغييرها من جديد. تكبرني ببضع سنين، ولها طفلان. الحمد لله، زال خطر الفتون، فهي شابة جميلة

وجذابة وتتزين على طريقة شبابية. وهي ذكية، ليس لأنها خريجة هندسة. ذكية لأنها لا تملك المخزون الكبير من الميوعة والغنج الذي يحافظ عليه أبناء وبنات بلدي في نفوسهم ويربونه في نفوس أبنائهم. هو شيء في الماء أو في الهواء يشربونه أو يتنفسونه. ابتسام ذكية وغير مغناج، وتحتاج إلى شحنة من الواقعية. لاحظت ابتسام أنني جلست على كرسي بجانبها، ولم أتحصن وراء المكتب، سألتني عن المناهج وعن الفلسفة التي أنطلق منها. وبدا من اللحظات الأولى أننا متفقان.

لن يسمح شيوخ وشيخات اليسار لفتاة جديدة في حزبهم، وليست لها روابط حزبية – عائلية، بأن تنال منصباً وزارياً، فليطمئن بالي.

وبعد شهرين كانت قد أصابتها عدوى التكافل التي أصبحت في البلد طاعوناً حميداً، فأرادت أن تنتسب إلينا. فرجوتها أن تتريث، حتى لا أجعل من مطلوب عدواً شخصياً لي. ولكن هيهات. هي مثقفة، وكاتبة، وذات لسان طويل.

وقهقه مطلوب.

احتويتها، واحتوت هي أفكاري وأضافت إليها، وأصبحت دينامو الوزارة.

ومرت سنة ونصف السنة، وأنا وابتسام نعمل ليل نهار، وكانت تعمل أكثر مني، وتجعلني أحسدها وأراجع علاقتي بها: أنا صاحب أقدمية في الحزب وفي الوزارة، وأنا صاحب البذرة، لكنها هي الدينامو، وهي التي تطلق الأغصان وتولد الثمار.

***

أصبح التوجيهي بصورته الجديدة، وبدون أي تغيير جذري على المقررات، رافعة التحول في فهم الناس للتعليم، وللمطلوب من المواد التي يتعلمها الطلبة في كل المراحل. وبدأت مدارس الكرك النموذجية تنجح، واستقينا منها عشرات العبر. ونجحت خطة استقدام المدرسين الأمريكيين المتقاعدين للمخيمات الطلابية الصيفية لتقوية طلبتنا في اللغة الأجنبية. وكانت وكالة العون الخارجي الأمريكية شاكرة لنا لأن المبالغ التي أنفقوها على استقدام بضع مئات من كهول وكهلات المعلمين الأمريكيين السابقين أثمرت مزيداً من التقارب، بحسب قولهم، ومن التفهم لأمريكا، بحسب غرضهم. وأما غرضنا نحن فكان واضحاً: نريد للطالب في المدارس الحكومية أن يعرف من الإنجليزية ما يفتح له أبواب العلم والتعامل، فحتى لو اشتغل هذا الطالب في مقبل أيامه سائقاً أو خادم

غرف في فندق فمعرفته ببعض الإنجليزية أمر جيد. وعقد الأمريكيون أيضاً الدورات الكثيرة لمعلمي ومعلمات اللغة الإنجليزية.

أما في مناهجنا فكان لنا شأن آخر. لم ننسفها.

تذكرت قصة عتيقة تكاد أوراقها تتمزق وأنت تقلبها، كنت وجدتها في بيتنا وأنا في نحو الثالثة عشرة. القصة بقلم ابن بلدي حسني فريز، كتبها قبل نحو مئة سنة. وكتبها بالإنجليزية ليعلِّم أبناء الأردن هذه اللغة الأجنبية. والقصة عن أمه: كيف جيء بها على ظهر جمل من نابلس إلى السلط كي تتزوج من أبيه. قصة علمتني من الإنجليزية في ذلك العمر أكثر مما علمتني تلك النصوص الرقيعة عن الحياة الأمريكية وعن البيسبول التي درستها في مدرستي الثانوية الخاصة.

استكتبنا الكثير بالعربية.. قصصاً من مستويات مختلفة عن صلاح الدين وعن عبد الناصر وعن الحسين بن طلال، وحافظ الأسد وصدام حسين وياسر عرفات. وحرصنا على كتابة تاريخية نظيفة. واستكتبنا قصصاً عن الأدباء: نجيب محفوظ والطاهر وطار وعرار وإميل حبيبي. وحررنا النصوص لتناسب الطلبة، وطلبنا من بعض أدباء الأردن كتابة سيرهم بعبارات سهلة، على غرار ما فعل حسني فريز. كانت ورشة من أمتع الورش، وتألقت ابتسام. وبصعوبة أقنعتها أن تكتب قصتها هي، فقد كانت تريد أن تصرف كل جهدها لخدمة المشروع، ولم ترد إنفاق أسبوع لتكتب عن نفسها. وترجمنا الكثير إلى الإنجليزية وتولى كهول أمريكا الزائرون تحرير النصوص.. وأحياناً إعادة كتابتها.

أخذ طلبتنا يقرأون في دروسهم الإنجليزية القصص، وتم بالطبع تحريم «الغرامر» أي القواعد. كثيرون من الطلبة كانوا يقرأون أكثر مما هو مطلوب. كانت معاني الكلمات بالعربية تملأ الهوامش. نعم، هكذا نريد تعليم الإنجليزية.. عن طريق العربية. وقد نجحت، بكثير من الجهد، في «منع» وضع أسئلة في نهاية كل قصة. أردت أن تكون القصة قصة لا درساً.

لم يصبح الأسبوع المدرسي ستة أيام ولا أربعة. بقي على حاله خمسة أيام. ولكن حال التعليم في البلد بدأت تتغير، شعر الأهالي بذلك، والطلبة شعروا أكثر. ومثلما كان حزبنا يتغلغل في المجتمع كنا «نحاول» أن نتغلغل في جمهرة المعلمين والمعلمات. المعلم عبد المنهاج، أعطه منهاجاً جيداً يتخلَّ عن نصف مساوئه. والنصف الباقي يزول مع زوال جبال البلقاء.

لِمَ العجلة؟ الناس، كل الناس، يكرهون التغيير. وأنا أكره التغيير، وأريد أن أظل وزير تعليم، وأن أظل ماضياً في تنفيذ مشروعاتي التي يصور لي موقعي أنها كبيرة، ولكن وزير الصحة ووزير الأشغال وكل زملائي يرونها مجرد تغييرات شكلية. ولعلها كذلك.

لقد قامت في إنجلترا الثورة الصناعية والمنهاج في المدارس الإنجليزية سقيم عقيم يقوم على تدريس اللاتينية واليونانية، فأما علوم الحديد فكانت في مصانع الحديد. قامت الثورة الصناعية على أكتاف أفراد لم تلوث عقولهم المدارس بعلومها بل لوثت رئاتهم أدخنة الفحم الحجري. وعاشت أمريكا حمى الاختراعات في القرن التاسع عشر.. (غوديير والمطاط الفسفوري، وويتني ومحلجة القطن التي قامت مقام عمل ألف من العبيد.. ذلك الاختراع الذي زعم بعضهم أنه ساهم في تحرير العبيد أكثر من أبراهام لنكولن، وإلياس هاو مخترع ماكنة الخياطة التي سرق منه فكرتها إسحق سنجر، وجوزف هنري والتلغراف الذي سرقه منه بريز مورس، والآلة الكاتبة، والتلفون، وقلم الحبر الجاف، والكاميرا.. وبالطبع المصباح الكهربائي، فلن ننسى توماس إديسون الذي سجل باسمه 1037 اختراعاً.. وكان إديسون قد درس حتى الصف السادس، وكان مساعدوه الذين سرق اختراعاتهم وسجلها باسمه ممن لم يدرسوا في المدارس إلا قليلاً) كل هذه الاختراعات خرجت من البيوت والورش لا من المدارس والجامعات – وبحسب قول بيل برايسون فإنها خرجت من المطابخ، وحتى نكون صادقين فإن التلغراف «وحده» جاء من عقل رجل أكاديمي –. فليكن التعليم المدرسي غير مهم، لكن المدارس ستظل موجودة، والمدارس الجيدة أحسن من الرديئة. ثم إن التغير الإيجابي في التعليم المدرسي والجامعي في أمريكا، وفي كل الدول المتقدمة، الذي حدث في القرن العشرين أدى إلى انتقال الإبداع التقني من المطبخ إلى المختبر، ومن الفرد إلى الفريق.

لا، ليس ما أقوم به في وزارة التعليم شكلياً ولا تافهاً. لكنه يقتضي زمناً حتى يؤتي أول ثماره. والآن لم يمض عليَّ في الوزارة سوى أقل من سنتين، ستتلوها سنتان يكون رئيس الوزراء فيهما مطلوب جوهر، وفي الغالب سأبقى في موقعي. لكن، من يدري!

قبل أن ينهي الزعيم فترته في رئاسة الوزراء بشهرين، وقعت هزة سياسية. كان صيف 2059 حاراً.

7

قرر الشيخ الهاشمي أنه آن أوان التغيير. كأنه أراد أن يكرر ما شهده يوم كان شاباً. نحَّى عن ولاية العهد الأمير الكهل الذي طال به الانتظار، واستخلف شاباً. وقد عرف تاريخ الأسرة الهاشمية في الأردن عزلاً وتولية خارجيْن عن النص منذ الملك طلال. ثم تنازل الملك لولي عهده الجديد عن العرش.

انشغل الديوان الملكي بالتعديلات البروتوكولية الملائمة، وانتشر الحرس الملكي المتضخم في المرافق الحساسة في العاصمة.

لم يكن ثمة خوف من حركة جمهورية، فحزب اليسار الذي نادى بالجمهورية في زمن غابر لم يعد ينادي، وحزبنا يؤمن بالملكية، وحزب الحق لا يتطرق إليها، والمستقلون ملكيون مثلنا. لكن الحرس الملكي وجد فرصة كي يخرج من ثُكَنه، فقد ظل يتضخم على حساب الجيش عبر عقود لم نشهد فيها حرباً. ولم يكن له دور ملحوظ في فترة الضغط الأخيرة التي شهدت تقييد الحريات، بما في ذلك سجن الزعيم. ويبدو أن الملك الجديد كان وراء تحريك الحرس الملكي. كانت أمي تقول «الذي عنده فلفل يرش على العدس»، حتى والعدس غير محتاج إلى أي شيء بخلاف الكمون.

من المؤكد أن الزعيم عرف، حدساً أو علماً، أن المقصود من تحريك الحرس الملكي شخصه. أليس كان استضيف أسابيع في سجن المحطة لمجرد إفهامه أن نفوذه داخل الأجهزة الاستخبارية لا يعني أنه فوق الإرادة الملكية؟ والآن وبعد مرور سنتين تنقصان قليلاً على توليه رئاسة الوزراء أصبح يوصف في الإعلام العالمي بـ «رجل الأردن القوي».

لقد بذل الزعيم جهداً في التواري، فلم يكثر من الزيارات الرسمية إلى كبريات الدول، واقتصر على دول الجوار في زيارات رسمية وغير رسمية، علنية وغير علنية. لكن جولاته في الأردن وحدها كانت مبعث قلق للعرش فيما يبدو. وعندما زار الرئيس الإسرائيلي محمد عثمان عمان قبل أشهر، عقيب تعيينه أول رئيس عربي لإسرائيل، حرص الزعيم على الالتقاء به في جلسة مغلقة تاركاً دائرة الضوء لجلالة الملك.

توج الملك الجديد رسمياً، وجرت الاحتفالات الرسمية والشعبية بحسب ما رسم الديوان الملكي. وقبل سحب قوات الحرس الملكي من مواقعها في العاصمة، صدر مرسوم ملكي بعزل الزعيم عن رئاسة الوزراء، جاء ذلك ضمن رسالة بعثها العاهل الجديد إلى الزعيم بعد نشر مضمونها، رسالة لا تخلو من التقريع.

وجاء رد الزعيم في رسالة بدأت بعبارة «نزولاً عند أمر جلالة الملك..»، وأحال الزعيم أمر الحكومة إلى مجلس النواب بحسب الدستور.

قد استغل الملك بنداً دستورياً يمنحه الحق في إقالة الحكومة دون إبداء الأسباب. واستغل الزعيم بنداً دستورياً يحيل فيه أمر الحكومة إلى مجلس النواب. فمنذ سنوات لم يقم الملك بتعيين رئيس وزراء بمعزل عن التركيبة الحزبية.

اكتفى الملك بمرسومه، وترك المجلس يعين مطلوب جوهر رئيساً للوزراء. كان بيد مطلوب أن يعيد تشكيل الحكومة لينال رضا الملك، ويشعره بأن عزله للزعيم أدى إلى تغيير جذري في المناصب الوزارية. غير أن غريزة المواجهة مع العرش استيقظت في أوساط اليسار، فأبقى مطلوب الحقائب الوزارية على حالها. ذهب مطلوب إلى القصر بالتشكيلة نفسها، مع فارق مهم: لم يتول الزعيم منصب نائب رئيس الوزراء مع الخارجية بدلاً من مطلوب. فالخارجية ستبرز من مواهب الزعيم ما كان خافياً. ألم يكن أثار زوبعة حب وتأييد عندما زار فرنسا تلك الزيارة اليتيمة قبل أشهر للحصول على صفقة الخلايا الشمسية الجديدة، كان بطاقيته وبلهجته الفرنسية المتقنة حديث الإعلام الفرنسي.

توارى الزعيم في وزارة الدفاع، وتسلم الخارجية عصام، وعصام أصبح أيضاً نائباً لرئيس الوزراء.

علمت بالتشكيلة قبل أن يذهب بها مطلوب إلى القصر. كنت عند باباتي في بيته، وترفق في إبلاغي بالتغيير. وقرأ وجهي عندما قال: عصام نائباً لرئيس الوزراء. كظمت غيظي ما استطعت وانصرفت سريعاً. توجهت إلى بيتي وأنا أتميز غضباً. بقيت في التعليم، بقيت عبد مشاريعي الصغيرة التي لم ير معظمها النور أصلاً لعدم توفر الميزانية، وصعد عصام.

لم أصعد كعادتي إلى بيت أمي، ولبثت في التسوية. وقفت أمام مرآة الحمام ذاهلاً أنظر في وجهي، في أنفي المتعرج، في عينيَّ اللتين أرى فيهما الضعف.. تشعَّان وجلاً. أنا لست جديراً، لست مصنوعاً من مادة تصلح للمنصب الكبير. هذا الفم بشفتيه الرقيقتين ليس فم قائد، هذه الذقن، رغم بروزها الذي كان يعجبني، ليست ذقن رجل المهمات الصعبة. هذا الوجه النحيل ليس وجه عصام المكتنز. يبدو أن الوجه المكتنز، كوجه الزعيم مثلاً، هو الوجه الجدير بأن يصعد بصاحبه. وجه يوحي بالثقة. كنت أرى اربداد وجهي، وأحس في جسمي بهبوط. أنا مجرد مشروع اقتصادي نجح قليلاً ووقع بعد ذلك في قبضة الدائنين، أنا حفنة أفكار تعليمية تشع ببعض البريق ثم تطفئها السنين. هل كُتب علي أن أكون صبي باباتي إلى الأبد؟ لكنني غير جدير، ولا بد لي من راعٍ يرعاني. عصام هو المستقبل، عصام هو السياسي، وسأظل أحرث في وزارة التعليم الفقيرة.

لم أفكر لحظة في الزعيم والتغير الكبير على موقعه. فكرت فقط في هذا الممتلئ بنفسه: عصام. هذا القادم من جامعة اليرموك – لا من «الميت» في بوسطن – لكي يحكم بأفق ضيق. هو المستقبل. لا أدري كيف التقطه الزعيم من بين طلبة اليرموك في إربد بالشمال لكي يكون الخليفة وليصبح أعلى أبناء حزبنا منصباً. لا بد أنه لم يحصل في مدرسته على الدرجة التي تؤهله للجامعة الأردنية في عمان، ولم يسمح له فقره بدخول جامعة خاصة، فارتحل شمالاً إلى اليرموك، وهكذا يخلق له قصوره المصادفة فيلتقي بالزعيم، بالزعتري ابن الشمال. وأنا؟ أنا من اقتلع نفسه من العمل الحر لكي يضع روحه في قبضة السياسة. قبل سنة كنت في بيت «مطلوب» أتمنى ألا أترك وزارة التعليم، والآن أصبحت أتجنب مجرد التفكير في يوم الغد عندما سأذهب إلى الوزارة الفقيرة العفنة مرتدياً قناع اللامبالاة.

انتابني النعاس وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة. أرسلت لأمي ألا تنتظرني على العشاء، ونمت بملابسي.

***

صحوت باكراً. قمت نشيطاً بعد نوم طويل، وسرعان ما تذكرت اجتماع اليوم لمكتب القرار في الحزب فعادت الغمامة السوداء تظللني، وتولاني الحزن. أنستني الغمامة السوداء خبراً مفرحاً هو الموافقة قبل أيام على القرض الألماني لإنشاء المعهد الزراعي. قرض متواضع، ولكن البلد بحاجة إلى هذا المعهد. وقد استطعت بجهد أن أنحي وزارة الزراعة عن المشاركة في المشروع.

لكنني رجل عملي. رجل همةٍ ونشاط وتجارة ومشاريع. فعلاً لست رجل سياسة. لا أستطيع أن أقضي وقتي وأنا أصارع «الغم» لكي أستخرج من بطنه مؤامرة تأتي بصعود، بل أختار القفز إلى «الهم» المقبل لكي أعالجه وأحقق من خلاله نجاحاً. أنا أراكم النجاحات أفقياً، وذلك الناشط، عصام، رغم تواضع قدراته، قادر على مراكمة القليل الذي عنده عمودياً. لست بالسياسي. فلأنصرف في هذه الساعة الصباحية الباكرة إلى «همي» المقبل، ناسياً «غمي» الذي مضى.

قضيت ساعة صباحية باكرة ماكرة أبحث عن معلومات عن الأراضي المتاحة والمناسبة. لكن المعلومة الحقيقية غير متاحة، لا بد من استخراجها من الصدور. وعندما أفاق الناس أجريت اتصالاتي، وبثثت عيوني. ثم مضيت إلى مقر الحزب.

أجلسني الزعيم في اجتماع مكتب القرار إلى جانبه، ناداني وأنا أدخل القاعة في مركز الحزب ووسع لي، وبكلمات قليلة وبصوت منخفض – منخفض حتى يرخي الجميع آذانهم – ذكرني بزيارتي له في سجنه: قلت لي وأنا سجين إنه جهد ضائع. والآن بلمستك السحرية يتحول حتى التعليم الجامعي رويداً رويداً، حتى لا يظل جهداً ضائعاً.

لم يضرني، إذ أنا جالس بجانب الزعيم، أن يكون عصام قد اتخذ له مكاناً إلى يمين باباتي مدير الجلسة ورئيس الحزب. قررنا أن يكون مؤتمر الحزب المقبل مناسبة لترسيخ السياسات. وعرض الزعيم إنجازات الحكومة التي لم تتم سنتين من عمرها بعد. وذكَرني مرة أخرى. وجرى نقاش بشأن المؤتمر المقبل للحزب تصدره باباتي الذي عرض مخاطر العدوى التي بدأت تنتشر في بلدان الجوار.. عدوى التكافل، فهذا سيسبب صداعاً لسياستنا الخارجية، والتفت إلى عصام.. وزير الخارجية الجديد. ويجب أن يتجنب مؤتمر الحزب التحول إلى منصة لقيام حركة تكافلية واسعة في المنطقة. وبالطبع كان باباتي يدرك أن مهمته في المؤتمر ستكون ثقيلة، فهو المكلف بتحريك الدمى، ولن يستغني عن جهود الزعيم لتوجيه أعمال المؤتمر بعيداً عن أمرين: الطعن في العرش، والتوسع إقليمياً.

بخلاف ذلك فمطلوب جوهر تبوأ رئاسة الحكومة قبل أسابيع من موعد التبديل، ولا ضير.

وجريت بعد انفضاض الاجتماع إلى وزارتي. وبانتشاء كبير بدأت أخطط للمعهد الزراعي. على الأقل لن يطلب مني الآن أن أشاور كثيراً، سألعب في ملعب أوسع.

جلست إلى ابتسام التي لاحظت انشراحي ببعض الاستغراب. فهي أديبة وكاتبة، وتعرف أن صعود عصام، الدمل الذي لا أستطيع أن أفجُره ولا أن أحكه، سيكدر وجهي. ناقشت معها فكرة الأرض. وبعد العصر كنت أبحث الأمر في إربد بالشمال مع سماسرة الأراضي.

مع التوقيع على القرض، كان موضوع الأرض شبه جاهز. بضمان ملتوٍ يتوسطه القرض اشترت وزارة التعليم آلاف الدونمات في إربد، نصفها عامر ونصفها غامر. واشترت أرضاً في الأغوار الشمالية. ثم انتظرنا بعض الوقت قبل الإعلان عن المعهد الزراعي، وأَجريتُ حركات في الميزانيات ما كنت لأجريها لو لم أكن مغامراً. وبدأ بناء المساكن للطلبة وللمعلمين، وارتفع سعر الأرض أضعافاً. وانتظرت انتظار المقامر، المقامر الذي دس مغناطيساً تحت منضدة الروليت، فقد كنت أجريت حسابات جيدة. وبدأنا نبيع قطع الأراضي لشركات التعمير، وبدأوا يبنون، وارتفع سعر الأرض أكثر، ومضينا نبيع حتى أغلقنا كل الثقوب التي فتحناها في الميزانيات. وضمنَّا رصيداً لتسديد القرض. كانت حركة لا يمكن لوزير آخر أن يجريها.

قهقه مطلوب للحركة، وقال عبارته المعروفة: والله، لستَ بقليل!

لست سمسار أراض، ولكنني أدركت أن المعهد الزراعي ضرورة، ورأى الزعيم هذه الضرورة، وكان فرحاً بي وبإنجازي، فالمعهد نفسه وأراضيه الواسعة سيكون مختبراً كبيراً، ومزارع وأَعطاناً للمواشي والدواجن، وسيمكن البلاد من الاكتفاء علمياً في الجانب الزراعي.

أسأل نفسي اليوم، بعد مرور كل تلك السنوات، كيف تأتَّى لي أن أفكر في مشاريع متناثرة، في وقت كنت فيه في قبضة دين شخصي كبير؟ ولا أحير جواباً. لا أستطيع اليوم أن أفعل أشياء كهذه.

عندما بدأ مشروع جرزال يربح انخفض اهتمامي بالسيراميك والزجاج، خصوصاً بعد أن تخلصت من ديوني، وحررت أراضي العائلة. تعثر الزجاج، ولكنني لم أقلق، فقد ظل عمرو ومدير التسويق يقطعان الصخر، وظلت الأرباح المحدودة تعِد باختراق. كانت العقبتان الكبريان عدم تمكن ثقافة العمل الجاد في النفوس، ونقص الخبرات. وهذا يستلزم وقتاً. وزعت أسهماً على العمال، وأسهماً أكثر على المهندسين، وأسهماً أكثر بكثير على عمرو ومدير التسويق. بهذا ينشطون جميعاً، وبهذا أجلس في بيتي وأنا مطمئن إلى أن هناك في المنطقة الصناعية من لا يقل اهتمامه بإنجاح المشروع عن اهتمامي.

مرت أشهر رائعة، كانت الأمور فيها تتجه الوجهة التي أريد. قدمت ورقة بشأن فلسفة التعليم المدرسي. وناقشها المؤتمر مناقشة إيجابية، ليس لأن مؤتمر الحزب، ومؤتمر أي حزب في الدنيا، له عقل.. بل لأن بوادر النجاح كانت قد نالت شعبية في أوساط الناس. وفزت بمقعد مريح في مكتب القرار. وانفض المؤتمر عن حزب متماسك يقوده زعيم ذو وهج، ويرأسه باباتي الذي لا خلاف عليه.

رسمت مشروع المعهد الزراعي بدقة، وبدأ يصل خبراء من ألمانيا وإسرائيل لتأهيل أبرز المهندسين الزراعيين عندنا. وكان المشروع يعوم على ميزانية مريحة، وبدأت تنشأ حوله مدينة. ما صنعته هو أنني استغللت موقعي، ومعرفتي بأن هناك مشروعاً كبيراً لكي أشتري الأرض رخيصة وأبيعها غالية، وقد يكون هذا أحفظ كثيرين ممن باعوا أراضيهم. غير أنني لم آخذ شيئاً لنفسي.

بعد نحو سنة، وكانت حكومة مطلوب قد دخلت سنتها الأخيرة، كان المشروع الزراعي حديث الناس. عندئذ تذكر ديوان المحاسبة أن يفتح الملفات، وأن يتعقب ما صنعته من تحايل مالي «شبه» قانوني. بالطبع كان وراء الأمر ساسة اليسار الذين رأوا أنه من المناسب الاستيلاء على الحمد دون تعب، واستغلوا احتجاجات سماسرة الأراضي المغيظين.

طلب مطلوب من باباتي استبدالي، فكانت استقالة سريعة. وتولى التعليم أحد أنصاري ضمن حزبنا، وبقيت ابتسام وكيلة وزارة وأمينة على الإنجازات. وبالطبع لم يسفر فحص ديوان المحاسبة عن فساد، ولكنني نلت «ملاحظة».

***

خرجت من التعليم وتنفست الصعداء. لكنني نلت لسعة أستحقها. لم أندم على تحايلي في سبيل المشروع الزراعي، كيف أندم وقد غدا بعد سُنيهات قلائل قاطرة تجر وراءها مزارع البلد، ومصدر إشعاع علمي نقل الزراعة في الأردن من حال إلى حال. لسعوني لأنني نجحت بسرعة، وربما لأنني لم أكن حريصاً على التشاور المنتظم بما يكفي، وبالتأكيد لأنني لا أملك مهارات الاتصال الكافية. ولأنني أساساً لم أكن سياسياً، بل رجل أعمال وقع في فخ السياسة بالصدفة.

في النتيجة أنني الآن رجل حر، ورجل أعمال حرة.

بدأت أجوب العالم، وأتعرف إلى مصانع الزجاج والسيراميك في ألمانيا وبريطانيا وأمريكا، وقد أزور مدرسة أو جامعة. اختمرت في ذهني فكرة كتاب عن المدارس يكون مفيداً للأردن وللبلدان العربية، لكنني كنت في حالة ترحال دائب. لم أستطع أن أبارك للزعيم بزواجه في فترة ترحالي هذه إلا برسالة. ولم أتصل بباباتي إلا للحفاظ على الود. لقد رُميت في الصحراء السياسية، وكنت راضياً بهذا.

ومع نهوض «جرزال» وتوسع «كفتة» كان بمقدوري أن أمول الحزب لحملة انتخابية قريبة. كان الزعيم يتابعني ويحرص على ألَّا أبتعد كثيراً. لكنني ظللت أجوب العالم. لي عين ثالثة لا يراها أحد، لكنها ترى من أين ينبع المال. عين ترى الأرباح قبل أن تكون أرباحاً. عندما كنت طفلاً كان يأتيني دائماً منام أراني فيه في حديقة بيتنا أجمع قطع النقود بين الشجيرات قروشاً وريالات ودنانير، وكلما ملأت جيوبي نظرت فرأيت مزيداً منها كأنها لا تريد أن تنضب. وأنا الآن أجوب العالم وأعقد الصفقات.

ها أنا الآن في رحلة طويلة: أفتتح فرعاً لكفتة في ميلانو صباحاً، وألتقي بوكيل شركة جرزال في روما مساء، ومع حلول الليل تحط بي الطائرة في برلين لزيارة مختبر «التعتيق» ولعقد صفقة جديدة. ثم.. إلى الرياض بعد يومين، ثم جدة فالقاهرة. ثم بعد ذلك.. عمان.

عندما وصلت إلى مطار عمان، بعد هذه السفرة ضمن أسفاري الكثيرة، وركبت سيارة لم ينتظر الزعيم وصولي إلى بيتي، فجاءني منه اتصال. كان قد أوصى سلطة المطار بالتبليغ عن وصولي. واتَّعدنا على اللقاء الجمعة لأنه ذاهب إلى الكرك، ويريدني معه في الكرك بالذات.

صعدت من الدور الأرضي حيث الحراسات نحو شقة الزعيم، فاستقبلتني زوجته الشابة. فوجئت بالترحيب الحار والود. وتناديني بالأستاذ أحمد، شيء مريح بعد أن صدعني الناس بمعالي الوزير حتى بعد أن تركت الوزارة. وتملأ وجهها ابتسامة عريضة ترحيباً بي، لا غرو فقد نلت قسطاً من الشهرة على مدى السنوات الماضية. ليس بسبب المنصب السياسي، ولا بسبب جرزال الذي بدأ يؤتي أكله، بل بسبب كفتة.

مشكلة المشهور أن استمتاعه بالشهرة يظل ينخفض مع ازديادها. ثم لا يعود يشعر بمتعتها، وقد يراها عبئاً.. بالضبط مثلما صرت أراها بعد الاستقالة من وزارة التعليم. ولكن لا بأس بأن ترحب بك سيدة فاتنة لأنك وجه معروف في البلد.

دعتني زوجة الزعيم إلى الجلوس بصوت فيه زقزقة فرح وعبث، وجلست هي ووضعت رجلاً على رجل، ليس كما تضع المرأة بل كما تضع البنت النحيلة. وجهها مكتنز كوجه زوجها، وشعرها الكستنائي مقصوص قصة تجبره على الثبات ليكتنف وجهها الوضاء. صاح الزعيم من الداخل: أنا قادم. وقالت لي بزقزقة: «يتوضأ». ونظرت نحو الداخل بطرف عينها، فتجلى أمام ناظري بياض عينيها مفصحاً عن سعتهما، ثم عادت بحدقتها سريعاً إلي، ثم قامت ودخلت.

كأنما كانت في الداخل تصلح له ياقة قميصه، أو ربما تعدل طاقيته على رأسه، لا أدري، ولكنه كأنما أبعد يدها عنه فأنَّبته بكلمة زقزقتها ومدتها: انتظر..

وخرج الزعيم بهيئته المعروفة، ووراءه زوجته الجميلة. وجلسنا نشرب القهوة. واستفسر عن فطوري، فرحلتنا طويلة وغداؤنا متأخر. فطمأنته إلى أنني أفطرت.

جلست معه بعد أن دخلت زوجته لبعض شأنها. وراجع معي سيرتي السياسية، و.. كأنني دخلت الحزب من جديد. قال:

– أسفار متعاقبة!

– قبل أسبوع كنت في معمل بألمانيا أراجع نتائج فحص التعتيق على مراحيضنا ومغاسلنا. نريد التأكد من أنه بعد عشرة أعوام لن تشيخ منتجاتنا فيبدو واضحاً أنها دون المستوى العالمي. والنتيجة طيبة.

– كيف نمنع رؤوس الأموال من أن تفر من البلد؟

– الضرائب المعقولة، والاستقرار السياسي، وعدم الفساد. الصناعي الذي يضطر إلى إضاعة وقته وماله في محاسنة المسؤولين ورشوتهم يشعر أنه يستنفد طاقته الخلاقة، فيفر إلى حيث الأشياء واضحة.

– وكيف نحن الآن؟

– بحال متوسطة.

– نريد تحقيق أغلبية. هذا سيعزز الاستقرار، وكبح الفساد، ويُحكِم الضبط الضريبي. كيف نجتذب الاستثمارات؟

– بوجود خبرات هنا. لن يفتح أحد مصنعاً أو مزرعة ليجد أن عليه استيراد خبرات مكلفة من الخارج.

– تريد تولي وزارة التعليم العالي.. مع التعليم؟

– نحقق الأغلبية أولاً.

– فرصتنا قوية.

وكأنما قرأ الزعيم أفكاري فأضاف:

– وأنت في قائمتنا ثالثاً..

ربما كان أداء عصام المتواضع في الخارجية هو ما جعل الزعيم يرفعني عنه في المرتبة، وربما أن أسفاري الكثيرة أقلقته. وكل ممنوع مرغوب. غيرت مجرى الحديث:

– التعليم بحاجة إلى المال، لا أقصد التعليم الجامعي..

– الدولة الآن أقدر على تحسين ميزانية التعليم، السياحة ناهضة، والسياحة العلاجية مزدهرة، والزراعة نهضت وستنهض أكثر. والصناعيون في الاتحادية، وبالطبع أنتم أيضاً، يرفدون الخزينة بشكل طيب بالضرائب. وحتى توليد الكهرباء فهو في صعود.

– اليسار سيلعب في الحملة المقبلة بأوراق الاقتصاد، فهو من تولى وزارة الاقتصاد.

– وسنلعب بها، والشعب ليس غبياً.

وتهيأ الزعيم فقمت، فقام.

انطلقت بنا السيارة الكبيرة في شوارع خالية، حتى إذا وصلنا إلى مادبا توقفت سيارتنا أمام مسجد مصعب بن عمير في مخيم مادبا، ووثب الزعيم، ومن خلفنا خرج رجلان من سيارة لم أنتبه إلى أنها كانت ترافقنا. ورافقا الزعيم حتى أدى صلاة الجمعة. وأكملنا السير جنوباً. قال الزعيم:

– لدينا الآن سبعون مدرسة نموذجية في البلد. في الكرك وحدها عشر تقريباً.

همهمت بتواضع. فأنا أتابع تجربتي، وأتابع ما جرى عليها من تعديلات. كانت زيارتنا جزءاً خفياً من الحملة الانتخابية المرتقبة. ولولا أن الزعيم يذرع البلاد طولاً وعرضاً في كل أسبوع لتعالت الأصوات بأن هذه الزيارة ضربة تحت الحزام.. تتم قبل الإعلان رسمياً عن بدء الحملة الانتخابية.

لا مهرب لحزبنا من الخريطة السكانية المعقدة في الأردن، أنا مقبول لأرادنة الشمال الفلاحي والجنوب البدوي لأنني من السلط، فلا أهل الشمال يطيقون العشائر، ولا أهل الجنوب يطيقون أهل الشمال. وعصام رجل الفلاسطة (هكذا كان الأرادنة يدعون الفلسطينيين)، وباباتي محبوب لدى محدثي التجنس من سوريين وعراقيين، يرون فيه نموذجاً لقبول البلد بهم مواطنين مكتملي المواطنة، وينال بين الحين والحين لسعات من جماعة الحق لأنه شيعي، لا يردعهم عن انتقاده أن صاحبي الكهل معروف بغرامياته الهادئة. فهو قد ظل بلا زواج بعد وفاة زوجته. ولا أدري إن كانت ابنته قد تزوجت فخلا له الميدان، أو أنه اتخذ شقة أخرى. كنت بعيداً عن باباتي زمناً، وكانت لقاءاتنا تتم في الغالب في مقر الحزب أخطفها خطفاً بين سفر وسفر، ولكن المواقع لم ترحمه، ورأينا صوراً له بصحبة أكثر من امرأة. باباتي رجل وسيم، ولا يمنحه فمه الواسع سوى هيئة الرجل الودود، ويطيل شعره الذي أسرع إليه الشيب، ويعرف كيف يحرك رأسه كي تهتز غرته. لا أنسى، حتى وأنا في صحبة الزعيم أن أفكر بباباتي، هو ليس فقط أبي في السياسة، هو عقل كبير. والزعيم ابن الزعاترة، ليس من قرويي الشمال بل من جماعة فيهم بداوة حورانية، وهو

يتكلم بلهجة يراها ابن الجنوب لهجته ويراها ابن الشمال لهجته. هو الزعيم، وهو الذي صنع ما ظل الأردن يتمنى أن يصنع منذ مئة سنة وتزيد.

صنع الزعيم من أهل الأردن المختلفي المنابت شعباً. نزع عن المخابرات بادئاً صفة الإقليمية، فأصبح فيها ناس من كل لون، وفيها ولاء له وللأردن لم تعد تشوبه نزعة إقليمية ضيقة، وخلال توليه وزارة الدفاع لسنتين حتى الآن استعمل كل وسيلة ليجعل الجيش مختلطاً. حتى لقد بدأ بعض الإقليميين ضيقي الأفق يقولون إن الجيش أصبح فلسطينياً، بينما حافظ الحرس الملكي على أردنيته الصافية. الحق أن الحرس الملكي حافظ على بداوته، ولكن الجيش بدأ يسير على خطى المخابرات بوتقةً تجمع عناصر الشعب.

لسنا في حزب التكافل الوحيدين في تثبيت مفهوم المواطنة، فالحق واليسار كلاهما حريصان عليها قولاً وعملاً. لكننا نطبق أفكارنا على الأرض بشكل أفضل، يقودنا في ذلك زعيم ليس عند أي منهما مثله.

أكلنا المنسف الكركي. ولقيت في الكرك حفاوة لم أتوقعها إذ أنا بصحبة شمس الزعيم الباهرة. وشهد الزعيم تسليم أحد مشايخ العشائر شاباً قتل ابنة عمه حفاظاً على ما يدعى «شرف العشيرة» إلى الشرطة. وكانت هذه خاتمة قضية طويلة، حمت فيها العشيرة الشاب، واشترط شيخها – بعد أن تبين له أن يد القانون لن تترك المجرم يفلت حتى لو تسلل خارجاً من البلاد – حضور الزعيم لتسليمه. ولم يعِد الزعيم بشيء غير أنه قال: نحن سعيدون بأن حكم الإعدام ليس موجوداً في بلدنا.

كنت سعيداً بالصور التي نشرت وأنا فيها بمعية الزعيم. وحان أن أطير في سفر أخير قبل أن يعلن عن موعد الانتخابات. وقبل أن أطير ببضعة أيام وجدتني في سريري أحملق إلى السقف، وأستحضر وجه زوجة الزعيم الشابة. ما أشد ما شغلتني الشواغل، وقد دخلت في الثلاثين. ولست ممن يصلح للعشق ولا للعلاقات الطيارة، ذاك باباتي. وخطر ببالي خاطر.

***

راسلت باباتي وغشيت مخدعه العتيق مساء. زيارة واجبة بعد أن عرف بالطبع بزيارتنا للكرك. فتح لي الباب بنفسه، وعاد مسرعاً إلى كنبته يوقف الفلم الذي يشاهده. كان وجهه يتألق

بقهقهة دفينة. أشار إلى الفلم قبل أن يوقفه: حلقة من مسلسل كوميدي إنجليزي عتيق فيه ضحك هستيري ورقاعة وملاسنات سخيفة. وأضاف:

– لا ينجو المرء من أسر مستعمريه. هذا شيء كنت شاهدت منه حلقات أيام الصبا قبل زوال الاحتلال الأمريكي والبريطاني، كانت تبثه محطة عراقية، ربما كانت تنقله عن اليوتيوب. يضحكني في هؤلاء الإنجليز أنهم يحسنون أن يَضحكوا على أنفسهم. ويشدني إليهم تاريخ طويل من استعمارهم بلادنا. كانوا لعقود كثيرة العنصر السيد هنا، كانوا المحتل. والمرء يتعلق بسيده، وهذا من طباع البشر التي يشبهون فيها الكلاب.

سمعت حركة في الداخل. قال باباتي:

– هذه عبير.. هل سبق أن التقيتها؟

كنت قد نسيت اسم ابنته. ثم خرجت عبير. سيدة في أواخر الثلاثين. أها! بل هي الحبيبة المتربعة على قلب باباتي هذه الأيام! وتعارفنا، وأطلقت نكتة سخيفة عن الكفتة، وقبَّلتْ شيخي الجليل على خده، وانصرفت. وخفق قلبي، فهل أسأل باباتي عن ابنته؟ قد يكون هذا تجاوزاً من جانبي، فأنا لم أرها منذ حين، ولعلها لا تعجبني. بدأته بالحديث عن زيارة الكرك. وحمت حومة على التحضيرات للحملة. وظل ذهني مشغولاً: لعل ابنة العاشق عاشقة مثله، ولعلها انسربت مع عشيق. فلماذا الإحراج! وهو لم يذكر شيئاً، فلعله آثر أن يُبقي هذا الجانب من حياته الشخصية طي الكتمان.

انصرفت وبي حمى زواج. لست – بأنفي المتعرج – صاحب عشق. أريد زوجة وحسب. ثم إنني سأقعد عن أسفاري بعد حين. أقعدني الزعيم عن السفر، إذ أقعدني في المقعد الثالث على قائمة الحزب.

لم تفتح أمي على العشاء موضوع الزواج. قالت فقط: حتام هذه الأسفار؟ نريد أن نراك قليلاً. ففتحت أنا الموضوع. سكتتْ. هي باختصار تريدني أن أتزوج زواجاً يرفعنا أكثر إلى فوق. وباختصار أكثر، تريدني أن لا أتذكر أن نداء ابنة خالي تخرجت منذ سنتين أو ثلاث. قلت لها: هاتي افتحي وأريني الصور العائلية التي فاتتني في المدة الأخيرة، فاربد وجهها.

– دعيني أرى، لحظة.. أها.

قامت وتركتني أشاهد براحتي، وليكن ما يكون. كل ما كنت أبحث عنه ألا يكون في نداء أي شبه من أخيها هيثم. فأما في الشخصية فهي تشبهه في أنها فارغة البال ضحوك السن، وهي أحدُّ ذهناً وأقل بساطة. وليس هذا مما يشغلني. أريدها ألا تشبهه في وجهها. ليس أنه دميم، فهو على قدر من الوسامة. لكنني لا أحب لامرأة أن تكون لها نسخة ذكرية. كبَّرت صورة لوجه نداء. وابتسمت لها فردت ابتسامتي. ورأتني أمي بطرف عينها مستغرقاً أتبسَّم.. هذا بالمناسبة قطعة من البله الموروث في الشق النسائي من عائلتي. أخذ منه هيثم ابن خالي كثيراً، وأخذت أخته نداء أقل، وأخذت أنا نصيبي. ولكن أمي بتطلعاتها الطبقية تخفي نصيبها من البله بقدرة عجيبة.

جلست أمي وهي تسحب أنفاسها بصعوبة.

تمت الخطوبة في يومين. وسافرت. ما كنت أمانع في أن نتم كل شيء وأذهب بعروسي في شهر عسل. ولكن، ماذا سيقول أهل السلط عنا؟ سافرت وحدي.

***

لو كنت أعرف تفاصيل ما يحدث وراء كواليس السياسة لذكرت منها ما قد يكون أمتع من تفاصيل حياتي الشخصية. لكنني وعدت نفسي ألا أسرد إلا ما خبرته بنفسي. كنت قليل الحيلة في دهاليز السياسة، وكان في حزبنا من يسد هذه الثغرة. وكان في الطبقة السياسية في الأردن من المنغمسين فيما وراء الكواليس ما يكفي عشر دول. لعل في بعدي عن هذه الدهاليز ما يميزني إيجابياً.

عدت من سفرتي الأخيرة مرتاحاً لما تصنعه فروعنا، ولحسن سير استثماراتي الخارجية القليلة. عدت وأنا أُمنِّي النفس بالاستقرار. أحبني الناس أكثر لأنني سأتزوج ابنة خالي الفقير، ابنة جبل الحسين.

كنت خشيت أن يسيطر وجه حماتي الجميل الوضاء عليَّ كلما رأيت نداء. غير أن السنين أضافت إلى وجه حماتي خطوطاً خفيفة تشع من جانبي العينين مع كل ضحكة، وكان بعض ترهل يجور على قوامها الفارع، فزال الخطر. كانت نداء بقجة فرح حلوة.

قالت لي أمي، وهي ترتدي ثوب الشهيد: تريدون أن تسكنوا فوق، ليكن. أنا أنزل للتسوية. وأشاحت. وقلت لها ما يجب أن يقال: البيت الكبير للسيدة الكبيرة يا أمي. والتسوية تكفينا.

لم أسمع عن أم تبتئس بزواج ابنها مثل أمي. ربما فقط في رواية روسية.

لا أصف أمي للقارئ لا شكلاً ولا شخصية. هي أمي. هي التي ربتني بعد وفاة أبي، وهي التي أرسلتني إلى أمريكا. وهي أعز علي من الدنيا كلها. وعلي أن أصبر على إشعاعات الكراهية تجاه زوجتي الجديدة.. ابنة أخيها.

أعدَّت نداء ذات يوم مسخناً، وقلنا لأمي إن الغداء عندنا اليوم. نزلت أمي، وما إن رأت المسخن حتى أشاحت بوجهها قائلة إن معدتها غير طبيعية اليوم، ولن تطيق أكل شي فيه زيت. ولن تأكل قطعة دجاج ولا أي شيء، وصعدت لتأكل خبزاً جافاً تداوي به الحموضة في معدتها. ولم آكل مع نداء سوى أقل القليل.

وعندما صعدت لأطمئن على صحة أمي قبل المغرب، فحت في وجهي فحيحاً: متى سيخرج السماق من حياتي؟ لا أريد أن أرى المسخن مجرد رؤية. اذهب إلى عروسك ودعني ودع معدتي.

احتضنت أمي وجالستها سويعة. وقلت بلامبالاة:

– يقولون إن الشقق الجديدة في الجانب الآخر من عبدون جميلة ومطلة. والأسعار جيدة. المرء يفكر في شقة واسعة. كما تعلمين.. التسوية قد لا تكون شَرِحَةً بما يكفي.

أمسكت أمي بريموت التلفزيون، وعبثت به قليلاً. تكسب وقتاً للتفكير، ثم بهدوء:

– جيد. تفكير منطقي.

حبيب قلبها زوج ابنتها الثرثار. وأنا الولد العاق. ولولا حكمة أختي منال، لكانت أمي قطعت مرحلة في الإعراب عن كرهها لي. هذا قدري. وأخذت شقة، وأصبحت أطلب من منال أن تصحبني كلما زرت أمي. نصنع ذلك أحياناً بما يوحي بالمصادفة. وزوجتي نداء لا ترى أمي ولا تقول كلمة في هذا الأمر.

عندما أعلن عن بدء الحملة الانتخابية كان لا بد من زيارة لمخدع باباتي.

كان اسمي في الموضع الثالث على القائمة بعد الزعيم وباباتي. وكان قد حان لي أن أغسل يدي من دبق المشكلات العائلية، وأنغمس في العمل العام. ولا أدري إن كنت سأبوح بما يؤكد وجود

عِرق بلاهة في شخصيتي، لكنني قد أبوح بحادثة خجلت منها زمناً. وقد لا أبوح. لا أدري.

***

وجدت باب بيت باباتي مواراباً بانتظار قدومي فدفعته ودخلت.

أول ما يجبهك إذ تدخل مخدع باباتي رف الكتب المزدوج. وإلى يمينك وأنت تدخل الكنبة العتيقة الطويلة، يجلس عليها باباتي قريباً من باب الشقة، ويجلس الضيف العزيز بجانبه، أو يجلس الضيف على كرسي، أو على الكنبة الصغيرة التي يسقط فيها المرء سقوطاً، وأما القيام فيحتاج إلى إعمال القدمين حفراً تحت الكنبة، واليدين رفعاً للجسم.

دفعت الباب ودخلت، ثم فجأة رجعت خطوة، وقرعت الباب. فعلى يد الكنبة القديمة تجلس امرأة. رأيت ظهرها فقط، وليست عبير صديقة باباتي. فهذه نحيلة. رأيتها تتكئ على كتف باباتي. جاءني صوته:

– أحمد! تفضل.

دخلت، واعتراني حرج ودهشة لما رأيت، فسلمت تمتمة، وصافحت، والتمست طريقي بصعوبة وتعثر إلى مكاني المألوف إلى يمين باباتي. جلست أحاول استرباط جأشي. فالسيدة التي تتكئ إلى كتف باباتي عادت إلى جلستها على يد الكنبة.. وما زالت تتكئ. و.. هي زوجة الزعيم. كدت أرى صدرها يحتك بجانب ظهره، بل قد رأيت. لقد لاقتني بمثل ما لاقتني به المرة الماضية، بوجه يمتلئ بشراً، وبود لا أكاد ألقاه من امرأة غيرها. لكن الموقف جعلني اضطرب. قلت أحدث نفسي: «لا يا زوجة الزعيم! صحيح أن باباتي أبو الحزب، وأنه كبيرنا سناً. لكنه رجل، وهو صاحب غراميات. ما هذه الفجاجة؟».

حركت زوجة الزعيم إصبعها على قذال باباتي، ولمست شعره وهي تقول بزقزقتها وضحكتها الآسرة: تحتاج إلى حلاقة.

قال لها وهو ينفض رأسه: بس بس باباتي.

وانفجرت أنا بقهقهة لم أسيطر عليها. ضحكتُ على عائلتنا، وعلى نفسي وعلى حماقتي.

حملق فيَّ باباتي. وهي طوقته بيدها ومالت بوجهها نحوي وقد بدأت ابتسامتها تتحول إلى ضحك فيه زقزقة كثيرة. قال باباتي: أحمد! خير.

لم أجب. كانت الهستيريا مستمرة. فقالت وسط ضحكها الذي تصاعد بالعدوى:

– ماذا؟ أستاذ أحمد.

ومطت كلامها وهي تضحك. وضحك باباتي ضحكات عدوى. وسكتنا فجأة ونحن نمسح دموعنا.

قلت: ما كنت أعرف. أبداً. ولا خطر ببالي. قال باباتي، وقد فهم:

– أحمد! كل البلد تعرف. بربك ما عرفت أن هذه أسماء؟

– صدِّق يا أستاذي ما كنت أعرف حتى اسمها. هل تسمي هذا الخجل أم..

– إي طبعاً، شرود الذهن.. هيثم ماذا يكون لك!

وضحك باباتي، ضحكة اعتذار لتجرؤه علي، وتشبيهه إياي بابن خالي. وأخذت أسماء تقهقه، فسوف تحمل إلى زوجها قصة جميلة بعد ساعات.

بل بعد نصف ساعة. فقد جاء الزعيم. تماماً كما يجيء الرجل إلى بيت حميه لكي يأخذ زوجته التي تزور أهلها.

كان الزعيم من الحكمة بحيث لم يسقط في الكنبة المنصوبة لتعساء الحظ. جلس على كرسي. وشاورت أسماء أباها بنظرة: نقول، أم لا نقول؟

وانفجر باباتي يضحك. وأخبر الزعيم فقال:

– يا أحمد! البلد كلها تعرف. أين تعيش أنت؟

– في الطائرة.

أخذ الزعيم زوجته بعد أن رتب موعداً مع باباتي في مقر الحزب، وانصرف.

كان باباتي قد فاء إلى طبعه الهادئ. قلت:

– أنا أرى زوجة الزعيم ترحب بي ترحيباً شديداً، وبابتسامة بديعة. وأقول: هذا لدماثة فيها لا غير.

– لا، هي تتذكرك جيداً. لكنك لم ترها إلا وهي صغيرة، وسريعاً.

وتنهد باباتي. كان عليه أن يفصح عن القصة، فأن يزوج رئيس الحزب ابنته شبه القاصرة إلى رجل في الأربعين، وهذا الرجل هو زعيم حزبه، أمر يحتاج إلى بعض تأويل، خاصة وأن حزبنا ضد تزويج القاصرات، ولنا في هذا معارك خضناها في الجمعيات الأهلية والمؤسسات الحكومية.

– إليك قصة تعجبك يا وزير التعليم السابق. هذه البنت مخلوقة بهرمونات كره المدرسة. أبوها يعلم التلاميذ الرياضيات واللغات وكل شيء، وهي تجلس أمامي كي أدرسها وتخرج من الدرس كما دخلت. حتى لقد كدت أبحث لها عن مدرس خصوصي غيري. في السنة التي قبل التوجيهي كانت توقظني في الليل، وتجلس على طرف سريري وتقول: لا أريد المدرسة. ووعدتها ألا تدخل سنة التوجيهي أصلاً. كما قد رأيتها: تعرف تضحك، وتعرف تتحدث بلباقة، وتعرف متى يحتاج أبوها إلى حلاقة، فإذا ما رأت كتاباً اسودت الدنيا في عينيها. ثم إنها خرجت فعلاً من المدرسة. وذات يوم قالت لي ببساطة: زوجني من الزعتري. صعبة على الأب طبعاً. أليس كذلك؟ وفي زيارته المقبلة لنا، زوجت نفسها منه بنفسها. جلست بقربه وسألته: لماذا أنت غير متزوج؟ قال لها مداعباً: أنا خريج سجون يا عزيزتي! فشبكت ذراعها بذراعه، فقط. وأنا أنظر. لم أقل كلمة. خوش تربية.

قالها بلهجته العراقية وهو يضحك. وضحكت بسرور لأنني تأكدت أن باباتي ليس بالمتزلف. كنت ممتلئاً فرحاً بزوجتي البسَّامة، ولا أريد عنها بديلاً. ولكن كان يحرك مشاعري في أسماء شيء لعلي عرفته الآن: هو أنها تحب الحياة ولا تحب المدرسة. ولا أنا أحببت المدرسة في أي يوم من حياتي، ولا أنا أريد أن أحبِّب أبناءنا في المدارس نفسها التي لم أحبها. ما أجمل روح الإنسان بلا مدارس. لقد قرأت كتاب «إميل» عن تعليم بلا مدارس. وكتابي سيكون أحسن منه. لكن هذا مشروع مؤجل. الآن وقت العمل، أريد أن أكتب بالسيف لا بالقلم. أصبحت متحمساً للعودة إلى الوزارة.

نزعت نفسي من أفكاري، ومضيت أتحدث إلى باباتي في الشأن العام. ثم آن لي أن أنصرف وأهبط شارعاً على جبل الحسين كي آخذ زوجتي من زيارتها لبيت أهلها.

قصصت هذه القصة الطريفة هنا لأن باباتي والزعيم وأسماء كتموا عليَّ بلهي، وازدادوا لي مع ذلك حباً. كانت حادثة حلوة.. ستتبعها أحداث طيبة في هذا الخريف، خريف 2061.

8

أتخيل كبار الصناعيين – فورد وروكفلر لا أقل – وقد وضعوا مشاريعهم على سكة النجاح؛ ماذا يصنعون بعد ذلك؟ يتلهَّون بالأعمال الخيرية ينفقون فيها الملايين، ويتلهون بممارسة البخل في صغائر الأمور لأنهم عرفوا الحرمان صغاراً. وأنا؟ سأتلهَّى بالسياسة.

كنت أضيق بالجلوس في مقر الحزب فأنقل عملي إلى البيت فلا أنا متحمس لسماع تبريكات المنافقين، ولا لرؤية وجه عصام الذي يحاول بجهد كبير ألا يبدي الغيظ بعد أن نال الموضع الخامس بعد يسرى على القائمة. كان لا بد للمرأة من موقع متقدم. كانت مهمتي ضمن الحملة الانتخابية أن أصوغ الشعارات، وأن أشطب للمرشحين كباراً وصغاراً العبارات التي تؤذي الحزب في خطبهم، أما الزعيم فلم نعرف أنه خطب من ورقة قط.

راسلتني ابتسام الصقر. لقد مرَّ على آخر لقاء لنا سنة، ومنذئذ لا لقاء ولا خطاب. اتَّعدنا في مقر الحزب. واحتللت مكتب باباتي في غيابه. شق أنفها المستقيم المدبب جو غرفة باباتي، وملأت عيناها الجميلتان القويتان وفمها الصارم جو الغرفة. وجلست، وابتسامة خبث على محياها.

– تتزوجون الصغيرات وتنسون مبدأ الحزب.. أين معارضتنا للزواج المبكر؟

– أنا تزوجتها بعد تخرجها، وهي تعمل سكرتيرة في شركة. لم تجد عملاً غيره.

– أنت تعرف من أعني.

تبادلنا الابتسامات الخبيثة، وانتعش الجو بحيوية ابتسام. كنت بقرب الباب الموارب فدفعته دفعة فأغلق. قلت لها: هل تعرفين قصة زواج الزعيم؟

– زيجات كثيرة في اليسار تشبه هذه الزيجة. اسألني أنا عن اليسار وعائلات اليسار!

– لا. ليست هكذا..

وقصصت عليها القصة بتفاصيلها، وبضمنها الموقف الطريف الذي مررت به. ورقَّ الهواء فيما بيننا. لكن ابتسام كانت تحمل شكوى: كانت قد ترددت في قبول الترشح على موقع جيد على قائمتنا. ويبدو أن هذا ما أتى بها. ولم تنتظر أن أفاتحها:

– هل تتابع ما يجري في وزارتنا ومدارسنا؟ حتى في اللغة الإنجليزية، المدارس الخاصة بدأت تشعر أنها فقدت الميزة، فنحن أفضل في كل شيء. نحتاج ميزانية أكبر لكننا بما عندنا صنعنا شبه ثورة، والنتائج تأتي بطيئة مع تخرج جيل جديد. والآن يجب أن تبدأ معركة المناهج. وعلى ذكر المعارك فمعاركي في الوزارة ليس سهلة. الوزير يريدني أن أتصدى وأتلقى الصدمات، ويفضل أن تجري الأمور على ما هي عليه. ومستحيل أن نقف الآن، هذا يعني الرجوع. وبالطبع لا أستطيع مواجهة المعارك الداخلية. الوكيلة السابقة سوسة تنخر في جسم مبنى الوزارة، هي مخلوقة لا تستطيع أن تعيش بدون أحلاف.

لم أستطع أن أتبين ما تريده ابتسام. فعاجلتني بالخلاصة:

– إذا عدت أنت للوزارة سنمضي بعزم، وإلا فمن الخير لي أن أقبل بمقعد في المجلس. لا، في الواقع لا أرى نفسي في المجلس النيابي أبداً.

– ما أراه أننا سنحقق نتيجة طيبة. بالتأكيد سنكون أكبر حزب، وقد نتحالف مع المستقلين، أو اليسار مرة أخرى. لكن، لا أخفيك أن عودتي إلى التعليم أمر مطروح ومن أعلى مستوى.

نهضت ابتسام، وغمزتني بعينها غمزة أخوية:

– قل لباباتي يشطبني من القائمة. ثم إنه لا حاجة لي بالمقعد الخمسين على القائمة. لو نزلت الانتخابات عن حارتنا لكان احتمال الفوز أكبر.

مشكلة ابتسام أنها تكره السياسة. تكره السياسة على صعيد البلد، وتكره السياسة على صعيد الوزارة. لسانها يوفر لها من الأعداء ما لا قبل لها به. لكنها تحب العمل.

وقبل أن تنصرف أكدت لها أننا فريق واحد. هذا إن وافق حساب القرايا حساب السرايا. عانقتني، وفتحت الباب. لحقتها إلى الباب:

– ابتسام! قرأت مجموعتك القصصية الأخيرة. وعرفت نفسي.

لم تمكث لأرى وجهها يحمر. ضحكت وأعطتني ظهرها. كانت صورتي في قصتها صورة الطويل الخجول الذي يصعد كل ثلاث درجات دفعة واحدة، ويرمي نفسه إلى التهلكة، ولكن الحظ وطيبته يخدمانه، فيعمل بعد قضاء عشر سنوات في وزارة التعليم في تجارة الخردة. الأحداث لا تنطبق كثيراً، ولكنني نسخة البطل.

***

مضيت أفكر في شعاراتي. (تأمين الأسبرين فاشل. تأمين التكافل = التأمين الحقيقي). لا.. (تأمين حقيقي، لا تأمين أسبرين.. التكافل) لا.. طويل هكذا. (التكافل = تأمين حقيقي) وفوقها وبخط عريض مشطوب بعلامة إكس «تأمين الأسبرين».

لم نقدم من خلال وزير صحتنا العتيد في هذه الحكومة سوى تأمين الكشفيات. وكان يمكن لحزب اليسار أن يقتنص عبارة «تأمين الأسبرين» لمهاجمتنا. فلنسبقه. كانت الميزانية لا تسمح بدفع فواتير المستشفيات، وظل التأمين الصحي عبارة عن تشغيل جيش من الأطباء في عيادات الأحياء والقرى والبوادي في استقبال العجائز الشاكيات من الزكام، واللائي يردن قتل بعض الوقت في غرف الانتظار وقتل مزيد من الوقت في الشكوى من الغلاء ومن الزمن ومن الزكام للطبيب الشاب. كان التأمين الصحي «الشامل!» مجرد حبة الأسبرين.

وكانت خطتنا الحقيقية – الخفية – للتأمين هي جعل أولئك العجائز يدفعن قيمة الكشفية بالكامل للعيادة. فإذا ما جاءت الجلطة فالمستشفى بالمجان. وليبلع مريض السكري والضغط حبته وهو ساكت، وليدفع ثمنها. لقد أبهظنا الميزانية بما أقررناه بمساعدة اليسار من «ضمان الشيخوخة» فرغم قلة المبلغ الذي يناله الرجال والنساء على السواء، فهو يكفي لدفع الكشفية وثمن الدواء.. والرغيف. باختصار.. الذي يريد أن يكثر من زيارة الطبيب عليه أن يدفع. نحن لسنا بريطانيا.

سيكرهوننا قليلاً، وسيحبوننا على المدى البعيد، سيحبنا العامل البسيط عندما يرى أنه لن يضطر إلى الاقتراض وبذل ماء وجهه للأقارب من أجل معالجة جلطة أمه في المستشفى.

ولي في التعليم الجامعي خطط خفية. وفي البعثات، وفي كل وزارة، وخصوصاً الأشغال العامة والاقتصاد. لكن المهم الآن أن نسوّق أنفسنا للشعب وأن نفوز في الانتخابات. فهيا.. واكتب الشعارات يا رجل الأعمال العائد إلى السياسة.

**

مول حكام الشام حزب الحق، ومول القصر حزبه الملكي المتمثل في «المستقلين»، واستند اليسار إلى اشتراكات الأعضاء التقليدية وإلى الأغنياء من أنصاره، وتمولنا نحن من داخل البلد تمولاً شرعياً كان لي فيه نصيب. غير أن مرشحينا الكثر من أعيان الريف والعشائر والأطباء والمحامين والمهندسين وصغار الصناعيين والتجار ساهموا كلٌّ في دائرته لمن ترشح عن دائرة.

كان مرشحونا يجتمعون في لقاءات مسائية يومية في كل المدن ويخطب فيهم الزعيم وباباتي، ويناقشون. وكان الاجتماع يضم عشرة أو عشرين بحسب المدينة. فإذا خلا من أكاديمي متحذلق ينصب نفسه ناقداً لمسلمات الحزب ومتعالماً على زملائه كان النقاش ثرياً؛ في هذه الاجتماعات، غير الجماهيرية، كانت تصنع هوية الحزب، وكان يبرز من رجاله ونسائه من سيكون لهم شأن في البلد وداخل الحزب، ويمتلئون بروح الفريق الواحد. وتطلع شمس النهار وتعقد الاجتماعات الجماهيرية في كل مكان.

كنا في الاجتماعات المسائية نحرق المراحل، فحزبنا جديد وهو يسعى في ترسيخ الكوادر القيادية، وتكوين قاعدة حزبية متينة.

الأفكار التكافلية جميلة على الورق، استقلال القضاء ونزاهته، واحترام الدستور، والضمان الاجتماعي، وتكافؤ الفرص، والضبط الضريبي، وتنشيط الصناعة والتجارة. لكن.. أهلاً بك في الأردن. في البلد الذي ما زال الناس فيه يسألونك: أردني أم متجنس؟ وما زالوا ينبشون عن جذورك أمن الشمال أنت أم الجنوب، أفلسطيني قح أم مهجن؟ أهلاً بك في البلد الذي يطرد الفساد من الباب ليعود من النافذة مرتدياً عباءة العشيرة، أو سروال القرابة. كان الفاسد يصوت لنا لأنه يتمنى انقشاع فساد الآخرين الأفسد منه، وكان النزيه يصوت لنا، والفقير، والرأسمالي، وكثيرون من المتدينين الذين تعجبهم مبادئنا المدنية ويعجبهم أننا لا نتعرض للدين بسوء، والنساء لأننا ننتهج نهج التسوية بين المرأة والرجل بتدرج مريح. وكان كثيرون من هؤلاء يصوتون للأحزاب الأخرى أيضاً

للقرابات وللوعود الكبيرة بضرب الفساد، ولأن لباباتي صديقة، ولأسباب تشبه ما نستند إليه نحن، أو لا تشبهه. الانتخابات مهرجان، والغوغاء لا تحتاج إلى كراريس باباتي بل إلى الطبول والزينات.

لو كانت ابتسام رضيت البقاء على القائمة في الموقع الخمسين لفازت بمقعد، فقد حصدنا من المئة مقعد بالتمثيل النسبي واحداً وثمانين، وحصدنا من المئة بحسب الدوائر ستين. وأخذنا نرتجف ونتذكر حين فازت جبهة إسلامية في الجزائر بالانتخابات فتكالبت الدنيا عليها، ومُنعت من الحكم عبر حرب أهلية كلفت مئة ألف قتيل، وحين فازت حركة إسلامية فيما كان يعرف باسم السلطة الفلسطينية بأغلبية برلمانية فتكالبت عليها قوى الداخل والخارج لمنعها من الحكم فعُطل المجلس الذي كانوا يسمونه التشريعي، وسجن من أعضائه العدد الكافي لتعطيل النصاب أصلاً.

الزعيم وباباتي لم يرتجفا: الزعيم لأنه الزعيم، وباباتي لهدوء أعصابه. وتقبل باباتي رسالة تهنئة من جلالة الملك، ودعي الزعيم إلى القصر.

لم يسبق أن فاز حزب بسبعين بالمئة.

***

استقال رئيس مجلس إدارة «الاتحادية» من منصبه ليصبح وزير مالية غير حزبي. هذا رجل له مصلحة في أن يدفع كل دكان وكل مصنع ضريبته مثلما تدفع كبرى شركات البلد، «مجموعة الاتحادية»، ضرائبها. وعدت إلى التعليم، والتعليم العالي معه، ومعي عادت ابتسام، وتولى عصام الأشغال. وبقي باباتي رئيساً للحزب. واحتفظ الزعيم بالدفاع مع رئاسة الحكومة. وشكل الزعيم حكومته، بالطبع بالتشاور مع باباتي، وربما أيضاً مع نائب رئيس الوزراء.. ومن غيره؟ عصام. وكلفت حسناء جريس بالخارجية. سيدة في أواسط الأربعين مناصرة للتكافل، ولم تدخل المجلس النيابي. طويلة ورشيقة وجميلة، وتتقن الإنجليزية، وتتكلمها بلهجة عربية لا تحاول أن تخفيها. وفيها براءة سياسية، غير أنها تتقن أن لا تقول كل ما يخطر ببالها، وتحسن أن تسمع ثم لا تعلق. ولا تعرف شيئاً عن السياسة الخارجية، وهذا أهم مميزاتها. أكسبها العمل في رئاسة جمعية حقوق الإنسان الوطنية، وهي جمعية أهلية تحرم على نفسها تقاضي مال حكومي أو مال خارجي، صلابة في مواجهة المنحرفين.

هنأتها بكثير من الود قبيل خطاب العرش. قالت: أشعر بدوار، وأحتاج إلى فترة تجهيزية. وقلت لها: الذي جهزني باباتي، ونصيحتي لك أن تجلسي إليه جلسة طويلة. وبعد جلسة الثقة التي حضرتْها على مقاعد الوزراء، فهي ليست عضواً في المجلس، حددنا موعداً مع باباتي. وبعد السلام تركتها في مكتب باباتي وخرجت. وبعد أيام لقيتها، وتحادثنا. غاض نصف جمالها، وتهيأت وتهيبت. لكنها أخذت تستعد. ثمة سفراء بحاجة إلى تغيير، وثمة سفارات بحاجة إلى إغلاق، وعليها أن تتصل كثيراً وتسافر كثيراً، وأن تشتري مجموعة أطالس سياسية. أخرجت من حقيبتها وريقة عليها أسماء أطالس وكتب في الجغرافيا السياسية:

– ويجب عليَّ أن أفهم الصراع الدائر على القطب الجنوبي! تخيل! وعلاقتنا مع مصر تحتاج إلى عمر لفهمها، ومشكلاتنا مع الشام، ومع السعودية، وإسرائيل، والحواضر الفلسطينية، وغزة، والأنبار، ودولة الجبل. أنا ذاهبة لكي أقعد وأدرس. وشيء آخر، إذا رأيت انتهاكاً لحقوق الإنسان عندنا فأنا أناقش الزعيم.. فقط، وإذا رأيت انتهاكاً في دولة مجاورة فأنا.. أيضاً أناقش الزعيم. وممنوع أن أنتقد حكومتنا الرشيدة.. شيء كنت أصنع عكسه على مدى سبع سنوات.

سررت أنني وزير تعليم لا غير. ولتتعلم حسناء جريس درسها وحدها.

***

اتصل بي مدير المعهد الزراعي يدعوني لأكون ضيف الشرف في حفل توزيع الشهادات على الدفعة الأولى. فقبلت بالطبع. وتذكرت ذلك الاتصال الذي تلقيته من وزير الحكم المحلي قبل سنة، وكنت في ألمانيا. أبلغني أن إدارة المعهد تريد تسمية المدينة باسمي. ولم أتركه يتم كلامه:

– ستكون فضيحة. يكفيني أنني خسرت منصبي وشطر سمعتي بسبب هذا المشروع.

– أدرك ذلك. لكن الموقع الآن مدينة تؤوي عشرين ألفاً ويزيدون باطراد، والمعهد قلبُ المدينة. ولا بد للمدينة من اسم.

– سموها المعهد.

– المعهد بأل التعريف؟ ليس اسم مدينة!

– والسلط ليست مدينة؟ والكرك؟

– قولتك. سأقنعهم.

لا بد أن الوزير سر من موقفي آنذاك.

وها أنذا أُدعى لأكون ضيف شرف. لا بأس. يوم سبت. اتصلت بأمي، وأخبرتها أنني أريدها معي، وربما تحب منال أن تأتي، «لكن بالله عليك، قولي لها بطريقتك أن تأتي بدون زوجها فأنا لا أصطحب زوجتي. هذه مناسبة لنا نحن الثلاثة فقط»، ولا تسل عن سرور أمي.

ساعة بالسيارة في اتجاه إربد، ثم نأخذ الطريق العريض المزين بالأزهار والأشجار الفتية. وندخل تحت اللافتة «مدينة المعهد ترحب بكم». انحرفنا عن المعهد نفسه وخضنا في أراضيه الواسعة، ثم اصفرت الأرض من تحتنا، وقامت على جوانب الطريق البيوت والعمارات. وعدنا، وضللنا الطريق، وسألنا ووصلنا. مدينة نموذجية تتحول بسرعة إلى مدينة حقيقية يسكنها أهل المعهد، وناس من الناس يشتغلون في إربد، أو أغنياء بنوا لأنفسهم فيلات في المكان الجميل.

ترجلنا فإذا الناس ينتظرون وصولنا المتأخر. وتمتمنا بكلمات الاعتذار، واكتظت القاعة الكبرى. قعوداً ووقوفاً. وبعد الكلمة المملة لعريف الحفل، قال مدير المعهد كلمات قليلة، ختمها بتقديمي للحفل الكريم:

– هذا رجل خلق مشروعاً لم يعد عليه بقرش، وخسر فيه وظيفة وزارية، وتلقى قسطاً من التقريع الظالم. وأزيدكم أنه رفض طلبنا تسمية المدينة باسمه، ورجا وزير الحكم المحلي أن يكتم الأمر، وأنا لا أكتمه. فهل يتفضل بكلمة؟

بعد التصفيق الطويل وقوفاً قلت عبارات قليلة، وحييت وزير الزراعة، وكنت دعوته إلى الحفل ليشاركني في تقديم الشهادات. وأنهيت كلمتي بعبارات تعلمتها في السلط أيام أول حملاتي الانتخابية.. «حيا الله النشامى.. حيا الله السواعد.. حيا الله الخريجين.. حيا الله الأهالي..»، أقف بعد كل عبارة كي يهتف الناس «حيا الله». ونزلت وسط التصفيق.

امتزجت بالتصفيق زغرودة احترافية، خفت التصفيق ولم تخفت، وأعقبتها زغرودة أخرى كأنها ترد عليها. ثم بصوت يكسر الزجاج ويشقق الصخر بدأت سيدة أخرى ترتدي الثوب الريفي تهاهي.. «هيهي يا السلطي يا السلطي..»، وترنمت معها خمس سيدات أو ست في آخر القاعة، كن

يتشابكن بالأيدي ويتمايلن على لحن عمره ثلاثة آلاف سنة، وترتجل المرأة الأبيات باللحن الحزين، ويرددن وراءها. وتعلم الجمهور النمط وأخذ يردد اللازمة «يا السلطي.. يا السلطي». أمسكت أمي بذراعي والدموع تنهمر من عينيها، ونزعت منال نظارتها ومسحت عينيها، وترقرق الدمع في عيني. وتغير اللحن، وصعد. وأجهشت القاعة الكبرى. ووقف عريف الحفل مذهولاً وبيده ورقة ترتجف. إلى أن اضطررت أنا إلى الوقوف. واجهت القاعة رافعاً يدي بالتحية، ثم طالباً بحركة يدي أن يكف الناس. فسكتت القاعة إلا من شهقات أواخر الباكين.

وبالغناء ودعتنا أمهات الخريجين. وتلقيت التهنئات هاتفياً في طريق العودة إلى عمان، ثم طوال ساعات المساء، وتعشينا، أمي ومنال وزوجتي نداء، في شقتي، وكان لا بد من دعوة زوج منال الثرثار.

كل الأردن شاهد الحفل. وكل الأردن صارت لديه أغنية جديدة.

***

أعطاني وزير المالية ما طلبت. كان في لقائنا، الذي سبق طرح الموازنة العامة، يهز رأسه، ويقول: «خراب بيوت». كان مقتنعاً بأهمية التعليم المدرسي، لكنه يدرك أن المدارس لا تعود عليه بمحصول ضرائبي، هي شجرة تسقيها كل سنة، ولا تطعمك من ثمارها إلا بعد نصف جيل.

تفتحت لي أبواب كانت مغلقة. وحرصت على أن أستشير الزعيم أكثر، فالذي جاء لنا بسبعين بالمئة من مقاعد المجلس شخصية الزعيم وخطبه النارية، وامتلاؤه بقضيته، وليس الأغنية الشعبية الجميلة التي أعلقها في عنقي.. أو التي تلتف على عنقي كالأفعى.

كان جلالة الملك قد زاد في خطاب العرش، بعد أن اتفق مع الزعيم على نصه، كلمتين نالتا شهرة واسعة: «كما هو». بدأ خطاب العرش – بحسب التقليد الذي ورثناه عن بريطانيا – بعبارة فيها كلمة «حكومتي»، فنحن حكومة جلالة الملك، ثم مضى فأوصى المجلس بـ «الحفاظ على الدستور».. ثم أضاف الملك كلمتيه: «كما هو». وكنا بالطبع نريد تعديل الدستور بحيث لا يتمكن الملك من صرف رئيس الوزراء مثلما صرفه قبل سنتين.

لن يستطيع الملك صرف الزعيم بسهولة هذه المرة. غير أن باباتي كتب دستوراً جديداً، كتبه على ورق بخط يده، وقرأته وقارنته بالدستور الحالي، وقرأه الزعيم طبعاً وأخذه وخبأه في بيته.

وكانت الخطة أن ننتظر طلب المعارضة اليسارية (18%) إجراء تعديل دستوري بغرض إحراجنا.. فنحن كما تبين لهم ملكيون إلى درجة الخضوع. وكانوا يرددون عبارة «كما هو» ساخرين.. ويكتبون «انظروا إلى الحزب الذي لم يلتفت إلى ناخبيه وتنازل عن أبسط مطلب، وهو السير بالحكم في الأردن في اتجاه ملكية دستورية حقيقية».

وعندما طلبت المعارضة إجراء تعديل دستوري، شكل المجلس لجنة فوق – حزبية انضم إليها قاض من المحكمة الدستورية.

وبالتزامن ألقى الزعيم خطبة برلمانية طالب فيها بمطلب غريب. لم يذكر لجنة الدستور إلا عرضاً، راجياً لها أن توفق في عملها، ومضى فطالب بإعادة مجلس الأعيان. هذا المجلس الذي كان الملك السابق يعين كل أعضائه السبعين. ثم سمح لرئيس الوزراء «بتنسيب» نصف الأعضاء، ثم في الأزمة التي وقعت قبل تسع سنين ألغاه الملك لأن مجلس الأعيان لم يتمكن من كبح جماح مجلس النواب في خضم تلك الأزمة.

طالب الزعيم مجلس النواب بالتصويت لإدخال اقتراح إعادة مجلس الأعيان ضمن أشغال لجنة الدستور. وصوتنا طبعاً بالموافقة، وسط استنكار اليسار وترحيب المستقلين.

وبقي أن تصوغ لجنة الدستور دستوراً. ظن الملكيون أن حكاية إعادة مجلس الأعيان هي مجرد حيلة لتهدئة مخاوف الملك، ثم ترفض لجنة الدستور مجلس الأعيان، ثم يوافقها مجلس النواب على رفضها، ويبقى مجلس الأعيان في مقبرته.

لكن كان للزعيم منطق مختلف: نريد للملك أن يشارك في الحكم عبر رجالاته، ولا نمانع في استحداث مجلس نشعر معه أننا لسنا بلد الحزب الواحد، ثم لماذا لا ينال عدد من الوزراء المتميزين منبراً يسمعون من عليه صوت الحكمة التي اكتسبوها.

وتم للزعيم ما أراد وصوت المجلس المنتخب على مشروع مجلس الأعيان الجديد، ثم على نسخة معدلة تعديلاً طفيفاً من دستور باباتي. وعين الملك رجالاته، واختار لرئاسة مجلس الأعيان رجلاً ذا سوابق في الاختلاس، وفضائح شتى. والتمس الزعيم تغييره، وأصر الملك. وكأنما أوصى الملك رجاله بأن يحيلوا مجلس الأعيان إلى أداة تعويق يلحق عارها بالزعيم. وبدأت مشاريع القوانين تتعرض لتأجيل المدة القصوى بلا مبرر في الغالب. وصمت الزعيم.

يمكنني – بعد كل تلك السنوات – أن أعد للزعيم بعض السقطات، ولعل بدعة مجلس الأعيان كانت من أبرزها.

انصرف المجلسان إلى عطلة شتائية قصيرة، واستراح الجميع من مهزلة مجلس الأعيان مؤقتاً.

***

في الوزارة بحثنا كتب المناهج الجديدة طويلاً، ومضى الربيع وأتى الصيف. تأخرنا، وقررنا أن تبدأ السنة الدراسية في الخريف بلا كتب. لتكن تجربة. في الصيف انخرط معظم الطلبة في مخيمات كشفية وتعليمية، وجاء الكهول الأمريكيون ليعقدوا دوراتهم. وجاء متطوعون شباب من هولندا ومن بريطانيا وألمانيا.

وبعد شهر من بدء السنة الدراسية خرجت المناهج الجديدة كالسيل إلكترونياً، وبدأت تطبع على ورق للصفوف الابتدائية. ورافقها سيل جديد من القصص بالعربية وبالإنجليزية. كانت المناهج قصصاً، وكانت القصص قصصاً.

لقد اجتمعت حولي وحول ابتسام عصبة من التربويين من موظفي الوزارة والمتعاونين المتحمسين لا هم لها إلا أن يتحول كره التلميذ للمدرسة إلى شغف بها. بعد سنوات أربع صعبة كان وجه التعليم الحكومي قد تغير. كانت البذرة قد استقرت في الأرض، وأخرجت شطأها. وقعدنا نسقيها دموعاً وعرقاً.

فعلي قليل وفعل ابتسام كبير: هي القاصة، هي التي آمنت أن القصة هي الطريق. دول كثيرة سبقتنا إلى هذه الفكرة، ولكن الأفكار لا تستورد، لا بد من إنباتها من البذرة في إرضنا.

قبلنا كان في كل مدرسة فريق رياضي، والآن أصبح في كثير من المدارس فرقة تمثيل وفرقة موسيقية وزادت الفرق الرياضية ولم تقل. وأصبح لدى الطلبة يوم للنوادي: وبدأ عباقرة الرياضيات يظهرون، وظهرت كوكبة من الشعراء، ومن الرسامين. ولم يكن يندر أن ترى طالبة تقفز بين نادي الرياضيات، ونادي الرسم، ونادي الموسيقى في يومها الأسبوعي المخصص للنوادي. وخاضت النوادي المسابقات مع النوادي المشابهة في المدارس الأخرى. وأصبح الطلبة يساعدون المعلمين في التنسيق.. وأصبحوا ينظفون المدرسة.

يتعلمون كل العلوم والفنون باللغة العربية، ولا شيء غير اللغة العربية، بها يقرأون بغزارة، ويلتهمون المعرفة، وبها يخوضون تجاربهم، وهي لهم العماد. ويكتسبون الإنجليزية في صفوفهم وفي نواديهم ومن القصص الكثيرة التي تتحدث عن أمور قريبة إلى نفوسهم. لا، لم نلغ روبنسون كروزو ولا جاليفر، ولا قصة بائعة الكبريت لأندرسن، ولا قصة «أو هنري» الورقة الأخيرة. لكننا أضفنا قصصاً عربية كثيرة مروية بالإنجليزية. وكانت القصص التي بالعربية هي الأكثر.

***

كانت سنة دراسية رأيت فيها بعيني رأسي التعليم في بلدنا يقفز فوق خندق المياه الآسنة في اتجاه حقل أخضر. وجاء الصيف مثمراً بمخيماته الصيفية التي جعلناها تعليماً أحلى من التعليم وانطلاقاً وبهجة. وانقضى الصيف حميداً.

قبل خمسة أيام من ارتداء الشرطة الزي الشتوي جرى الاستعراض المعروف شعبياً بالغسلة الأخيرة. وفاجأ الحرس الملكي الجميع باستعراضات في كل المدن. وكلفت الشرطة بالمهمة الثقيلة المتمثلة في تنظيم حركة السير.

قبل أن يجري الاستعراض المركزي بحضور جلالة الملك طافت دبابات ومصفحات الحرس الملكي الشوارع، وصدحت في كل مكان موسيقى القرب الإسكتلندية يتقدمها حامل الصولجان. وتلونت عمان وكل مدينة باللون الأحمر، كانت أزياء الحرس الملكي تخطف الأبصار.

جلس في المنصة الملك بزيه العسكري المزركش بالنياشين وبجانبه الزعيم بطاقيته المعروفة، ورئيس مجلس الأعيان المشاغب. لقد قرر الملك أن يستعرض الحرس الملكي، كانت إرادة ملكية.

في هذه الأثناء كان الجيش العربي، الاسم الذي اتخذه جيشنا منذ أكثر من مئة سنة، يرابط على الحدود الشمالية مع الشام، ويقوم بمهمات حدودية شرطية، هذا إلى التدريبات القاسية. وكان الجيش العربي على مدى السنوات الثلاث منتشياً بروح جديدة بثها فيه وزير الدفاع.. الزعيم.

في أعقاب استعراض الحرس الملكي أبدى كبار ضباط الجيش للزعيم استياءهم من هذه الازدواجية المتصاعدة. وكان لا بد للزعيم من زيارات مكثفة للثكن، والمواقع الحدودية لتهدئة النفوس. وتعرض الزعيم في مكتب القرار للمساءلة.

– ما كان لي ان أتخلف عن دعوة جلالة الملك لحضور العرض العسكري للحرس الملكي. وأما أن العرض شرعي أم غير شرعي فهذه ليست مسألة دستورية.

– الجيش متذمر، والناس يتكلمون.

– صحيح.

كان باباتي يتصدر استجواب الزعيم:

– هل يمكن عملياً أن ينقلب الملك على الدستور الجديد؟

– أستبعد ذلك.

– هل يمكن أن يتحرك الجيش على نحو يزعزع استقرار البلد؟ هذا سيترك آثاراً عميقة على الاقتصاد وعلى كل شيء.

– لا. الجيش منضبط. ولكنني لا أزعم أن ثمة علاقة حب بينه وبين الحرس الملكي.

– كم تزيد مخصصات الملازم مثلاً في الحرس الملكي عن مخصصات الملازم في الجيش؟

– الأساسي واحد، وثمة امتيازات تصل إلى زيادة قدرها بين عشرة وعشرين بالمئة ومصدرها الاستثمارات الملكية في الصناعة والاتجار في الأراضي.

– هذا طبعاً غير الزي المتميز.

– ..

– ألا يمكن أن يناط بالحرس الملكي شيء حقيقي سوى الاستعراضات، وسوى المرابطة أمام القصور؟

– هذا كان ضمن أمور بحثتها مع ضباط الجيش. الأمر طبعا منوط بموافقة جلالة الملك.

لم يكن الزعيم مرتاحاً، ولم يبد أنه استطاع التوفيق بين إيمانه بالملكية ومسعاه لملكية دستورية. لعله لم يجد في الملك الشخص الذي يساعده. غير أنه بدا واضحاً لكل ذي عينين أن الملك يتحدى. في الأعيان يتحدى مجلس النواب، وفي الحرس الملكي يتحدى وزير الدفاع ورئيس الوزراء.. الزعيم.

وارتدى الجيش والشرطة والحرس الملكي جميعاً الزي الشتوي. وأرسل الزي الصيفي للغسلة الأخيرة قبل الإيداع في الصواوين.

كانت حكومة الشام مصدر إزعاج، فلها عندنا طابور خامس هو جماعة الحق. وصار لنا عندهم طابور خامس هو تكافليو الشام. والتمس التكافليون في الشام منا العون المالي والمعنوي. ولم نتجاسر. زُرعت قنبلة في إربد واثنتان في عمان. وقتل خمسة، وأمسكت المخابرات ببعض الخيوط. ولكن حسناء طارت إلى دمشق، وفرضت نفسها على وزير الخارجية الشامي، وبالكلام الجميل سربت له أن اللعب بالنار لا ينقذ النظام الشامي الذي يتعامل باستخذاء واضح مع دولة الجبل، ويشن الحملة الفاشلة تلو الحملة الفاشلة في الشمال، ويخوض مع دولة الأنبار حوار طرشان. وبالطبع لم تذكر وزيرة خارجيتنا شيئاً عن التكافليين في الشام وفي دول الجوار. هذا كلام لا يليق بنا. نحن لا نتكلم كحزب بل كحكومة.

وطارت حسناء إلى القدس. تشد على يد الحكومة المعتدلة، قبل أشهر من انتخابات صعبة مقبلة. كانت قوى اليمين تركب موجة الغضب في الشارع الإسرائيلي من سوء الأداء الاقتصادي. فعلى الرغم من الرخاء الكبير الذي تنعم به إسرائيل بالقياس إلى الرخاء النسبي عندنا، فمجتمعهم يهوى تغيير الحكومات، ويتأثر كثيراً بما يدخل الجيب كل شهر. ولفت حسناء اللفة المعهودة التي لا بد منها دبلوماسياً على الحواضر الفلسطينية، تلك المدن الفلسطينية في الضفة الغربية التي بقيت جيوباً محكومة بحكم ذاتي هزيل لا يزيد عن كونه إدارة بلديات، وحول كل مدينة بضع قرى، وقليل من الأرض، ولا سلاح ولا اقتصاد حقيقياً.

كان تقريرها لرئيس الوزراء يتضمن عبارة مستغربة من سيدة قضت سنوات على رأس مركز حقوق إنسان: لن نصبح أقوى من جيش الشام، ولا من جيش إسرائيل بالطبع، ولكن من لا يملك القوة الكافية لإيذاء من يهاجمه قد يتعرض للهجوم.

قبل تسعين سنة احتل الجيش السوري إربد، وكاد يقيم فيها جمهورية، وقبيل الانقسام السوري عام خمسة وعشرين توغلت قوات سورية في الرمثا. إن وجود قوة أردنية يجعل المعتدي يفكر كثيراً قبل أن يعتدي، وقد تجعله لا يعتدي.

زرت الزعيم بصحبة باباتي في بيته. كان هذا الشتاء ينذر بالمشكلات الداخلية والخارجية. وكان الشعور في الحزب أننا بأغلبيتنا الكبيرة حملنا عبئاً كبيراً علينا القيام به وحدنا. والمعارضة تجد في كل حادث مجالاً للسخرية منا، في المجلس وخارجه. وليس التكافليون بأقل شراسة من المعارضة، ففي حزبنا أجنحة، ولنا ألسنة طويلة. سلقتنا المعارضة بكاريكاتيرات مؤلمة. كان أسخنها كاريكاتيرٌ يصورني مايسترو يقود فرقة موسيقية من التلاميذ، والملك جالس يضبط الإيقاع بعصا تقرع طاقية الزعيم. لم يرسم الرسام وجه الزعيم.. الطاقية فقط. وفي ذلك الكفاية.

استقبلنا الزعيم ببشر يطفح من وجهه. وجيء بطبق الفول العتيد من يد الزعيم، وبحواضر البيت. وعندما اختلينا لم يتحدث الزعيم إلا عن الطقس. أحسست أن وجودي لا معنى له. وتكلم باباتي عن الطقس أيضاً. وتكلمت عن الاقتصاد والاستثمارات، فنلت آذاناً صاغية، وبينت مدى خطورة القلاقل الأمنية على الاقتصاد؛ وذكر الزعيم شيئاً عن جولة وزيرة الخارجية، وعن صفقة الدبابات الأمريكية، وعن الصناعة الحربية في بلدنا. فقد بدأنا نبيع الرشاشات وتشكيلة كبيرة من القذائف في سوق السلاح الدولية. ولكن هذه الصناعة الوليدة تحتاج إلى زمن طويل كي ترسخ لها وجوداً حقيقياً. ثمة منتجات متطورة في جانب المقذوفات ولكن القاعدة الصناعية في جانب المعادن والكيمياء ضعيفة في البلد عموماً.

كان شتاء مكفهراً منذ بداية نوفمبر. وكان الجيش يكظم غيظه من الحرس الملكي بقوة الزعيم الروحية العارمة وبتألفه لكبار الضباط.

وجاءت الثلجة الكبيرة في أواسط ديسمبر.

***

أعلن الراصد الجوي أن العاصفة القادمة من سيبيريا ستصل مساء الغد. وتحصن كلٌّ في بيته وملأ ثلاجته. وتواصل سقوط الثلوج يومين تجمد فيهما كل شيء في الأردن. وأخذ الجيش يفتح

بعض الطرق بمجنزراته، ودفن الموتى في الثلج إلى حين انفراج الوضع. وراحت المجنزرات تحمل الخبز للضواحي.

وأحاطت دبابات الجيش بالقصر الملكي.

في ساعة العصر خرج قائد الحرس الملكي يعلن تحوله إلى الجيش العربي، ويعلن أيضاً «ولاءه للمليك المفدى». أطلق بعض جنود الحرس الملكي عند بوابة القصر النار على دبابات الجيش. وزمجر الجيش وبمكبرات الصوت هدد بسحق مطلقي النار.

مع هبوط الظلام اتخذ الجيش مواقعه أمام القصر الملكي يحرسه، بينما أمرت دبابات الحرس الملكي في كل المناطق بإطاعة أوامر وزير الدفاع.

لم يصدر تصريح عن الزعيم، إلا صورة تظهره وقد وقف يتلقى التحية العسكرية من طاقم ضباط الحرس الملكي. ثم صورة ظهرت لاحقاً لهؤلاء الضباط وقد ارتدوا زي الجيش مع الحفاظ على رتبهم.

ومر صباح قاس، لم تكف فيه الثلوج عن التساقط. ومر مساء صعب.

في الصباح التالي كانت العاصفة قد هدأت فأخذت طائرات الجيش العمودية تلقي ربطات الخبز على البيوت. وكان مركز استعلامات الشرطة يوجه الطائرات إلى الأحياء المتضررة. ونُقلت أجهزة غسل الكلى بالعموديات الطبية، ونقل المرضى إلى المستشفيات. كان الجيش بطل الثلجة الكبيرة. ولم يظهر الزعيم.

تعددت الروايات عن هذا الانقلاب الأبيض. وأجدرها بالتصديق أن قائد الحرس الملكي حُمل من بيته مع اشتداد العاصفة السيبيرية إلى مركز المخابرات، فوضع أمامه ملف فساده، وقيل له إن الزنزانة في هذا المبنى قد جهزت لاستقباله. وعندما طلب مقابلة الزعيم رآه يدخل الغرفة بعد دقائق. وللزعيم سلم نفسه، ومع الزعيم عقد صفقة، ومع الزعيم كان جالساً عندما اتصل بضباطه الكبار، وأعطى أوامره، قال لهم: لن نكون خصماً للجيش في هذا الموقف الصعب، الأمر للزعيم ولا جدال.

وخرج جلالة الملك في كلمة وجيزة من مكتبه يحيي الجيش ويحيي الحرس الملكي الذي كان «خير معوان» للجيش في اجتياز هذه العاصفة. وخرج الزعيم يعلن ولاء البلاد كلها «للمليك

المفدى» ويحيي الجيش والحرس الملكي على العبور بالوطن من أزمته.. «المناخية».

وذاب الثلج في المروج، وذاب الحرس الملكي في الجيش. ودُفن الموتى، ودُفن الحرس الملكي، وأخذ الجيش يحرس الملك وقصره. وأخذت مصلحة الضرائب تدرس ملفات الأراضي الملكية والاستثمارات الملكية درساً هادئاً.

وفيما نقل لنا، فإن الزعيم كان قاطعاً في لقائه المقبل مع الملك: «إما ملكية دستورية بجلالتكم، وإما ملكية دستورية لا تحملون همها». ظل الزعيم متمسكاً بالملكية، لكن ليس بالضرورة بشخص الملك. انتصر الزعيم فيما أخذ يعرف بـ «الغَزاة السيبيرية»، لكن الملك ظل ملكاً، وظلت في يده ورقة.

9

كان على الأردن أن يراقب الوضع في الشمال، ذلك أن حكام الشام كانوا يعانون من عقدة تاريخية هي أن الأردن ليس دولة، أو بالأحرى ليس بلداً. تقسمت سوريا في العقود الماضية، وانسلخ عن الشام ما انسلخ، وظلت الشام تنظر جنوباً بعين التعالي. وكان على الأردن أن ينظر غرباً بعين حذرة، فرغم أنه اختار سلاماً صعباً مع دولة إسرائيل قبل أكثر من سبعين سنة فقد بقي في إسرائيل من ينظر إلى الأردن نظرة الشام إلى الأردن. بعضهم ظل يمني النفس بما يسمونه إسرائيل الكبرى، وبعضهم يريد أن يتخلص من البقية الباقية من الفلسطينيين في الحواضر بتهجيرهم إلى الأردن لتصبح بحكم الأمر الواقع دولة فلسطينية، وبعضهم ينظر إلى ما نحرزه من تقدم اقتصادي وتعليمي بعين الحسد والتوجس، فالنواة الصلبة التي تحكم إسرائيل منذ إنشائها خاضعة للدور الذي رسمته أوروبا لدولة اليهود في الشرق: أن تتخلص أوروبا من جالياتها اليهودية وأن توظفها في الشرق شرطياً يحمي مصالح أوروبا، وجاءت أمريكا وشاركت أوروبا في تشغيل دولة إسرائيل لحسابها.

ما فتئ اليهود ينفسون على الأردن ما استفاده من علوم بعضها من التعاون الصناعي المشترك بيننا وبينهم، وبعضها مما عاد به طلبتنا الذين درسوا في المعاهد العليا الإسرائيلية، وبعضها من أولئك الخبراء الإسرائيليين الذين يعملون في الأردن. وكان يمكن للأردن أن يحصل على كل هذه الفوائد من دول أوروبية لا تبعد عنا سوى ساعات ثلاث بالطائرة. ولكننا كنا دوماً ندرأ خطر إسرائيل بالتعاون معها، وكانت خطة ناجحة رغم ما يقوله فلسطينيو الحواضر وبعض فلسطينيي الأردن نفسها من أن الأردن يحمي نفسه على حساب الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني.

ربما كان الخطأ الحقيقي مشتركاً بين الأردن الذي جعل الفلسطينيين أردنيين وبين الفلسطينيين الذي ذابوا في المجتمع الأردني. الحكومات لا تصنع التاريخ بل تصنع السياسة. الحكومة قارب صغير في شلال نياغرا التاريخي.

وكنا ننظر إلى الجنوب (حيث ظلت السعودية تتوجس من الهاشميين، الذين كانوا أمراء في الحجاز في السنين الخوالي) نظرة ارتياح نسبي، فالسعودية عمق استراتيجي نحتاج إليه، وسوق مهمة نجد فيها المواد الكيميائية الخام، والخبرة الكيميائية، ونبيعها من منتجاتنا، وهي طريقنا إلى باقي دول الخليج واليمن، ثم إنها تختلف عنا في المجتمع وفي الحكم، ولا تطمع فينا ولا نطمع فيها، اللهم إلا تلك العقدة الهاشمية السخيفة.

ورث جلالة الملك عن أجداده بعض تلك النظرة، فهو يرى – ونحن نرى معه – أن العائلة الهاشمية أعرق في الملك وفي التاريخ من كل العائلات الحاكمة، في كل العالم في الحقيقة، وليس في المنطقة فحسب. وهو يدرك أن الخصومة مع إسرائيل عميقة لأن إسرائيل لا تتخلى عن أحلامها بالتوسع شرقاً، ولا عن تفكيرها بتبديل النظام في الأردن لتحويل الأردن إلى «فلسطين»، ولتنفيذ خطة كهذه لا بد من ثلِّ العرش، فهذا سيكون العنوان العريض الذي يعزز نشوء كيان جديد. وكنا جميعاً ننظر إلى إسرائيل بعين الريبة لأن الدولة الإسبرطية إلى الغرب قلقة ويمكنها أن تصنع الحروب، والحرب التي يشنها الخائف حرب وسخة. الذي يملك السلاح الكثير يتوق إلى استعماله، تماماً مثلما كنت أشعر وأنا طالب في بوسطن عندما تمتلئ ثلاجتي بأن علي أن آكل أكثر.

وكنا نرمي بأنظارنا وراء إسرائيل إلى مصر بمشاعر مختلطة. فمنذ عشر سنين والعالم منشغل باحتلال مصر للسودان، ومصر منشغلة، وإثيوبيا منشغلة طبعاً فقد أصبحت مصر تشاركها قسراً في إدارة سد النهضة الذي لا يبعد عن الحدود السودانية سوى كيلومترات قليلة. لقد جيشت مصر المليوني سوداني الذين هاجروا إليها في تلك الفترة وملأوا شوارع أسوان وأسيوط وما بينهما. وكان كثير منهم من جنود وضباط النظام البائد، وكان النظام الجديد قد سرحهم، واستبدل بهم (استبدالاً عشوائياً يصعب وصفه بأقل من الغباء) ميليشياتٍ الهراواتُ أخلق بها من البنادق. وقبل أن تتم على السودان نعمة «الدولة الفاشلة» كان الجيش السوداني الذي يأتمر بضباط مصريين يعلن «حكومة الوحدة» وهكذا قامت دولة «الوادي» التي لم يعترف العالم إلا بنصفها الشمالي، ولم يدرج اسم دولة الوادي إلا في مصر والسودان.

كنا اتخذنا منذ البداية موقف المراقب المتفرج، مع تعزيز علاقاتنا بمصر، فمنها نحصل على كثير من المواد المعدنية لصناعاتنا، وأخذنا نستورد من مصر كثيراً من المواد والخبرات أيضاً للصناعات الحربية. ثم إن آلاف العائلات الغزية التي تقيم في الأردن ما زالت لها صلات بغزة التي كان طريقها إلى مصر مفتوحاً دائماً بشكل شرعي أو غير شرعي، والمجتمعات تعترف بالحدود وتخضع لها، ولا تعترف بها ولا تخضع لها في آن. وفي الأوان الأخير كانت لنا في السودان استثمارات زراعية كبيرة. الربح وفير، والقلق كثير. استثمارات هي أشبه بالمضاربة بالعملات.

وفي زيارة قام بها الزعيم مؤخراً لمصر كان ما يشغل بال الرئيس المصري تنامي تنظيم التكافل بمصر. لم يفلح الزعيم في إقناع الرئيس المصري بأننا لا نقيم أي علاقة مع هذا التنظيم، ولم يفلح الزعيم – ربما – في إقناع نفسه بأن مثل هذه العلاقة لن تقوم مستقبلاً. كانت تنظيمات التكافل في الشام ومصر وحتى في دول الخليج ترفع رؤوسها إلينا كما ترفع الفراخ الزغب رؤوسها إلى أماتها العائدة بالحب والزؤان، ولم يكن لهم عندنا حب ولا زؤان. ولئن نظرت مصر إلى تجربة الأردن الاقتصادية بعين استقاء العبر، فإنها كانت قد شهدت نهضة اقتصادية قوية حتى قبل الدخول إلى السودان، على أن الروح الحزبية البرلمانية التي عرفتها مصر الملكية، لم تعد إليها إلا بكثير من البطء. وقد أفاد التكافليون المصريون من إنجازاتنا السياسية، وسريعاً سيغيرون اسمهم. لن تبرأ مصر من التعالي، الأخت الكبرى لا ترضى على نفسها أن تقلد الصغرى.

***

استقرت العلاقة بين القصر والحكومة. وفهم رئيس مجلس الأعيان المشاغب أن مجلس النواب، الذي خلق مجلس الأعيان، يمكنه أن يخنقه. على أن مجلس النواب أصبح خلية نحل. وأخذنا في حزب التكافل نفكر في أهم القوانين الصعبة التي يمكننا تمريرها الآن ولنا الأغلبية غير المسبوقة، فهذه فرصة. لكن، ليس بينها إزهاق مجلس الأعيان، فهذه طعنة للزعيم شخصياً.

في سنتين سمينتين بعد «الغَزاة السيبيرية» كان الأردن يسيِّر من قوافل الشاحنات التي تحمل المنتجات الصناعية إلى الخليج أكثر من تلك القوافل التي دأبت طوال العقود على حمل الكوسا والطماطم. وظللنا نصدر الكوسا والطماطم، والبشر أيضاً.

كان الميزان التجاري مع دول الخليج ومع الشام ومصر مائلاً بشدة لصالحنا، بما يعوض أي ميل للميزان علينا مع أوروبا وأمريكا. أصبحنا المركز المالي للمنطقة. ما يفسده الساسة في دول

العالم الناجحة يصلحه التجار، وما يصلحه التجار في الدول المتخلفة يفسده الساسة. وكان الزعيم ووزيرة خارجيتنا يسعيان بين دول المنطقة وقد وضعا نصب أعينهما أن يكون هناك فصل بين الخلافات السياسية والقيود التجارية. ونجحا في ذلك نجاحاً ملحوظاً كان يمكن أن يكون نجاحاً كبيراً لولا التنظيمات التكافلية التي أخذت تنشأ، في الشام خصوصاً، لكن أيضاً في مصر والسودان وفي دول الخليج.

ظل باباتي يصدر كراساته، وظل حزبنا يطور أدبياته. نعم، كان بعضنا، وأنا من هذا البعض، ينظر بعين الريبة إلى هذا النشاط الفكري، فالأيديولوجيات الشيوعية والفاشية لم تغب عن الذاكرة بما كان فيها من تعميمات وتحيزات لابسة لبوس المنطق السليم. كنت ممن لا يريد للأردن أن يكون مركز إشعاع أيديولوجي. الأردن أصغر من أن يقوم بهذا الدور. على أنك لا يمكن أن تمنع المفكر من قول ما يريد، فإن كان هذا المفكر باباتي فمن الصعب أن تمنعه، خاصة وأن الزعيم يدعمه، ويشاركه في صوغ أفكار هذه الكراسات. ولسخرية القدر فقد كنت أساهم أيضاً في تشقيق الأفكار في المجالات التي يمكنني فيها المساهمة.

***

في طول الأردن وعرضه كان الناس يأكلون شطائر كفته ويغسلون أيديهم على مغاسل جرزال، وفي دول الجوار يحدث هذا كثيراً، ولا يندر أن يحدث في بعض الدول الأوروبية. كنت أزود خزينة الحكومة بالملايين الكثيرة سنوياً على شكل ضرائب، وأمول الحزب بما يسمح به القانون. ونهضت مصانع الزجاج بقوة، ونشأ ضمن مجموعة جرزال مصنع كرتون للتغليف ومعهد للدراسات الكيميائية كان يلتحق به المهندسون في دورات مكثفة. ونهضت الصناعات في البلد على نحو وضع عبئاً على المستوى السياسي، إذ إن أي توتر في العلاقات مع دول الجوار سيلحق الضرر بهذه النهضة الصناعية. وكانت إطلالتنا الضيقة على البحر في خليج العقبة مصدر قلق، فعلاوة على الشاطئ الضيق كان لا بد من القطارات وقوافل الشاحنات لإيصال البضائع إلى الميناء، وفي هذا زيادة في التكلفة.

زادت الطين بلة الحكومة اليمينية الجديدة في إسرائيل، فقد فرضت إتاوة إضافية على استعمال الموانئ على المتوسط باسم إتاوة العبور. وكان منطقها أن عبور بضائعنا لا يختلف عن عبور النفط في أنابيبه فبلاد المعبر تتقاضى مالاً جزيلاً.

كانت الرسالة الضمنية الموجهة إلينا من إسرائيل: «اهدأوا. في المنطقة دولة واحدة لها السيادة العلمية والصناعية والحربية». وأرادتنا مصر أن نهدأ حتى لا نكون حملة مشعل الحركة التكافلية خارج بلدنا، وكانت الشام تريدنا أن نهدأ، كل دول الجوار تشعر بالشعور نفسه. ولكن الصناعة لا تستطيع أن تجمد، ولو جمدت بنيزك ينزل من السماء فالتعليم سينحدر. وكان التعليم في بلدنا يسابق في صعوده الصناعة. ولا أنسى أن أوضح أن ما أقصده بالصناعة أوسع مما تعودت هذه الكلمة أن تحمله من معنى. فالسياحة العلاجية صناعة، والسياحة الاستجمامية صناعة – وكلتاهما كانتا في صعود في الأردن –، وشق الطرق صناعة، وكذا كل بناء وإنشاء فهو يدعم الصناعة، اللهم إلا إن كان بناء قصر منيف لرجل أعمال ذي مزاج استعراضي، ولكن الضرائب القاسية على المسقفات أقنعت غالبية الرأسماليين بالاكتفاء بفيلات كفيلتنا العتيدة في عبدون.

وكان أقطاب الصناعة والزراعة يضغطون على الجامعات كي تخرِّج لهم من يقوم بالمهام، وكانت الحكومة، وأنا المختص بهذا الشأن فيها، تضغط معهم، لكننا في الحكومة كنا نعلم أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولا بد من دراسات إنسانية، ومن ترف فكري.

لا يمكن أن نصبح سويسرا لأن جوارنا ليس أوروبا، غير أننا كنا دولة ناجحة.. جداً.

***

كانت ابتسام تنظم في مقر الوزارة مجالس الحوار الليلية مرتين كل أسبوع. وقد ننقل المجلس بين الحين والحين إلى مدينة أخرى. كان يدعى سبعة أو ثمانية من المثقفين، أو الصحفيين، أو المعلمين، أو النشطاء في مجالات حقوق الإنسان أو التربية أو حقوق المرأة. كان لكل مجلس طعم مختلف. وكان البساط أحمدياً. نسمع كثيراً ونشرب العصير والقهوة في ساعتين وينصرف كل إلى بيته لا أكثر. ثم رسالة شكر لكل من حضر.

قلدت في هذا ما كان يصنعه باباتي على صعيد الحزب، وتعلمت أن أحسن الاستماع، وأن أتحمل الثرثرة. تعلمت من أساتذة الجامعات الكثير. جمعنا أطباء نصفهم تخرج في جامعاتنا ونصفهم في جامعات أوروبية وأمريكية. جمعناهم مرة ومرة، وجمعنا طلاب طب في أواسط سني الدراسة. كل هذا قبل أن نمضي في مشروع تعريب تدريس الطب. ومضينا فيه ببطء وتحسب.

كان مجلسنا في الوزارة دائرة من الكنبات المفردة ليس أمامها ولا بجانبها مناضد، فنحن نشرب العصير في وقفة التعارف، ثم نتناول القهوة جالسين إذ يدور علينا الساقي بالفناجين. أتذكر أحد طلبة الطب.. كان يجلس بجسمه الضئيل في الكنبة المريحة ويحاول أن يعبر عن شيء بلسان عيي. ومررت عنه مانحاً إياه فرصة كي تزول عنه الوحشة، ثم عدت إليه وقد شعرت أن لديه تجربة يريد أن يقصها. وانطلق:

– كتاب الأوبئة وجدته بالعربية وقرأته، وبعد ذلك قرأت أبحاثاً حديثة متفرقة بالإنجليزية فوجدتها سهلة. ميثيل الزئبق بقي ميثيل الزئبق، والمصطلحات إما عربية عندما تتعلق بأسماء الأوبئة أو معربة، وظننت نفسي سأكون متفوقاً على زملائي. ثم اكتشفت أنهم جميعاً قرأوا إما الكتاب الحديث نسبياً الذي قرأته وإما كتاب «أساسيات علم الوبائيات» الذي ترجمته منظمة الصحة العالمية إلى العربية قبل ستين سنة. كلنا كنا فاهمين لأننا قرأنا وفهمنا بالعربية، والاستزادة بالإنجليزية ليست مشكلة.

أضاف طبيب درس في روسيا:

– عندما رجعت من روسيا ظننت أنني لن أفلح، ولكنني وجدت أن التحول من الروسية إلى العربية وإلى الإنجليزية يشبه الضغط على زر الكهرباء. أيضاً في كوريا والصين وفرنسا يدرسون الطب بلغاتهم، ثم يحضرون المؤتمرات الطبية ويلقون الأبحاث بالإنجليزية بسهولة.

حصلنا على تمويل لمركز ترجمة الكتب الطبية والهندسية والحاسوبية، وكان الأمثل أن ننقله إلى مصر لما فيها من قاعدة واسعة من المترجمين ذوي الاختصاص العلمي، ولكن ما نملكه من قدرات تنظيمية جعلنا نبقي المشروع في الأردن. لم يكن سهلاً العثور على أطباء ومهندسين يملكون القدرة على الترجمة والعربية السليمة والفقر الكافي لكي يُقبلوا على ترجمة الكتب بأجور بخسة. واستقدمنا الخبرات من مصر ومن دول المغرب العربي، وأدخلنا أنفسنا في معمعة. سيستفيد الجميع من هذه الكتب، ولكن معظم جامعات الدول العربية ستصر على الاستمرار في تدريس الطب بالإنجليزية أو الفرنسية، غير أن الطلبة سيحصلون على كتبنا المترجمة، مجاناً في الغالب تحميلاً وتصويراً. في الأردن مضينا شوطاً في تعريب دراسة الطب، ولقينا من السعودية عوناً طيباً في هذا المجال، بالمال وبمجاراتنا في التعريب. لم تمضِ على المركز سنوات قليلة حتى كانت كتبه تمثل الصديق الوفي لطالب الطب في كل العالم العربي.

***

لم تمر حكومتنا دون أزمات داخلية. أقيل وزير في فضيحة تحرشية، وما أفلت من براثن القضاء إلا بتسوية الأمر عائلياً. وضبط آخر في فضيحة رشوة متعددة الرؤوس. ضيق عليه ديوان المحاسبة الخناق، وحصل على الوثائق الكافية. ورفع الأمر إلى الزعيم، فأحاله من فوره إلى القضاء.

طلب رئيس المحكمة من وزير العدل موعداً مع الزعيم، فقيل له إن الظرف غير ملائم لاجتماع كهذا. فاجتمع بوزير العدل. وتضمن محضر الاجتماع فقرة توضح أن رئيس المحكمة يريد من الحكومة أن توضح له مدى أهمية الوزير لأعمال الحكومة و«للوطن». وقال وزير العدل إن وزارته والحكومة نفسها لا تتدخل في عمل القضاء، فعاد رئيس المحكمة يطلب توضيحاً بشأن علاقة الوزير بالزعيم، ويردف ذلك بأنه يقصد «العلاقة التي يجني الوطن منها المكاسب وليس العلاقة الشخصية».

وبإشارة الزعيم تم تحويل المحضر إلى المحكمة الدستورية العليا، فاتصال قاض كبير بالوزير وطلبه توجيهات بشأن الحكم يمثل انتهاكاً لاستقلال القضاء. كان واضحاً أن الزعيم مستعد لإحالة الموضوع إلى مجلس النواب لعزل القاضي المذنب ولعزل رئيس المحكمة الدستورية إن هو تهاون في الأمر. وسربت لرئيس المحكمة الدستورية معلومة صغيرة: كل شيء نريده في العلن. لا استقالات بل إقالات، ومن أذنب ذنباً فلينل عقابه ولو كان رئيس محكمة.

ما علمه الجمهور هو أن رئيس المحكمة نحي عن القضية، ثم أنه أقيل وحرم من ممارسة مهنة القضاء. وأن الوزير المرتشي أُدين وغرم غرامة ثقيلة، وسجن.

لم يسعَ الزعيم إلى تحقيق مكسب شعبي، مكتفياً بأنه أكد استقلال القضاء. أدرك أهل البصر والأمانة أهمية ما حققه الزعيم، وسرت في جسم القضاء رعشة عنفوان وانغرس الدرس عميقاً في النفوس، ولكن الشعب رأى الحكومة قد ترهلت سريعاً بفقدانها وزيرين في فضيحتين.

لقد سقط حكم الإعدام في بلدنا منذ سنين، ولكن حكومتنا في فترتها السابقة بالائتلاف مع اليسار أبقت عقوبة الإعدام سارية في حالة يتيمة.. ليس على من يغتال الملك ولا رئيس الوزراء، بل على من يقتل قاضياً قتل ترصد. هذا لتمكين القضاة من إصدار أحكامهم بنزاهة غير مبالين باعتداء.

***

مرت سنوات حكومة الزعتري الأربع كحلم قيلولة على كنبة مريحة، وأفقنا على صداع، كأنما فاجأتنا الحملة الانتخابية الوشيكة. أنا ترهلت سياسياً بالغوص في مشروعات تفصيلية – وباباتي ترهل وهو يحاول أن يقرأ المستقبل في بلورة معتمة. واحتفظ بكل نشاطه السياسي الزعيم وعصام.

كنا نحن الأربعة نجلس في غرفة المكتب في بيت الزعيم. كان كعادته بشوشاً، وأجَّل إلقاء قنبلته الكبيرة إلى ما بعد احتسائنا القهوة ومناقشة تشكيل القائمة الحزبية. وكنت بالطبع قد أدخلت وكيلتي ابتسام في موقع متقدم أثناء المداولات الأولية على مدى الأسبوع الماضي، وشاركت كوادر الحزب ضمن عملية معقدة في تحديد الأسماء، مع إبقاء العشرين الأوائل على القائمة لمكتب القرار.

جاءت أسماء بالشاي وجلست تنظر بعينين ضاحكتين إلى أبيها وزوجها، وأيضاً إلى صديق أبيها الذي عرفته شاباً في العشرين وهي بنت في الثالثة عشرة. وعندما قال الزعيم: طيب يا إخوان، انتبهت أسماء إلى أنها ليس من هؤلاء الإخوان فنهضت وهي تزقزق بابتسامة وتقول محاكية: طيب!

كنا نتهيأ للاستماع إلى ما جرى خلال زيارة الزعيم الأخيرة للقصر، ولم يبد علينا التوتر، على أنه بدا في عيني عصام أنه يعرف شيئاً، أو لعله شعر نفسه رابعاً غريباً، فهو رغم موقعه الحزبي المتقدم ليس صاحب فكر في الحزب. كان عصام قد هضم مفاهيم التكافل بشكل جيد، وكان صاحب همة عالية في التنظيم، وصاحب دأب، ولكن خياله كان محدوداً. بدأ الزعيم:

– زيارة عادية للقصر، قبل أن نعلن افتتاح الحملة الانتخابية. وكما تعلمون فقد تحسنت العلاقة كثيراً مع جلالة الملك، وكثيراً ما ناقشت معه منذ التغيير الدستوري الأوضاع العامة وكانت له نظرات صائبة ولمست منه غيرة على البلد وعلى الشأن العام.. رغم كل ما فعلناه.

– «وما فعلناه لم يكن هيناً على جلالته!» علق باباتي.

– وقال جلالته في ختام اللقاء: بعد الانتخابات سيحضر زعيم أكبر الأحزاب إلى القصر. فقلت له: بالتأكيد. فقال: ولن أستقبلك «أنت«، ونهض. ووجب علي أن أنهض.

وران الصمت. لم أجرؤ على أن أكون البادئ بالكلام، ولا عصام جرؤ، وأما الزعيم فأصر على الصمت ليرى وجوهنا. وتكلم باباتي:

– أزمة جديدة. والخيارات: الجمهورية؟

رد الزعيم مستنكراً:

– لا قدر الله!

– حسناً، أولاً يحدث تنصيب نيابي لرئيس الوزراء ولا حاجة لخطاب عرش، وبيان الحكومة يقرأه رئيس الوزراء. والخيار الثاني ننتظر قليلاً فقد يغير جلالته رأيه.

– لن يغير رأيه، تلك وقفته الأخيرة. قد وضع عرشه على منضدة القمار. لم يسمح لي حتى بمناقشة الأمر. قال كلمته ونهض.

– إذاً!

– هل سنتمنى أن نخسر الانتخابات! بالطبع لن نحصل على المئة والأربعين مقعداً هذه المرة.. ولكن الاستطلاعات تشير إلى فوز مريح.

وران الصمت مرة أخرى. ودق قلبي، ودق قلب عصام.

– «الملك يشن علينا حرباً، ولا بد من الرد». قال عصام.

– «الانتحاري لا يمثل أمام محكمة، قد وضع جلالته عرشه على المحك». قال الزعيم.

– «نحافظ على العرش، وفي العائلة الهاشمية طامحون كثر». قال باباتي.

– ولي العهد لن يقبل، فإن أقنعنا غيره بالجلوس على العرش ستصبح ملكية لا طعم لها. نحن نريد ملكاً قوياً ونريد استقراراً. الملكية ضمنت هذا الاستقرار مئة وخمسين سنة.

آثرت الصمت. وجاء صوت أسماء من وراء الباب أنها ذاهبة إلى السوق. كنت أتمنى أن أعقد علاقة بين هذه الشابة وبين زوجتي نداء، ولكنني لم أرد أن تكون نداء الطرف الأدنى في

العلاقة، ولم أشأ أن تكون فتنة أسماء قريبة مني بأكثر مما هي. لكنني أشفق على هذه المرأة التي ليس لها في البلد عمق عائلي، لا تعرف سوى أبيها وزوجها.

هكذا أنا! في أحلك اللحظات أشرد بفكري إلى أتفه الأمور. نحن جالسون نعالج أزمة دستورية خطيرة وأنا أفكر في أسماء ونداء. أعتقد أن علماء النفس مروا بمثل هذا النموذج، ولعل لي عندهم اسماً خاصاً في باب الانحرافات النفسية.

جاء صوت الزعيم ينبهني من شرودي:

– الآن وفي هذا المجلس يحسن بكم أن تختاروا «المرشح».

وكلمة المرشح في قاموس حزبنا تعني الأول على القائمة، ومعناها بالتالي: زعيم الحزب، ورئيس الوزراء في حال الفوز الانتخابي. أطرق باباتي:

– الآن! ضروري الآن؟

– علينا أن نناقش الأمر في مكتب القرار ثم أن نفرشه في الكوادر، ولا نملك الوقت. وقد أحببت أن يكون القرار الأول الذي نتبناه وندافع عنه لاحقاً صادراً عن مجموعتنا الضيقة هذه.

– إذن فهو قرارك. ولا أظن أحداً منا يريد أن يقول في الأمر كلمة قبلك. فتفضل.

هذه المرة أطرق الزعيم. ونظر في الفراغ وهو يهيء كلماته. دق قلبي، وأظن.. دق قلب عصام.

– في حزبنا كفاءات متنوعة. وجاءت ضربة جلالة الملك هذه نعمة تلبس لبوس الأزمة.

لا أدري ما كان لون وجوهنا، ما امتقاعها، ما انقباض عضلاتها. فقد كنت أنظر إلى وجه الزعيم، حتى وهو ينظر في الفراغ صادفاً عنا، مكلماً إيانا وهو لا يكاد يرانا. وكان وجهه وجه رجل يعرف ما يريد، ويقود رهطه إلى المكان الذي يريد بإرادتهم «الحرة» المستمدة من إرادته. ليس أكبرنا سناً فهو قد توسط الأربعين وباباتي يكبره بعشر سنين. وأنا وعصام قد توسطنا الثلاثين.

حك الزعيم صدغه وهو يستحضر العبارة المقبلة، لكنه لا يعدل طاقيته أبداً فقد استحالت جزءاً من جسمه. ولو كانت أسماء صادقت نداء لربما عرفنا إن كان الزعيم ينام بطاقيته.

هكذا أنا في المواقف الحرجة. أشرد بذهني. وجاء صوت الزعيم:

– كنت سمعت من باباتي تاريخ العراق، حدثني عن صدام وعن عبد الكريم قاسم الزعيم الأوحد. هكذا كان لقبه. ورشيد عالي. وحدثني عن فيصل العراق.

كان الزعيم صاحب أذنين لا عينين، وقد امتلأت أذناه بكلام باباتي في جلسات كانت في سنوات ماضية تمتد حتى الفجر، وكنت حضرت إحداها، ولو كان قدر لهذه الجلسات أن تكتب لجاء منها كتاب سمين في الجغرافيا السياسية لمنطقتنا العربية كلها. كان الزعيم يطرب لكل موسيقى في الدنيا، ولموسيقى الريف والبادية الأردنية أساساً. ويسمع من الناس ومن مستشاريه، وتقرأ عليه أكثر من مساعدة خاصة ملخصات لما تقوله المواقع والصحف في كل مكان، ومحطات الإذاعة رفيقته، تراها في ثقبي أذنيه وهو في السيارة في رحلاته اليومية، وترى وجهه ينم عن تفاعل مع ما يسمع، ولا تسمع أنت ما يسمع إلا إن كانت أغنية ريفية أردنية فهو قد يردد بيتاً من أبياتها بنغمها. وكان صاحب صوت عذب، يمكن أن يكون أجش ويمكن أن يكون رخيماً، ويتلون بحسب الموقف. على أنه في جلستنا تلك كان يسوق كلامه بنبرات هادئة محسوبة. ومضى يتحدث عن العراق:

– وفيصل العراق كان ملكاً، وأي ملك. كان سيداً عربياً، شريفاً من الأشراف، شهماً يغفر الزلة، ويتجاوز عن الصغائر. ها!

كأنما أراد الزعيم أن يستدعي من باباتي مداخلة تكسبه وقتاً. وصمت باباتي، وبحق. فهو يريد للزعيم أن يحمل عبء القرار كاملاً. ويريد أن يسمع النتيجة. وتبرعت بإنقاذ الموقف:

– لفتني يا زعيم في كتاب الزبدة شيء غريب. أن شعراء المشرق كلهم مدحوا ورثوا فيصل العراق بأجمل الشعر، حتى شعراء المهجر. كانوا على قلب رجل واحد في شعورهم بالحب الخالص للرجل.

ابتسم الزعيم ونظر إلى باباتي، ثم التفت إلينا:

– باباتي قرأ علي بعض هذه الأشعار! شعر طوقان وسيل الدموع، وشعر القروي ورمل الحجاز.

كأنني منحت الزعيم فرصة للتخفف من عبء مهمته الشاقة: مهمة اختيار خلفه. وعاد إلى موضوعه:

– عبد الكريم قاسم، الزعيم الأوحد الذي قتل الهاشميين رجالاً وأطفالاً، وجاء بعده بزمن صدام! وماذا كسبنا من الزعامة التي قضت على الملكية؟ كسبنا ديكتاتورية. ما أجمل أن يرانا العالم وقد رفضنا هذا المصير! ما أجمل أن يكون الملك سليل العائلة الهاشمية، ومحور الاستقرار، مثلما ظل منذ عشرات السنين، وأن يتعاور على الحكم رجال، وربما نساء. أم نريد للبلد ملكين اثنين؟

كدنا جميعاً أن نقول للزعيم: الفظ الجوهرة. ونظرنا ببعض التثاؤب الخفي.

– سأظل دينامو، وسأكون سعيداً حقاً بوزارة الدفاع، هذا بالطبع إن فزنا في الانتخابات. ولا أخفيكم أن تغير «المرشح» في قائمة حزبنا قد يأتي بمفاجآت. وسيظل أحمد دينامو، ليس في نشاطه الصناعي، فهذا النشاط يسير الآن وحده، وكل طاقة أحمد هي في خدمة البلد. وباباتي ضميرنا وعقلنا، ورئيسنا النيابي. وعصام دينامو حزبي وصاحب دبلوماسية وتلبيس قبعات. وقد عرفت تقييمكم لحسناء جريس في الخارجية، ويبدو أن بقاءها سيتيح الاستفادة من خبرتها التي اكتسبتها، وبخلاف ذلك فالوجوه تتغير في كل حكومة.

– «هذا طيب. وبقي أن تقول أنت، ولا أحد غيرك، اسم مرشحك لرئاسة الوزراء». قال باباتي.

نظر الرئيس إلى عصام. فنظر عصام إلي. فتحجرت، وتحجر باباتي. وساد الصمت. وقطعه باباتي:

– نبارك لعصام. عصام! أقر الزعيم أنك تحسن تصريف الأمور داخل الحزب وفيما بيننا وبين الخصوم السياسيين، و.. تلبيس القبعات أيضاً؟

وانفرج وجه باباتي عن ابتسامة عذبة لم أستطع مثلها، لكنني باركت.

مضى الزعيم:

– لعل اختيارنا يكون موفقاً. المنصب السياسي الأول في البلد ليس كل شيء، لا بد من كفاءات كثيرة. وعندما يتولى صاحب المنصب الأول منصبه، سنرى كيف يختار الكفاءات. وبالطبع ليست كلمتي عن وزارة الدفاع ملزمة. سأكون عضواً حزبياً ينتظر أن يكلف بمهمة، لا أكثر.

تنحنح عصام، وبحركات يديه وصعود وهبوط رأسه بين كتفيه قال:

– لست الكفء، فإن أكن مرشح الضرورة فالمهمة ثقيلة. أقبل أن أكون منقذ الموقف، لا أكثر.

– «حسناً». قال الزعيم مقاطعاً ومنهياً الموقف.

قاطع الزعيم عصام حتى لا يقول شيئاً غبياً. وبدا لي أن الزعيم ألمح لعصام بالأمر دون أن يخبره بكل شيء، واختار الزعيم ألا يصرفنا إلا بعد أن يوضح كل شيء:

– لأنني حتى اللحظة «المرشح» ولأن باباتي رئيس الحزب، يحسن بنا أن نفكر في الحقائب. وبالطبع فهذا متروك لرئيس الوزراء المقبل كائناً من سيكون. ولكن، يجب أن نستوثق من ترتيب بيتنا. وأنتم أهل الثقة. التعليم والتعليم الجامعي طبعاً عند أحمد. والخارجية عند حسناء، وإذا وفقت في الدفاع فقد أطمع في ضم الداخلية، وليس بي إصرار عليها. والحقائب الأخرى..

وضع الزعيم فاصلة في كلامه استغللتها:

– التعليم والتعليم العالي فيما أرى قد نضجت له ابتسام الصقر. لقد كانت في فترات صعبة الوزيرة الخفية في الوزارة. وعملاً بما طرحه الزعيم من عدم التمسك بمنصب بعينه، فانتقال الوزارة إليها مصداق لهذا المنهج.

تدخل باباتي:

– لن أقيس مشاعرك الآن. لكنني أتخوف كثيراً من أن تهجر الميدان. يمكن لك أن تكون نائباً لرئيس الوزراء، ولكن هذا لا يكفي..

لم يسمح لي ذهني بشرود هذه المرة. بل عمل بطاقة فوق عادية. تركت باباتي يمدحني على هواه.. ولم أسمع من مديحه كلمة. ومدحني الزعيم، ثم عصام. ولم أسمع كلمة. فكرت في شيئين على

التعاقب: الانسحاب من الميدان، ووجدته صعباً ويشكل طعنة لمصداقيتي السياسية، ثم فكرت في وزارة العدل. فبعد الهزة التي تعرض لها القضاء أصبح تنظيم العلاقة بين السلطة التنفيذية والقضائية أمراً مهماً:

– لو عرضت علي حقيبة العدل فقد أستطيع من خلالها تقديم شيء. أما نائب رئيس الوزراء فمنصب قد يقيدني.

فهموا جميعاً أنني لن أقبل أن أكون نائباً لعصام. وسكتوا، ولم يعودوا إلى هذا الحديث. وقبل أن نمضي، قال الزعيم:

– كل هذا مكتوم تماماً ثماني وأربعين ساعة، موافقون؟

ووافقنا، وذهب كل إلى بيته. ومثلما جئت بباباتي بسيارتي إلى منزل الزعيم أوصلته إلى مخدعه، ودعاني لكوب شاي، فشربت شايه مجاملة. لا مجال لكلام بعد الذي سمعناه. قلت له:

– لو كنت قلت لي!

– لم أعرف شيئاً، ولا عصام عرف. كأنك لم تعرف بعد كيف يفجر الزعيم قنابله!

ورضيت نفسي بهذا التأكيد.

***

مرت الثماني والأربعون ساعة ثقيلة علي. حزنت على نفسي مثلما يحزن الضعفاء على أنفسهم. الضعيف «إنسان» يحسن أن ينوح على نفسه إذا خسر، يظهر ذلك للناس أو لا يظهره. والسياسي أسد في الغابة أو قرد، يخسر فلا يفكر في شيء إلا في المعركة المقبلة. وكان الزعيم أسداً، ولا أقول إن عصام كان قرداً.

شهد هذان اليومان انتخاب رئيس مدني في إيران ضمن توازن قوى قلق. واستقالة الرئيس الإسرائيلي محمد عثمان قبل أشهر من انتهاء ولايته، واتجاه الكنيست إلى اختيار رئيس يهودي يميني في انعطافة صهيونية حادة. وشهد اليومان أيضاً تسريباً بأن الزعيم لن يكون الأول على قائمة التكافل. لم يكن التسريب من القصر، بل من الزعيم. أخذ يهيئ الجو. ثم أعلنت الأسماء العشرون

الأولى في النطاق الحزبي الواسع، وبعد عشر دقائق كان الخبر على كل لسان. وقدم عصام قائمة العشرين الأوائل طالباً من كوادر الحزب المضي في اختيار بقية المرشحين. كان باباتي في المركز الثاني، وكنت في الثالث استرضاء لي. وكان الزعيم في الرابع.

وخطب الزعيم في جلسة مجلس النواب الأخيرة خطبة أعلن فيها، بوصفه رئيس الوزراء لم يزل، بدء الحملة الانتخابية، وعرج على موضوع التبدل غير المتوقع في شخص «المرشح» على قائمتنا دون ذكر اسم الحزب:

– ليشهد الأردن ترسخ مبدأ ما زال بحول الله راسخاً منذ قرن ونصف قرن وهو أن جلالة الملك هو عنوان الاستقرار، وليشهد الأردن أن منصب رئيس الوزراء تكليف لا تشريف. ويعدكم رئيس الوزراء الذي يخاطبكم أن يكون دائماً في ميدان السياسة خادماً للشعب كله.

هاج المجلس وماج وخطب الخطباء. وانتهى المهرجان مع بدء الحملة الانتخابية التي شهدت تصويب الخصوم السهام إلى عصام، ونبش ملف أدائه المتواضع في مناصب الدولة. غير أن الحزب اصطف بقوة خلفه، وأخذ الزعيم يذرع البلاد حاشداً التأييد لمرشحه – الشخصي في الواقع – للمنصب الأول.

شهد خريف 2065 بدء حكومة عصام. وسيشهد عهده أقسى حدث مر بالأردن منذ عشرات السنين.

10

سار الأردن بين قطرات المطر، يتخطى الأزمة الدستورية ليواجه مصاعب في التصدير، ثم ليصبر على فحيح الغيظ من حكام دول الجوار بسبب الحركات المشابهة لنا التي قررت أن تتسمى باسمنا دون أن يكون لها بنا علاقة سوى قراءة كوادرها لكراريس باباتي وغير باباتي من مفكري حزبنا. وكانت دول الجوار تتابع بأعين مفتوحة موسمنا الانتخابي، وكان العالم يرقب أيضاً. دعا بعض من جماعة الحق إلى استدعاء مراقبي الانتخابات الدوليين، وأخرستهم صرخات كثيرة من كل اتجاه. وكان رد باباتي على جماعة الحق بسيطاً: لم لا تراقبون أنتم؟

ارتدت جماعة الحق ثوب الدين أكثر من المرات السابقة، ووصفونا بأننا لا نبالي بالدين. وكان قرارنا الحاسم ألا نرد على هذه الحجج، وألا نبرز بأي حال أي علاقة للدين بالسياسة. وتم بسرعة وكفاءة سحب ملصق انتخابي فيه صورة للزعيم وهو يصلي كان طبعه بعض أنصارنا دون استشارة مكتب القرار.

كانت علاقتنا بالمسألة الدينية لا تتعدى القانون الذي يدين الاستهزاء بالأديان. وهو ينص على أن المقصود بالاستهزاء إثارة الضحك لدى المستهزئين ومن يوافقهم الرأي «بالترافق» مع إثارة الغيظ عند من يخالفهم. وبهذا خرجت من نص القانون الكتب الفلسفية والحوارات الفكرية، وخرجت الروايات التي تصور أشخاصاً يخالفون ديناً من الأديان دون أن ترد فيها عبارات سخرية تستجلب ضحكاً، فإن استجلبت غيظاً فقط فهذا لا يكفي للإدانة. وكان بين أعضاء حزبنا: المتدين وغير المتدين، والمسلم والمسيحي.

نزل الملكيون في قائمة باسم «حماة العرش»، وخشينا على الصوت المسيحي أن ينحرف باتجاههم، وكذا الحال بالنسبة للصوت الشركسي، من باب الذكريات الطيبة للأقليات مع العائلة الهاشمية. لم تكن في نظامنا الانتخابي المقر نيابياً كوتا لا للمسيحيين ولا للشركس. ولم يكن القانون ليمنع نشوء حزب شركسي، ونشأ في هذا الموسم الانتخابي حزب شركسي، ولا مبرر لمنع نشوء حزب على خلفية دينية مع وجود جماعة الحق الإسلامية ذات التاريخ السياسي الطويل، وتشكلت قائمة مسيحية تحت الاسم السخيف «كل الوطن». فازدادت خشيتنا من تبدد الصوت المسيحي والشركسي. لكن المرشحين المسيحيين والشركس الذين نجحوا في النهاية نالوا معظم المقاعد عن حزبنا نحن، وباءت القائمتان بصفر مقعدي، وذابتا تحت وهج مبادئنا التي لا تميز على أساس ديني أو عرقي.

خسرنا مقاعد للحزب الملكي، ولليسار، ولجماعة الحق على حد سواء. لكننا لم ننزل عن الستين بالمئة. وأصبح حزب المعارضة الرئيسي الحزب الملكي. كان مفاجأة الحفلة. وهنأ عصام الجميع، وزاد تقليده للزعيم في حركاته وسكناته. وعاد من القصر بالتكليف.

كدت أنسحب للطريقة التي استدعيت بها إلى رئاسة الوزراء أثناء مشاورات التكليف لولا أن باباتي كلمني. وتوجهت إلى الرئاسة ونلت حقيبة العدل، وترقبت على وجل حتى نالت ابتسام حقيبة وزارة التعليم والتعليم العالي، ومضت الأمور بحسب المؤامرة التي عقدناها في بيت الزعيم، وهي عموماً من صنعه وحده، وكنا متفرجين.

فاز نحو عشرة من المستقلين استقلالاً حقيقياً وسرعان ما انضموا عملياً إلينا، وضم الحزب الملكي كل المستقلين «غير المستقلين» الذين كانوا دائماً نخبة من رؤوس العشائر ووجهاء العائلات المقربين من العرش.

***

قضيت يومين في وزارة العدل التقيت خلالهما بكبار الموظفين، واخترت في اليوم الثالث أن ألتقي فردياً بمن توسمت فيهم النباهة، وشدني رجل خمسيني لديه أقدم حقيبة جلدية رأيتها في حياتي. بدا لي إذ رأيته أنه عاش حياته وهو يبحث عن طريقة ناجحة لرفع بنطلونه، فهو لا يني يرفعه واقفاً أو ماشياً. ماشيته إلى مكتبه ليعرض علي مخطط الوزارة والمحاكم والنيابة العامة. استل من حقيبته لفافة فرشها فإذا هي لوحة كبيرة ثبتها إلى الجدار وشرح في خمس دقائق الهياكل المختلفة: فها هنا

الكتاب العدول، وهناك النيابة العامة بتفريعاتها، وهنا المحكمة الدستورية العليا، والمحاكم الشرعية، وثمة أسهم تشير إلى علاقة كل شي بكل شيء. ورفع بنطلونه وهو واقف يشرح:

– معالي الوزير، نحن في الخدمة.

– هل لك أن ترشح لي ثلاثة لمنصب وكيل الوزارة.

– الوكيل السابق تقاعد طبعاً، وكان كفئاً، والقاضي محمد سعيد كفاءة عالية، والمدير العام عبد الحي كفاءة أيضاً.

– ولا ترشح نفسك.

– أنا في الرتبة كالمدير العام عبد الحي لكنه أقدم مني.

وكنت اجتمعت بعبد الحي، وهو يريد إعادة النيابة العامة إلى حضن الوزارة.. صاحب قضية واحدة تحفر ثقباً في رأسه. واخترت صائب المحامي، صاحب الحقيبة.. والبنطلون، وكيلاً.

على يدي وكيل الوزارة الجديد درست الوزارة والقضاء عن طريق السؤال والجواب. هو سهم صائب كاسمه.. ولكنه فاقد الاتجاه. حسناً، أنا عندي اتجاه، وهو استقلال القضاء. وقبل مناقشة ميزانية الدولة بنحو شهر بدأت أُحكم خطتي. نريد للجهاز القضائي ديوان محاسبة خاصاً به يتبع مجلس النواب مباشرة، ونريد رئيساً للقضاة جميعهم يقرع برأسه رأس رئيس الوزراء ولا يتبعه أي تبعية. ولكن كيف والمال بيد رئيس الوزراء ثم بيد وزير المالية ثم وزير العدل؟

أقعدت صائب المحامي بإزائي وجعلته يمر على دائرة دائرة: فهؤلاء الكاتبون العدول، ماذا يفعلون؟ ما أراهم إلا روبوتات الزمن القديم لا يعرفون لثري ولا لكبير حقاً حتى تحضر الأوراق، ولا تنفع الأوراق ما لم يحضر الشهود. ما تمضي على الواحد منهم في كرسيه سنة حتى يتداخله اعتقاد بأنه ظل السلطان عبد الحميد على الأرض وحامي حمى طابو الأراضي، جلهم شباب وفتيات درسوا المحاماة، ثم لم يحاموا عن ضعيف ولا عن قوي، بل ارتضوا أن يقعدوا حراساً لمعبد الملكية الخاصة، نَعش الله قلوبهم. فهؤلاء، أليسوا موظفي دولة؟

– يعينهم القضاء. حتى يعدلوا كما يجدر بالقضاء أن يعدل ويستقل عن السلطة التنفيذية.

– فهم عند القضاء. فماذا عن النيابة العامة؟

– ههنا مسألة. قد ذهبت النيابة العامة إلى القضاء. ولكن لعبد الحي رأياً في الأمر. فالنيابة العامة هي من يرفع قضايا الحق العام باسم المجتمع. ولا يصلح أن ترفع النيابة أمام المحاكم قضية وهي جزء من نظام المحاكم.

– فهي تعود إلى الدولة؟

– ولكنها قد ترفع قضية ضد الدولة. ضد وزارة، أو ضد مدير عام بحكم منصبه.

– فإذا رفع شخص إلى القضاء مباشرة قضية ضد الدولة فماذا يكون؟

– يكثر الأمر، فبدل أن تنوء الدولة بوزاراتها بقضية او اثنتين في العام ناءت بمئة قضية.

– لتنؤْ. يذهب المرء إلى محام ويرفع قضية على الوزير وليدافع كل وزير عن نفسه. النيابة العامة عند وزارة العدل كما يريد عبد الحي. وعندك «المجلس العالي لمحاكمة الوزراء»! اشطبه.. لدى كل وزير وقت فراغ كثير فليمثل أمام المحاكم مثل الناس. فماذا عن المحامين؟

– أصحاب دكاكين.

– هم قطاع خاص إذاً، هيا!

– فمن ينظم مهنة المحاماة معالي الوزير؟

– الذي ينظم مهنة الحدادة.. النقابة. هيا!

وقف وصائب ورفع بنطلونه، فمنحني هنيهة للتفكير:

– اجعل الكاتبين العدول «الكتبة العدول».

وجعلها بقلمه. وتمتم:

– كأنك قلت في مرة سابقة نريد ديوان محاسبة للجهاز القضائي!

– هذا عند القضاء. القضاء يعين من يحاسبه، ويرفع الديوان تقريراً للجنة نيابية.. مثل ديوان المحاسبة لدي رئاسة الوزراء. هيا!

– محكمة أمن الدولة؟

– عند القضاء.

– المحكمة العسكرية؟

– قضاء.

– المحاكم العشائرية؟

– أما زالت موجودة؟ هل قال أحد من المسؤولين أو حتى المفكرين فيها شيئاً؟

– الزعيم. سئل عنها فقال: عندما تزول العشائر تزول محاكمها.

– فنحن لا نذكرها بخير ولا بشر. والمحاكم الشرعية؟

– عند وزارة الأوقاف.

– بل تحول إلى القضاء. ونكلم الأوقاف كي تنتبه إلى إدارة أملاك المساجد والكنائس ففي هذا ما يشغلها وزيادة. والأوقاف تتعاون مع المخابرات في مراقبة الأئمة وهذا شيء لا نملك أن نغيره. المحاكم الشرعية والكنسية عند القضاء. ونناقش الزعيم. ما الذي جعلنا نفتح هذا الباب؟

– المسألة حساسة جداً.

– الصلح، البداية، التمييز، الاستئناف.. كل هذا عند القضاء.. مفهوم! ناقش اللوحة بشكلها الجديد مع الزملاء في الوزارة، ولنا جلسة أخرى.

واتبعنا الحلول الوسط في كثير، وأجرينا التعديلات التي تجعل الجهاز القضائي مفصولاً عن الدولة، بأحسن ما استطعنا.

جعلت في مخططي رئيس المحكمة الدستورية العليا رئيساً للجهاز القضائي كله. وهو شخص لا يحسن بي أنا أن أكلمه، ولا يحسن حتى برئيس الوزراء أن يستدعيه، بل يقابله في مكتب رئيس مجلس النواب بناء على موافقة الطرفين على الالتقاء. فأما وزير العدل، أي أنا، فلا يلتقي إلا بـ «نائب» رئيس المحكمة الدستورية العليا لإقرار الميزانية. ومكان اللقاء لن يكون مكتبي، ولا مكتبه.

وتم إعداد الخطط لكي تُبحث في الوقت المناسب، ويتم تنفيذ ما يعتمد منها نيابياً في العام المقبل. فأما في هذا العام فثمة مجال لبعض العبث.

تذكرت شيئاً أطرفني به باباتي يوماً، وهو أن ملك بريطانيا يحظر عليه دخول حجرة واحدة في كل مملكته وهي حجرة مجلس العموم. ولم يدخلها ملك منذ أربعمئة سنة. فهي لممثلي الشعب، والملك يلقي خطاب العرش من حجرة مجلس اللوردات التي تبعد عنها بضعة أمتار في المبنى نفسه.

فلن أذهب إلى نائب رئيس المحكمة الدستورية العليا، ولن يأتيني.

تذكرت رقعة أرض خلاء في حي أم السمَّاق بعمان داخل الحديقة العامة. أقمت كوخاً مقسوماً نصفين، وجعلت نصفه باللون الأسود وكتب عليه «الحكومة»، ونصفه باللون الأبيض وكتب عليه «القضاء». وللكوخ باب من كل ناحية. وفي الداخل منضدة في الوسط وكرسيان. ولا يتسع الكوخ إلا لشخصين. ودعيت الصحافة والإعلام الخاص في اليوم المشهود. وعند العاشرة صباحاً اصطفت سيارتي الرسمية في مكانها أمام الكوخ، واصطفت سيارة نائب رئيس المحكمة الدستورية في مكانها. وترجلنا معاً، كلاً من الجانب المخصص له، ودخلنا الكوخ، كلاً من الباب المخصص له.

جلسنا في الداخل متقابلين، وتداولنا في الميزانية (التي كانت قد قُتلت بحثاً في اتصالات عديدة بين الوزارة والقضاء ووزارة المالية)، كان التداول شكلياً. وبعد نصف ساعة خرجنا، كل من بابه، وركبنا وذهبنا. وانتهى لقاء أم السماق بإقرار ميزانية القضاء وإعلانها.

هكذا تم تأسيس رمز مادي يذكر الناسي من الناس بأن الحكومة والقضاء طرفان مختلفان لا يعدو أحدهما على الآخر. دخل تعبير «ميزانية أم السماق» في المصطلح السياسي.

***

لم يبد على رئيس الوزراء، عصام، أنه سعيد بإقبالي السريع على إحداث تغييرات في اختصاص وزارة العدل، ولا بحركاتي البهلوانية التي تلقيت عليها ما أستحق من سخرية. أجمل نكتة تخرج باهتة من فم ثقيل. بي رعونة مكسوة ببعض البله وبقليل من الحمق، وكلما ارتكبت حماقة انكمشتُ ولذت بالصمت.

أجلس في اجتماعات مجلس الوزراء صامتاً، عارفاً قدر نفسي. قد رفعني الحزب إلى مرتبة أعلى من التي أستحقها، ومن العدل أن أكون شكوراً.

أسوق سيارتي في ضواحي عمان ويخيل إليَّ أنني أرى على الأرصفة أكياساً منتفخة بالدنانير الذهبية، كتلك التي رأيتها صغيراً في رسوم افتح يا سمسم. هوايتي الأثيرة أن أجمع المال على طريقة التاجر القديم الذي يقعد في دكانه من الصباح إلى الغروب، يعاشر الناس ويأتيه غداؤه في سفرطاس إلى دكانه، ويقضي عمره وهو يفتح درج النقود ويغلقه على القرش والدينار. لكن الزمن تغير، فالثري الآن يؤمِّن المليون الأول ثم يكتف يديه وينظر إلى الثاني والثالث والرابع يجر أحدها الذي يليه تلقائياً. بئست العيشة.

قد انحرفت عن مثل هذا المصير بمصادفة، وها أنا أسيِّر وزارة العدل كموظف.

***

أقنع نفسي بأن خير ما أفعله أن أراقب بسرور الصناعة في بلدنا وهي تصعد، والتعليم وهو يصعد، والزراعة وهي تصعد. لكن، لا سرور لمن لا يتحرك.

كان الزعيم يتحرك، فهو كالمادة: لا وجود له بغير الحركة. كان يسلح الجيش ويدربه. ويعيش في ميادين التدريب، ويسأل أسئلة لا يعرف الجنرالات أن يسألوها. يسأل أسئلة طفل. ويسعى في صهر عناصر الجيش الذي أصبح يضم كل عناصر الشعب، وأصبح يحتوي الحرس الملكي.

بدا أن الزعيم سعيد في وضعه كوزير دفاع، يحضر اجتماعات الحكومة ويشارك فيها كما يشارك كل وزير. ويشعر بالرضا عن أداء عصام الذي رأيته مشبهاً أدائي في وزارة العدل: تسيير. ومن قال إن على رئيس الوزراء أن يكون ذا رؤية، أو أن يكون زعيماً؟

ومع انتصاف عمر الحكومة كانت البلاد قد تعودت على المخاطر المحتملة من الشمال ومن الغرب، وعاشت حياتها تنمو وتزدهر، واطمأنت القلوب. أزعجتنا حكومة إسرائيل اليمينية بمزاعمها أن هناك تهريب سلاح عبر الحدود، وشددنا في حراسة الحدود، وشددوا في مرور فلسطينيي الحواضر عبر الجسور. وهذه الجسور التي ما انفكت مفتوحة منذ مئة سنة شريان حياة لأهل الحواضر ورافد مهم لنا، فكثيرون من شباب الحواضر يدرسون عندنا ويعملون ويقيمون، ثم لا يستغنون عن زيارة حواضرهم، بعضهم يزورها كل أسبوع وبعضهم يعمل عندنا في النهار ويبيت عند أهله بالحواضر، فكان التشديد الإسرائيلي على الجسور المفتوحة مصدر إزعاج لنا ولأهل الحواضر على حد سواء.

وأزعجتنا حكومة إسرائيل عندما اشتبك قارب صيد في خليج العقبة مع خفر السواحل الإسرائيلي فقتل منهم جندي وقتل منا صياد وابنه. وقدمنا احتجاجاً وطالبنا بفتح تحقيق، وراحوا يصرخون كالعواهر في كل محفل دولي زاعمين أننا اخترقنا مياههم بقارب يحمل متفجرات. ولم يكتفوا بالصراخ.

أول الاعتداء التجني.

في صيف 2067 انتصف عمر حكومة عصام، وكاد ينقصف.

11

احتلت إسرائيل العقبة وميناءها في ساعتين. زعمت أنها تباشر التحقيق في العقبة بشأن حادثة تبادل النيران بين القاربين. ولم يبق لنا على الخليج إلا كيلومترات صفراء بلا ميناء.

تحرك عصام وحسناء دبلوماسياً. وقال المجتمع الدولي إن على إسرائيل الانسحاب الفوري وإجراء التحقيق بالتعاون معنا. وأكدت إسرائيل أنها ستنسحب فور الانتهاء من التحقيقات. اختفى الزعيم.

كان احتلالاً غريباً فلم يصب جندي إسرائيلي واحد وارتدت طلقات جنود مفرزة العقبة عن حديد دباباتهم، وانسحب جنود حامية العقبة الصغيرة إلى الجبال، واتجهت قوارب خفر السواحل التابعة لنا جنوباً ولاذت بالساحل السعودي.

أخذت حكومتنا تقارع إسرائيل بسلاح القرار الدولي، وإسرائيل تقول إنها ستنصاع له فور انتهاء التحقيقات. لكن وزير دفاعنا استغل هذه الملاسنة الدبلوماسية. بدأ يحشد جنوباً. حشد جنوداً، وحشد طعاماً وذخيرة، وحفرت الاستحكامات على الجبال التي تكتنف العقبة وإيلات الإسرائيلية المجاورة، ولم يعبأ ببعض الأصوات الانهزامية التي رددت بخفوت أن أي مواجهة ستكون كارثة علينا، وأن التصريحات الأمريكية واضحة، ولا بد لإسرائيل من سحب قواتها.

كان أثر احتلال العقبة على الصناعة فورياً، وبدأ بعد قليل يؤثر على السياحة والزراعة. كانت إسرائيل ترمي بلا شك إلى إلحاق الضرر باقتصادنا وباستقرارنا. ظلت إسرائيل ترفض أن تتحول إلى دولة محترمة حتى بعد سلام استمر عقوداً.

احتجت مصر بصوت منخفض، فهي منذ سنين تحتل السودان وتحاول أن تبلعه ويظل واقفاً في حلقها، كما أنها لن تذرف دمعة على إلحاق ضربة معنوية بحزب التكافل الأردني ستؤثر بلا شك على التكافل المصري. واحتجت الشام بصوت عال، وعرضت إرسال كتائب عبر الحدود، فقيل لها شكراً، أرسلوا مالاً إن شئتم فأما السلاح والرجال فعندنا. فأرسلوا مزيداً من بيانات التنديد بالهمجية الإسرائيلية. ونسوا إرسال المال.

مر أسبوعان كنا فيهما نبحث في مجلس الوزراء الوضع الاقتصادي، والمساعي الدولية، والحملات الإعلامية، ولم يكن أحد يفكر في الخيار العسكري، لكن الزعيم الغائب عن هذه الاجتماعات كان يحشد. ثم استدعيتُ إلى العقبة.

***

استقبلني الزعيم في مقر القيادة في بطن الجبل. كان معه ضباطه ورجال مخابراته، وكان مستريح النفس لم ينقص وزنه ولا تأثرت ملامحه. لم أملك إلا أن ألاحظ غياب التوتر عن وجهه. جعلت سؤالي عاماً:

- كيف هي الاحتمالات زعيم؟

- نصنع كل ما نستطيع.

كأنه أدرك أنني أسأل وفي ذهني استغراب من حالته النفسية الهادئة. واستأنف قبل أن أشتهي إلقاء سؤال آخر:

- نريدك في السعودية.

أخذتني سيارة إلى الحدود واستقبلتني سيارة، ثم انتقلت بالطائرة إلى الرياض، وكانت رحلة صعبة، أعدتني خير إعداد لاستقبال الخشونة المقبلة.

سعيت في دوائر القرار، حتى وصلت إلى الملك، فحييته بخادم الحرمين، واندفعت مذكراً باليد البيضاء للسعودية التي قطعت النفط عن العالم في حقبة كان النفط فيها دم العالم. واليوم، ورغم العلاقات مع إسرائيل فالسعودية تشهد عدواناً على مشارف الحرمين. و.. لا نريد مالاً ولا رجالاً. نريد تسهيلات.

كان اللقاء ودياً، ووصلت بعده إلى من يملك أن ينفذ. وبدأنا نرسل الرجال من عندنا في الطائرات المدنية إلى السعودية، وفتحت السعودية مخازن الذخيرة، وزودتنا بناقلات الجند، وبالسيارات المدنية. واتخذ جنودنا قرب «حفل» استحكاماتهم، وفتحت المسالك لحشد متواصل، وأعلن السعوديون رسمياً أن الغرض الدفاع عن الحرمين.

لم يغب عن استخبارات إسرائيل أننا حشدنا في السعودية، ولا أننا بالطبع حشدنا بضع عشرات من ألوف الجنود حول العقبة. ولكن هذه الأيام كانت أيام الدبلوماسية المحمومة لا غير، فلا اشتباك. كانت خطة الزعيم بكل بساطة أن الحشد إذا لم يتم الآن فلا يمكن أن يتم إذا وقعت معركة، فالعقبة نائية، ولن يصل إليها جندي واحد سالماً من طائرات العدو. والحشد بحد ذاته قد يأتي بالحل السلمي، فهو جيد للحرب وجيد لتحقيق السلم. منطق يفهمه تلامذة المدارس، ولكن بعض الانهزاميين أرادوا أن يأتي الحل من أمريكا، ورأوا في الحشد نذيراً بالخطر.

وإسرائيل حشدت، حشدت أسلحتها المتطورة أساساً، وحشدت جنودها في العقبة المحتلة وفي إيلات المحاذية. لكنها أخذت تصرخ في الإعلام العالمي صراخ المظلومة التي يحشد العدو ضدها. ولم تنسحب من العقبة. وبدأنا نصدر بضائعنا عبر الموانئ السعودية على بعد مئات الكيلومترات الإضافية التي لا بد أن تقطعها الشاحنات. وغزا الشحوب وجه اقتصادنا.

احتشد شعبنا وراء جيشه، ولكن شيئاً ما في أعماق نفوس الكبار في السن كان يتمنى ألا يكون هناك اشتباك. لسنا كفئاً لإسرائيل عسكرياً بأي حال. على أن الشباب تحمسوا وأقبلوا على التطوع. ولم يجد أحد من المتطوعين طريقه إلى العقبة. الحرب للجيش لا للهواة. والحرب آخر الدواء، ولن نلجأ إليها إلا مضطرين. يكفينا فخراً أننا حشدنا وبذلنا كل جهد، فإن انسحبت إسرائيل بسلام فقد انسحبت لأننا لم نقف مكتوفي الأيدي بل هددناها بإنزال خسائر جسيمة حتى لو لم نكن لها كفئاً.

عدت من السعودية بعد أسبوعين إلى العقبة، فوجدت الزعيم في مزاج سلامي، ورجوت خيراً. غير أنه لم يكف عن السؤال عن نفسية جنودنا المرابطين في حفل، وعن شتى التسهيلات والتفصيلات. استفرغني في نصف ساعة بأسئلته المتلاحقة، ثم أصدر أمره:

– نريدك في معان، ثم في الكرك، ثم في عمان.

وجلست إلى ضابطي مخابرات لاستكمال تفاصيل التكليف. وعدت والتقيت بالزعيم. وبدا لي أنه يخطط كما لو كانت الحرب ستقوم غداً، لكنه أيضاً شبه واثق من أن مجرد الحشد هو ما سينهي الأزمة.

ولم تقم الحرب غداً ولا بعد غد. فكانت رحلتي شمالاً نحو معان طيبة، ثم الكرك. وما مضى أسبوع إلا وأنا أقوم بمهمتي في عمان. كنت مجرد برغي صغير في آلة كبيرة تعد العدة لاحتمالات كثيرة. وفي هذه الأيام تعرفت عن قرب إلى هذا الجهاز الخفي الذي اسمه المخابرات. كان ولاؤها للزعيم خرافياً. لا تستقبل أمراً من أحد إلا من الزعيم، تعيش بأمر الزعيم وبأمره تموت.

رأيت عصام يسافر سفرات عقيمة إلى القاهرة ودمشق، وحسناء تسعى بين دول أوروبا. ورحت أقوم بمهمتي في عمان.

***

أحسست أنني أدخل رويداً رويداً في عقل الزعيم، هو يريد الحشد لمجرد الحشد، وبعد انتهاء الأزمة سيكون واضحاً لكل ذي عينين أنه لو لم نحشد لما حققنا شيئاً، ولن يضار الزعيم ولا الحزب، بل سيكون الزعيم الرجل الذي لم يتوان عن دفع الشر بالشر ففتح باباً للسلم بإقامة توازن رعب. لن نشن نحن الحرب.. ببساطة لأن أغوارنا مكشوفة، فلو ضربنا ضربتنا في العقبة فلن يمنعهم شيء من أن يحتلوا الأغوار، وأن يمكثوا فيها سنين في انتظار المساعي الدولية، وفي هذه السنين نتحول إلى دولة فقيرة، ولا تقوم لنا قائمة إلا بعد عقود. لكن.. كل قائد جيش وكل وزير دفاع يحب الحرب، لأنهما في الحرب يكونان أهم رجال البلد، ولئن كان الزعيم أهم رجل في البلد بدون حرب فهو يعايش الضباط وقيادات الجيش ويشعر بشعورهم. لكن، لا. الزعيم أعمق من أن يترك حساباته، ويتبع مشاعر ضباطه. ما كان ينقصني في هذه الفترة إلا أقحوانة أنتف بتلاتها: حرب، سلم، حرب، سلم.

الشارع الإسرائيلي احتشد وراء حكومته، ولن تغنينا شيئاً تلك الأصوات السلامية الضعيفة داخل إسرائيل. فقط لو قالت السعودية إنها سترد على أي هجوم إسرائيلي بالدخول في المعركة! هذا سيقوي احتمال الانسحاب السلمي. لكنها لم تقل.

كان معظم أهالي العقبة يقيمون في خيام على سفوح الجبال، وكان شبابهم وفتياتهم يساعدون الجيش متطوعين.

ظلت السفن ترسو في ميناء إيلات المصاقب للعقبة، وظلت موانئ إسرائيل على المتوسط تستقبل السفن وتودعها. ونحن ننقل بضائعنا مئات الكيلومترات قبل شحنها من ميناء صديق يقتطع جزءاً من الربح.

وجاء تصريح وزير الخارجية الأمريكي فأدهشنا. قال إن على الفرقاء التذرع بالصبر، ومنح الجهود السلمية الفرصة الكافية. إذن فهذا كل ما عند أمريكا؟ قد وضعت أوراقها على الطاولة.

وعلى الفور وضع الزعيم أوراقه.

***

عند الفجر اندفع جنودنا نحو العقبة، تغطيهم مدفعيتنا من الجبال، ومطر من الرصاص والقنابل. دخلوا العقبة بسيارات مدنية وسيارات عسكرية وبدبابات ومدرعات. دخلوها على طرق أخذت تحمرُّ بدمائهم، واستبسلوا، وترجلوا من مركباتهم ودخلوا البيوت والبنايات، واستحكموا. وزحف المدد من الجنوب، ولم يتوقف سيل الجنود ولم تفلح طائرات العدو في إسكات مدافعنا إلا قليلاً. وعند العصر كانت العقبة شبه محررة، وكان سيل من جنود العدو الأسرى يتدفق نحو الجبال. وهبط الظلام والمعارك تدور في الشوارع وفي البنايات، وفي الميناء. داس جنودنا على جثث الشهداء، ودخلوا. ولم يجروا الجرحى باتجاه المعسكر في الخارج، بل سحبوهم إلى الداخل، إلى داخل البنايات والمتاجر في العقبة. لم ينكص أحد. كلهم كانوا يتقدمون.

لم أكن على الجبهة ولكن الصورة كانت واضحة لمن يتابع أقل متابعة: هذا جيش باسل، وهؤلاء جنود استعذبوا الموت.

وعند الفجر الثاني بدأ الزحف نحو إيلات، واستبسل جنود العدو في مدينتهم. كانت الحرب في شوارع إيلات رشاشاً مقابل رشاش. وتدفقت الذخائر على جنودنا، واحتلوا البنايات وأجلوا المدنيين وأرسلوا الرجال من الإسرائيليين الأسرى – ومعظمهم يحمل رقماً عسكرياً – إلى ما وراء الجبهة. ومن العقبة تدفق الأسرى شمالاً نحو معان، وجثمت الطائرات الإسرائيلية عاجزة عن

الدخول في حرب الشوارع في إيلات. انتقل جنودنا إلى إيلات تاركين العقبة المحررة المهدمة وراءهم خالية ليس فيها مطمع لغارة جوية. كان جنودنا يموتون وجنودهم يؤسرون.

فتحت إسرائيل جبهة عند البحر الميت لقطع الطريق بين العقبة وعمان. وكانت حرب دبابات خسرناها سريعاً. ولم تفلح إسرائيل في تحرير أسير واحد. لم نتعرض لقوافل المدنيين الإسرائيليين المنطلقة من إيلات. ولم نحرص على استبقائهم للاحتماء بهم. احتمينا بالبيوت والبنايات، فإن قرروا هدمها فوق رؤوسنا فليفعلوا.

وفي ساعة هدوء بعد مضي أربعة أيام على «السمطة» ظهر الزعيم. وقال للمراسل الأجنبي: لا حاجة بنا إلى مناشدات كي ننسحب. ننسحب فوراً إلى مواقعنا قبل الأزمة، ويعود السلام، ونتفاوض بشأن التعويضات وتبادل الأسرى. وأسراهم جميعاً تحت عين الصليب الأحمر الآن. لا تسألني عن أسراهم واسأل الصليب الأحمر.

احتشدت دبابات إسرائيل في الأغوار. وجاءنا مدد مدفعي من الشام. كان شعبنا يشتعل فخراً وغضباً. وكانت حكومتنا تتصرف برزانة مصطنعة، وتخضع لأوامر الزعيم وباباتي خضوعاً تاماً. الحرب العسكرية قد تنتهي بنصر أو هزيمة، ولكننا لن نخسر الحرب الأخلاقية. لا تهيجوا الشعب، ولا ترتكبوا أي خطأ إعلامي، كانت هذه رسالة باباتي. وكنت أسعى في مهمتي التي ظننتها في بادئ الأمر مجرد تمرين لا طائل تحته، ولكنني رأيت نفسي أقدم شيئاً.

بعد تصريح الزعيم تحرك الشارع الإسرائيلي الذي كان قد أدرك أننا نحتفظ بنحو سبعمئة أسير. وتحرك وزير الخارجية الأمريكي، جاء إلى القدس، ومنها إلى عمان. ولم تقطع دباباتهم نهر الأردن. وأخيراً جاء تصريح الرئيس الأمريكي: «الانسحاب الفوري عرض لا يجوز الإغضاء عنه، وحرصنا على أمن إسرائيل هو الأولوية. وستفرض واشنطن الانسحاب فرضاً». وبسرعة صدر القرار الأممي، واضطر رئيس وزراء إسرائيل إلى أن يقبل، فلا هو قادر أن يهدم إيلات، ولا أن يدخل في حرب الأغوار التي قد نبلي فيها بلاء يشبه ما أبليناه في العقبة، ولا هو قادر على أن يواجه الحركة المضادة في شارعه.

وجاء تصريح الزعيم مجدداً: «نقبل أن نفتح باب التفاوض على تبادل الأسرى وعلى التعويضات ثم الانسحاب، وفي هذه الأثناء نتبادل قوائم الأسرى ونقارن بما عندنا وللصليب الأحمر

أن يقوم بكل ما يريد القيام به».

ومضيت في القيام بمهمتي.

كانت خشيتهم من فتح جبهة في الأغوار كخشيتنا وأكثر.

في العقبة وإيلات كانت طواقم مخابراتنا تعمل حثيثاً في منع النهب، وفي ضمان السلوك العسكري السليم. وفي ترحيل من يريد الرحيل من الإسرائيليين.

مضيت أشرف على ملاجئ الأسرى في معان والكرك بدءاً. والآن وصل كل الأسرى إلى عمان. جئت لهم بجزار يهودي يذبح كل يوم بحسب الشريعة اليهودية، وجئنا لهم بقدور جديدة لامعة كي تطبخ فيها اللحوم، بحسب شريعتهم. وزودناهم بالنبيذ والحلوى والملابس النظيفة، ونظمنا لهم اتصالات مع أهاليهم.

لم يكن أحد يعرف مكان تلك الملاجئ التي بدأ رجال المخابرات بإعدادها منذ الأسبوع الأول للأزمة. ولا أنا كنت أعرف مكان كل ملجأ، كنت أتنقل فيما بينها بصحبة ضابط مخابرات مختلف لكل ملجأ.

وجاء قرار فك الاشتباك. واتفقت قوائمنا وقوائمهم بعض الاتفاق، فقد كان في إيلات والعقبة جثث لم يتم تسليمها بعد.

***

وقف الزعيم يودع شهداءنا فوجاً بعد فوج. وخطب أمام نعوش الفوج الأخير:

– يا أولادي، ويا إخوتي. شهد الله علي وعلى ضباطكم أننا لم نقبل من جندي أن يفجر نفسه، ولم نرسل جندياً إلى الميدان إلا وأمامه فرصة للخروج سالماً. كم ضاقت صدوركم بحرصنا على سلامتكم، أنتم من فتح باب النصر، وأنتم من خاض إخوتكم الناجون على جثثكم لانتزاع الظفر. كنتم الجسر نحو النصر، كنتم من ضحى، كنتم الأشجع.

وكان صادقاً في أنه لم يرسل الجند إلى الميدان بفرصة نجاة صفرية، بعضهم أرسل وفرصة نجاته ضئيلة، وبعضهم كان يريد أن يرمي نفسه على الموت رمياً، ولكن عقيدة جيشنا العسكرية

كانت راسخة في الأذهان، نحن لا ننتحر بل نقاتل. كان الزعيم في أتون المعركة يودع جنده فوجاً بعد فوج وهم يقتحمون، يودعهم بكف مرفوعة، فهو لا يرتدي الزي العسكري، ولا يتصرف كضابط بل كقائد. والقائد القائد يحسن إرسال الفتية إلى حتفهم بارد الأعصاب.

خسرنا ألفاً مقابل مئتين. هو نصيب الشعوب الضعيفة عندما ترفع رأسها أمام الباغي. وواجهنا تمردات أسراهم باللين، وبتنقيل المتمردين من ملجأ إلى ملجأ. وأسروا مئة وخمسين من جنودنا.

وبدأت المفاوضات الصعبة. وبالطبع لم ننسحب فوراً. قلنا الانسحاب عقب توقيع الاتفاق. ووردتنا إيماءات من أحزاب عندهم بأن نتلكأ في تبادل الأسرى إلى حين الانتخابات وسقوط أحزاب اليمين. وتلكأ اليمين في الانتخابات، فالبلاد في حالة شبه حرب، وعلى الناخب الإسرائيلي أن ينتظر.

وكان انسحاب وكان تبادل أسرى. ولا حديث بالطبع عن التعويضات. لكنهم طلبوا استمرار العلاقات الدبلوماسية، فكان الجواب: نحن لم نقطعها، فهل قطعتموها ونحن في غفلة من أمرنا؟

عادت الأمور إلى مجاريها، وافتخرت حكومة اليمين عندهم بأنها جردت حملة تأديبية، وأنها حمت إيلات من الهجمة البربرية ولم تهدم فيها بيتاً، بل عاد أهل إيلات إلى منازلهم. ولا إشارة طبعاً إلى ما فعلوا في العقبة من تهديم وتقتيل. ولا انتخابات وشيكة.

***

بعد شهر من تبادل الأسرى جاء وفد من الأسرى الإسرائيليين المحررين في زيارة ودية إلى عمان. والتقاهم الزعيم. كان يتحدث إلى الرجال العشرين بالعبرية، ويتحلقون حوله كأنهم أعضاء في حزب التكافل يزور الزعيم مدينتهم. ويتحادثون ويتضاحكون، والزعيم يرد على هذا وذاك.

واستولى الذهول على الإعلام العبري، والعربي، والأردني. قالت هآرتس: يتكلم العبرية أفضل من بعض المذيعين. كان قد بدأ يتكلم مع الأسرى المحررين بعبرية أهل المشرق مظهراً الحاء والعين في كلامه، ثم لما اشتد الأخذ والعطاء مع أولئك الفتية راح يتحدث بالعامية المألوفة في إذاعاتهم وصارت حاؤه خاء وعينه همزة. صار يتكلم مثلهم. وقدموا إليه هدية: لوحة عليها رسم طاقية وفي مكان الوجه بالعربية «أيها الزعيم: كنت إنساناً» وبالعبرية استعملوا الكلمة التي بدأت

حتى مواقع اليمين تستخدمها: الزعيم، فلم يعد أحد في إسرائيل يسميه شلشامة، إشارة إلى الشامة البارزة على خده الأيسر.

ورحل الأسرى الزائرون، ورحل الفيديو إلى كل مكان.

كان واضحاً أن اليمين في إسرائيل سيتراجع انتخابياً. ولكنه أراد أن يصنع لإسرائيل شيئاً قبل الانتخابات. ليس لنفسه، وليس لغرض انتخابي حقير. بل لغرض «وطني» محض. ويمينهم كيسارهم تأتيه لحظات يفكر فيها تفكيراً وطنياً غير حزبي. ويا لغرابة ما سيصنعه اليمين الإسرائيلي!

***

أخذ الأردن يلعق جراحه. وبدا أنه أصبح أقوى. كان للملك موقف مشهود منذ الدقائق الأولى للغزو الإسرائيلي. ليس فقط لأن إسرائيل العدو رقم واحد للعرش، بل لأنه أحب الأردن أكثر مما كره الزعيم. لقد أكبر الزعيم جلالة الملك عندما وضع عرشه على الطاولة وأرغمه على التنحي عن رئاسة الوزراء. رأى الزعيم في الملك رجلاً شجاعاً. ومع الأزمة اقترب الشجاع من الشجاع، وخطب الملك في الشعب وحيا الحكومة والجيش، ولأول مرة ذكر الزعيم، وبلفظ الزعيم. لم يعد للزعتري اسم في الواقع سوى الزعيم.

خفتت أصوات كانت خرجت في لحظات سود أيام اشتداد الأزمة وقبل «السمطة»، وتوارى أصحابها أو اعتذروا. ولم يتوانَ بعضهم عن الاستمرار في السؤال: أكان الأمر يستحق ألف شهيد؟ ألم يكن هناك مخرج دبلوماسي؟

كنا نتعقب هذه الآراء الشاذة بإمعان.. ليس لمعاقبة أصحابها، بل كي نستمتع بجو الحرية الحقيقي الذي يغمر البلاد.

تبدل وجه الإعلام في الأردن منذ أول حكومة شاركنا فيها اليسار. والآن بعد مضي عشر سنين كان كل شيء في البلاد موضع انتقاد من صحفيين محترفين وغير محترفين، وكان للحزب موقع إخباري بدأه باباتي في أواخر عهد حكومة مطلوب جوهر بتمويل مني، وكان هدف الموقع تزويد المسؤولين وأصحاب القرار بالخبر الصحيح، وترسيخ مفهوم حرية الكلمة، ولا دعاية فيه للتكافل سوى أنه موقع التكافل. الخبر ثلاثون كلمة أو خمسون، والأخبار تتدفق من المحافظات في

كل ساعة، حوادث السير والقتل في صفحة كل محافظة، وأخبار الاقتصاد والحكومة والسياسة والملك في صفحة عامة، وأخبار العالم في صفحة موازية. ثلاثة أعمدة تتجدد باستمرار. الهدف: الصدق والتدفق. وقلم التحرير يتابع الوكالات ويحرر أخبارها تحريراً ذريعاً، ويتلقى أخبار المراسلين وفيديوهاتهم، ويختصرها. والمقالة مئة كلمة. فإن احتج الكاتب بأن مقالته لا يمكن أن تكون إلا في مئتي كلمة قيل له: أرسلها وسنجعلها مئة، أو اكتب في مكان آخر. نشر الموقع مقالات التكافليين واليسار والحق ومقالات كبار الكتاب والمحللين، والشرط هو الشرط. ولخص مقالات المحللين في مواقع عربية وأجنبيه.. والشرط مئة كلمة. ولأن باباتي نزيه ومتوازن فقد كان محرروه نزيهين ومتوازنين، واستولى الموقع على الجو إخبارياً. ورفض الإعلانات زمناً ثم قبلها بحياء.

فتح التكافليون محطات إذاعة وتلفزة مثلما فتح غيرهم، والإعلام مسألة خاصة لا يد للحكومة فيها، ليس للحكومة تلفزيون ولا راديو ولا وكالة أنباء. كان موقع التكافل بهمة باباتي ونقودي وكالة الأنباء المعتمدة عالمياً لأخبار الأردن. وصار الموقع يربح، ووفرت نقودي.

ظلت حكومة اليمين في إسرائيل تهذي بانتصارها الوهمي، وظلت موضع سخرية من الناخبين ومن صحافة إسرائيل. لكنها كانت تخطط لأمر قبل انصرافها. نعم، صنع اليمين الإسرائيلي شيئاً، لوجه الوطنية!

***

كان الزعيم متجهاً لزيارة قرية في غور الأردن الشمالي. وقبل أن يصل إلى القرية وقعت الكارثة.

أول خبر ورد كان من مراسل موقع التكافل في إربد. فقد جاءه في اتصال أن صاروخاً أطلق من مروحية إسرائيلية تحلق غرب النهر عند بيسان على سيارة أردنية على الطريق الوعر المؤدي إلى قرية دير أبو سعيد. ثم كان المراسل على مشارف القرية بعد ساعة، ونقل بالفيديو صورة السيارة المحترقة، ولوحة أرقامها. وصورة سيارات الإسعاف التي وصلت للتو.

وأسرع باباتي ينظر في الصور وينشر منها القليل: الصاروخ والسيارة المحترقة مع تعمية رقمها، ثم صور سيارات الإسعاف.

أكد لنا ضابط مخابرات أن السيارة المحترقة سيارة الزعيم.

بسرعة كنت مع باباتي في مقر الحزب وهو يتابع الخبر. والتحقت بنا أسماء. كانت تجلس في زاوية وهي تبكي بحرقة وبصمت، وانهارت وأخذت إلى غرفة لتستلقي على أريكة.

وجاءت صور من أمام المستشفى بإربد: وصول سيارة إسعاف. كانت الشوارع قد امتلأت بالناس، وكان الخبر قد ملأ الدنيا. ثم جاءت رسالة جعلت الدمع يطفر من عيني باباتي. وأسرعت إليه. فإذا ابتسامته تطل من خلف الدموع.

أخذني باباتي إلى زاوية الغرفة. وأراني الرسالة «أنا بخير، لا تنشروا شيئاً عن سلامتي». رسالة من الزعيم. شككت في مصدرها، فأشار باباتي إلى كلمة السر: انظر، شلشامة. هذه الكلمة علامة بيننا من أيام الغزو معناها أن الرسالة كتبها الزعيم بيده.

فرحت وكتمت فرحي. وذهبت إلى غرفة أسماء وهي بين الصحو والإغماء، وهمست لها: الأخبار طيبة. ولا تسألي. ورأت ابتسامتي، فرأيت في وجهها شعور الغريق رأى حبل النجاة ولم يمسكه بعد. نهضت، واستفسرت. قلت لها: اكتمي كل شيء حتى مشاعرك. الزعيم بخير، وصلت رسالة لباباتي. أسماء لا تعرف شلشامة ولا تعرف هذه الخرابيط. عادت تستلقي على أريكتها بين الحزن والأمل.

نشرت صورة جثة مغطاة تدخل المستشفى. فأين الجثتان الأخريان؟ ألم يكن في السيارة سائق ومرافق للزعيم؟ وفي ساعة لاحقة جاءت سيارة إسعاف وترجلت حمالتان وعلى كل منهما جثة مغطاة. وفار الشارع فوراناً. وخرجت المظاهرات. وأحاط رجال المخابرات بالمستشفى في إربد، ومنع الدخول والخروج. ووقف الناس حول المستشفى باكين يأملون أن تحدث معجزة.

في المساء نشرت هآرتس تحليلاً يفيد بأن الحكومة التي توشك أن تنصرف رأت أن الزعيم شخصياً مصدر إزعاج للدولة، ودبرت اغتياله. ثم سحب الموقع تحليله سريعاً بأمر عسكري. وصرح مسؤول إسرائيلي بأنه تم رصد اشتباك في الضفة الشرقية للنهر، وبأن قوة أردنية اشتبكت مع سيارة، وليس هناك تفاصيل.

في اليوم التالي ظهر رئيس الوزراء الإسرائيلي منتشياً يقول إن إسرائيل لا يعنيها ما يحدث بين وزير الدفاع الأردني وضباطه الذين لم يرضهم تغريره بهم في حرب عدوانية.

ولم تستطع الرقابة العسكرية الإسرائيلية أن تمنع سيل التحليلات ولا شعور الخزي لدى بعض الإسرائيليين بهذه العملية الوضيعة.

علمنا بالتفاصيل فيما بعد..

كان مرافق الزعيم قد طلب من السائق تخفيف سرعته عندما سمع هدير مروحية بعيدة. وفتح الباب وقبل أن تتوقف السيارة رمى بنفسه وسحب الزعيم وراءه إلى جانب الشارع، وتدحرجا في واد ضحل، وأصيب الزعيم بشجة في الرأس ورضوض في الكتف والركبة. ولم يصب المرافق بكثير أذى، وتواريا بين الأشجار. وقدرا أن السائق قتل. واستل الزعيم جهازه، وكتب لثقاته في المخابرات، أن ينقلوا جثتين وهميتين إلى إربد، وأن يكتموا الأمر. وبعد تردد كتب الزعيم لباباتي يطمئنه، وأغلب الظن أنه أراد طمأنة أسماء فهو أعرف الناس برقة أعصابها.

مكث الرجلان بين الأشجار ليلتهما، وفي هذه الساعات بين سقوط الصاروخ وهبوط الظلام كانت هناك اعترافات ضمنية إسرائيلية بالعملية. ثم ظهر الزعيم ومرافقه في دير أبو سعيد فجراً حيث تلقى الزعيم الضمادات اللازمة، وتحدث لمراسل موقع التكافل فنعى السائق، وروى ما حدث، دون التطرق إلى التواري بين الأشجار.

كانت جنازة السائق مناسبة للجموع كي تطالب بقطع العلاقات مع إسرائيل. وتحدث الزعيم، فنعى سائقه، ووجه كلمة إلى السفير الإسرائيلي الذي كان قد رحل تحسباً: يا سعادة السفير، لماذا رحلت، شرطتنا تحمي سفارتكم ولم ينلكم أذى، لم تستطيعوا أن تكونوا أصدقاء مخلصين، كونوا خصوماً شرفاء؟

وصرح السفير، وكانت له في الأردن صداقات لطول مكثه: لن أعود إلى الأردن. ما أشد خجلي!

نعم لقد سقطت الحكومة الإسرائيلية في الانتخابات المقبلة. ولكن الجار الغربي سيظل مصدر قلق. ولن يمر شهران حتى نشهد كارثة تحمل لغزاً، لن يكون حله في سهولة حل لغز الاعتداء الرخيص.

كانت السمطة في حزيران، وترافقت مع مناسبة مئة سنة على احتلال إسرائيل للضفة وغزة وسيناء والجولان في عام 1967. كان الزعيم في نحو السابعة والأربعين، وغدا بطلاً أسطورياً، لكن شيئاً حدث.. كارثة.. لغزاً. ما أحفل الأيام والليالي بكل غريب!

12

لا ينجيني من فتنة أسماء زوجة الزعيم إلا ذلك الشبه الذي ألمحه بينها وبين أبيها باباتي. عقدة من عقدي الكثيرة. وأسماء فاتنة جمالاً وعذوبة ورقة، فيها بساطة ولعل فيها عناداً خفياً، وفيها من أبيها شيء لم أجده في أحد من الناس مثلما وجدته فيهما. أسماء لا تشعر بأن هناك فرقاً بين إنسان وإنسان. تكلم الشغالة مثلما تكلم السيدة الثرية. هي تحبني أكثر لأنها عرفتني وهي طفلة، ولكنها أبرأ من عرفت براءة. وباباتي وسيم، وتلعب عيناه وشفتاه معاً كلما قلتُ شيئاً غبياً، ويرسل شعاعاً عابثاً من عينيه كلما ارتكبت مبالغة، فيردني بابتسامة ساحرة، وهو يحب الأذكياء ويحتمل الأغبياء، ولكنه ليس قائد رجال، هو أستاذ.

قد فارقته عبير قبل السمطة فراقاً حميداً، وأغلب ظني أنه فرش شبكته لصيد جديد، فهو يريد أن يعوض سنوات من شبابه قضاها يرعى ابنته بعد موت والدتها. وفيه وهو في السابعة والخمسين بقية من حرارة الرجل وشهوات قلبه. لا بل إن الشهوات لا تنقطع إلا بعد سن المئة والعشرين، فأما الحرارة فشيء آخر.

كنت في مخدعه نشرب الشاي وهو يسألني عن وزارة العدل سؤال من لا يريد سماع جواب. فلم أسترسل. وانتظرت أن يبوح بذات صدره.

– تلقى الزعيم اتصالاً من الرئيس الأمريكي.

مفاجأة غير بروتوكولية، فالزعيم وزير لا غير. واستأنف باباتي:

– بدا اتصالاً عادياً، اطمأن فيه على صحة الزعيم، وقال له: فقط لو كنت عرفت، ما كنت لأسمح بمثل هذا العبث. ثم أكد له صداقة بلاده للأردن، والكلام المعتاد.

– فهذا تأكيد أمريكي بأن محاولة الاغتيال إسرائيلية.

– وشيء آخر لمسه الزعيم، هو أن المخابرات الأمريكية أحيطت علماً بالمحاولة قبل وقوعها، ومن هنا قول الرئيس «فقط لو كنت عرفت».

– ولم تُعلمه مخابراته بالأمر؟

– كل مخابرات ترحب بأي شيء يقال لها، ولكنها بالطبع مستعدة دائماً لأن تنفي أنها علمت. ولعلها فعلاً أرجأت إعلام الرئيس.

– ربما بالغ الزعيم في قراءة كلام الرئيس الأمريكي.

– ربما.

مضينا نتحدث عن العلاقة مع الولايات المتحدة، وعن الأحلاف في المنطقة. ليس سهلاً الخروج من العباءة الأمريكية ما دامت إسرائيل تتدثر بها.

***

دخلت حكومة عصام سنتها الرابعة وإعمار العقبة ضمن أولوياتها وليس أكبر الأولويات، كان حزب التكافل المصري المشروع يكتسح أوساط الشباب، وأصبح اسمه حزب التضامن ولكنه ظل يشكل بؤرة توتر في علاقاتنا بمصر، وكانت لنا مع مصر والسودان علاقات اقتصادية ثمينة، وكان حزب التكافل الشامي يعمل بهدوء تحت الأرض، ولم يكن يعلم بمدى اتساع نشاطه إلا المخابرات الشامية والأردنية. وكانت للتكافل في دول الخليج بؤر حرصنا كل الحرص، بعد العون السعودي لنا في «السمطة»، على أن ننأى بأنفسنا عنها.

بخلاف ذلك كان البلد كله خلية نحل من النشاط الاقتصادي.

دعي الزعيم إلى واشنطن، وبعد مداولات في البنتاغون بشأن صفقة أسلحة اعتيادية كانت له في البيت الأبيض وقفة مع الرئيس الأمريكي، واهتمت أمريكا بأقوال صاحب الطاقية العجيبة الذي يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبلكنة أمريكية. وعاد إلى الأردن وأبلغنا في مكتب القرار بأن الغطاء

الأمريكي لم يتحسن ولم يسؤْ، وبأن علينا أن نمضي في هذا التحالف القليل الفائدة. وزار الزعيم الشام وأدى واجب الشكر على الدعم المدفعي الذي لم يُستخدم. وزار السعودية شاكراً.

ثم جاء الخبر من عصام مهاتفاً باباتي: الزعيم استقال من الوزارة. وهرعت إلى باباتي، ووجدت عصام عنده. فأين الزعيم؟

– الآن في بيته، ومعه سمسار عقاري.

كان الزعيم قد اشترى البيت الذي يسكنه في جبل عمان قرب مقر رئاسة الوزراء قبل بضع سنوات بالتقسيط. فما معنى عرضه للبيع؟ لا جواب لدى عصام ولا حتى لدى باباتي.

وفي المساء جاء الزعيم بوجهه البشوش، ومعه زوجته بوجهها الذي علته غبرة الحيرة. واجتمعنا عند باباتي. قال الزعيم:

– أحسست أنني صنعت كل ما يمكن أن أصنعه. كأنني درت دورة كاملة. أليس من حق المرء أن يستريح؟

قلت:

– طالما كنت تحثني على البقاء في الميدان!

– وما زلت أحثك. لكنني أنا يجب أن أمضي.

لم يكن الزعيم يتحرك بغير أسماء. حتى إنها في أسابيع العقبة المدلهمة ظلت تسعى طول الوقت للالتحاق به في كهفه بالجبال ولم تفلح، لكنها رافقته في زياراته الخارجية كلها بعد ذلك.باباتي: «والآن.. إلى أين؟».

– رتبت أموري في قبرص. سيكون استجماماً.

لم تصدر عنا جميعاً سوى نظرات حيرى. لم يعلن عصام الخبر على الملأ. واستوثق في تلك الجلسة من أن الزعيم لن يرجع عن قراره. ورتب مع الزعيم صيغة الإعلان الذي سيصدر صباح الغد. وقام منسحباً، وقمت أنا لأترك باباتي مع صهره وابنته.

تضاربت التحليلات. وحل في الشارع الأردني شعور بالموت. بعضهم تمنى أن يكون رحيلاً مؤقتاً، وأن يعود الزعيم مع الحملة الانتخابية بعد سنة. وبعضهم أخذ يحث خياله على توليد نظريات مؤامرة: الزعيم شعر بالخطر على حياته، الزعيم ذاهب كي يشعل النار من تحت حكام الشام. الزعيم مصاب بمرض خطير.

وملت إلى النظرية الأخيرة.

***

بعد يومين كان الأردن يمارس حياته بدون الزعيم. قد اكترى الزعيم بيتاً جبلياً في قبرص. ونعم، أخذ يستجم ويسمع الأغاني. هذه معلومات باباتي. يصعب تصديق الأمر. ولكن لكل شيء عظيم نهاية، قد لا تكون عظيمة. يسمع الأغاني!

حافظ باباتي على هدوئه، وأعانته عليه صديقته الجديدة.

مرت الأشهر ثقيلة. وكان أثقل ما فيها وزارة العدل. على أن مفهوم استقلال القضاء أصبح راسخاً. لم ينس الناس الزعيم، وأصبحت صورته وهو يصلي، ولعله لا يوجد له غيرها مثلها، أيقونة في البيوت والمتاجر، تعلق صغيرة محاطة بإطار مذهب أو مفضض، فمن شاء وضع صورة له وهو في أول الشباب، أو وهو في خطاب التشييع بعد العقبة. غدت صورته كأيقونات القديسين. ولكن الناس مضوا يعيشون همومهم اليومية.

وقبل أن يبدأ التفكير الجدي في الانتخابات المقبلة حدث ما لم يخطر ببالي.

اتصل باباتي وقال: هيا لزيارة الزعيم في قبرص. فرحت فرحة طفل، ولم يكن ممكناً لعصام، بحكم منصبه، أن يرافقنا، فالحمد لله. هو الترتيب للعودة الوشيكة إذن. وسألت باباتي عن صحة الزعيم، فقال إنه لا يشكو شيئاً، وعن أسماء: «هي الأسعد في المنتجع الجبلي القبرصي».

وصعدت بنا السيارة في الشارع المتلوي.

***

استقبلنا الزعيم بقميصه الأبيض وطاقيته الخالدة، وأسماء بفستان معرق. وجلسنا نحتسي القهوة في الشرفة أمام البيت الحجري. ثم إلى الداخل حيث عرفنا أماكن نومنا على الأرائك في

الصالة، وبعد العشاء جلسنا نتحدث عن الأردن، وعن المشاريع وعن التعليم، والزراعة، وعن مشاريعي الخاصة. وحدثنا الزعيم عن لبنان وأصدقائه اللبنانيين والشاميين الذين «كسروا أعتاب البيت لكثرة زياراتهم» بعبارة أسماء. والتكافل في لبنان أصبح ينافس في انتشاره التكافل في الشام.

في الصباح التالي خرج باباتي مع أسماء بعد الإفطار في جولة حول البيت، وعرفت من الزعيم غرض الاستزارة. ليس عودة على الإطلاق. هو سعيد بهذا الاستجمام، ولكنه لم يترك الحزب ولا ترك الهم السياسي الأردني. فماذا إذاً؟ أخرج من جيبه ورقة عليها الرقم السري:

– هنا تجد ملفات الفساد. كان يمكنني أن أرسل الرقم حاسوبياً، ولكنني أحببت أن أراكما. هنا كل شيء، القوائم والوثائق والشهادات المختلفة. ليس بوصفك وزير عدل، ولكن لأنك أحمد السلطي. هذه الملفات بحاجة إلى معالجة سريعة حتى تضمنوا، ليس فقط الفوز في الانتخابات، بل أيضاً الحفاظ على روح التكافل. المسألة ليست معاقبة الفاسدين المذكورين هنا، بل إحكام الضوابط. والأمر، بعد، لكم.

– هل تظنني أملك الصلاحيات الكافية لمعالجتها؟

– عصام أُبلغ بالأمر. وتحت تصرفك جهاز المخابرات وهيئة مكافحة الفساد. يبدو أن الحكومة لم تحسن استخدام معلومات هذه الهيئة.

– أو أنها طلبت السلامة.

– مم.

– ظننت عودتك وشيكة أيها الزعيم.

– ليس الآن. البلاد بخير. أم أنك تتخوف شيئاً؟

– بعد السمطة يا زعيم هدأت المخاوف، والشام منشغلة بنفسها، ومصر كذلك.

– ملاحقة الفساد تخلق للمرء أعداء، ولك أن ترفض هذه المهمة. هذا ليس تكليفاً، ولا تنس أنني الآن مجرد عضو في حزب التكافل. المسألة مسألة «إحكام الضوابط».

وشدد على «إحكام الضوابط». صمتُّ برهة، وهززت رأسي، وقلت في نفسي: بل هو تكليف. ثم:

– لن أقصِّر.

وحان أن تأخذني أسماء في جولة حول المنزل، فلا بد من خلوة لباباتي مع الزعيم. تريدنا أسماء أن نبقى يوماً آخر، لكننا أتينا خلسة ولا بد من عودة سريعة، وحدثتني عن نساء الجبل، وعن حمير الجبل، وعن الباعة المتجولين.

نتمشى في الممرات وبين الأشجار، هي تتكلم وأنا أختزن اللحظة في ذهني، هذه اللحظة التي جمعتني بالزعيم وهو في النزع الأخير، اللحظة التي أراد فيها، قبل أن يتوارى وراء الأفق، تقديم وصيته، والبوح بمكان الكنز لورثته. فهل سلمني في ذلك الرقم السري أمانة معينة، أم أنها فعلاً مجموعة ملفات ومعلومات وصلته من المخابرات بشأن الفساد؟

هي نقطة تحول لن يشبه ما بعدها ما قبلها. لا أدري بالضبط ما الذي تحتوي عليه الملفات.

***

كان الناس في عمان قد بدأوا ببعض التهيب يفتحون ملف الزعيم، الغايب ليس له نايب. ألم يُسقط الناخب البريطاني تشرشل وحزبه بعد أسابيع من انتصاره على هتلر؟

من انزعج من الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل أخذ يهمس بأن أصل الزعيم يهودي، أليس يتكلم العبرية بطلاقة؟ ومن سمعه يتحدث بالإنجليزية وانتبه إلى أن وجهه بهذه الشامة التي في خده الأيسر يشبه كثيراً وجه ذلك النائب الأرمني في مجلس النواب، صاغ نظرية فحواها أن الزعيم أرمني درس في الجامعة الأمريكية وساقته الأقدار إلى الأردن. ومن انتبه إلى أن جواز سفر الزعيم – وكان السمسار العقاري الذي اشترى بيت الزعيم مصدر التسريب لصورة من جواز سفره – لا يضم أصلاً كلمة الزعتري نفى عنه أن ينتسب إلى الزعاترة. وكيف بالله يكون الزعيم ابن عشيرة كبيرة تملك الأراضي الواسعة ثم لا نعرف له أقرباء؟

من كان قريباً من الزعيم قربي وسمعه يتكلم في جلسة بعيدة عن الرسميات مع باباتي لا بد أن يضع الزعيم في حوران بين الأردن والشام. ولعل أقرب التحليلات إلى الدقة أن أهل الزعيم

وأبناء قريته جميعاً أبيدوا في قرية قريبة من درعا أيام الثورة السورية، وكان والد الزعيم في المهجر، ربما يعمل في السعودية، فنجا وحده، وفي المهجر ولد له ولد بعد تلك الإبادة ببضع سنين، وكبر الولد في المهجر يسمع في مدرسته لهجة سعودية، وفي بيته لهجة أهله في حوران، وأرسل إلى بيروت للدراسة في الجامعة الأمريكية، وهذا على الأقل ثابت، ولم يكمل الشاب دراسته لأنه انشغل بقضية مخيم الزعتري وملايين اللاجئين السوريين في تركيا والأردن ولبنان. وجاء إلى الأردن شاباً في نحو العشرين، وسافر إلى أمريكا يجمع المال لقضيته، وعاد يحشد في سبيل التجنيس، والبقية ليست بحاجة إلى نظريات فهي تاريخ مشهود.

لعل الملايين التي جمعها الزعيم في أمريكا علمته أن يكون نزيهاً، والملايين تعلم المرء أن يصبح سارقاً، أو أن يصبح شريفاً.

انشغل الناس بأصل الزعيم لأنه أصبح من الماضي، وزال عنه بعض ذلك الوهج. وانشغلت أنا بمهمتي الثقيلة، فالرقم السري أفضى بي إلى ملفات الفساد لا غير. لا وصية للزعيم تخصني، بل تكليف ثقيل.

التقيت عصام قبل اجتماع الحكومة الأسبوعي، وكان على لساني سؤال واحد: ماذا سيلحق بك شخصياً من تحقيقات الفساد؟ فمال نحوي بطريقته الطبيعية وبحركة من يده، وقال: لو أن يدي سرقت قرشاً فسأقطعها. ووضحت له أن الأمر قد يطاله بشكل غير مباشر، وهذا ما لا أريده. فاعتدل وراح يحاكي حركات الزعيم: امضِ في شأنك ولا تبالِ، الفساد لا يوجد في هذا المكتب. ولك كل الدعم.

تركت للمدير العام تسيير شؤون وزارة العدل. وفتحت ملفاتي وبدأت أدرس بمعونة وكيل الوزارة صائب المحامي. ما أجمل غرامه بالتفاصيل، وبالتحقيق الدقيق! يدخل المكتب صباحاً، يرفع بنطلونه، ويهمهم. ويلقي علي ملخص دراساته الليلية.

شيء.. كالقيء.

بدأت بالأيسر، وزيرة الخارجية حسناء جريس. استدعيتها إلى مكتب احتللته في هيئة مكافحة الفساد:

– تعيين ابن أخيك في منصب بوزارتك، وهو ليس مؤهلاً، ونال امتيازات أيضاً.

– لعلك لا تعرف من هذا «الابن أخي»؟ إنه يتيم الأم وأبوه معاق. فالآن قد عرفت.

– يُقال فوراً. ويتم في غضون شهرين تسديد كل المبالغ التي تقاضاها بشكل امتيازات. هذه تسوية، وإلا فالأمر أمام القضاء.

أصيبت زميلتي الوزيرة، والصديقة، بشيء يشبه الذهول. أشاحت بوجهها، ثم نظرت في وجهي تلتمس ثغرة يمكن النفاذ منها إلى تسوية أفضل. قدحت عيناها في صخر، فنهضت متثاقلة، وتوادعنا ببرود وأدب.

وشن مختصو المختبرات غارات في يوم واحد في ساعة واحدة، على مصانع الأغذية المذكورة في الملفات، وخصوصاً تلك التي تزين منتوجاتها بختم «بضمانة وزارة التموين الأردنية». وبدأت النيابة تعد ملفات الدعاوى.

استدعيت وزير التموين، فبدأ بالصوت العالي يدفَع عن نفسه:

– تحققون في الفساد؟ هيا تفضلوا حضراتكم، أثبتوا أنني وضعت قرشاً في جيبي.

– عسل الصفصاف الذي يحمل ختم وزارتكم هو مجرد سكر، ورفع الأمر إلى وزارتكم.

– لم يُرفع إليّ.

– ومعلبات اللحوم..

– لا علم لي بها..

– الدقيق..

– لا أعلم شيئاً.

– شكراً معالي الوزير.

وأُعِدَّت توصية بإقالة الوزير فور صدور أولى الإدانات في موضوع الصناعات الغذائية.

اصطدنا ثلاثة فقط من الصغار الذين ارتشوا تحت الطاولة من شركات أجنبية. الفساد الكبير لا يعالج في أشهر تسبق الانتخابات، ولعله لا يُعالج أصلاً. ولكننا أوصينا بتبديل طاقم هيئة مكافحة الفساد.

طويت أوراقي ونحن على باب الحملة الانتخابية. كانت شعبيتي كبيرة وخصوصاً مع معالجة ملفات الفساد. فما ظهر منها للعلن شفى الصدور، وما بطن تم تكبيره. وحق للناس أن يكبروه، وإن كانوا لا يشعرون بحجم الفساد المستشري في دوائر الحكومة. ثمة فساد خفي لا تراه إلا العين الخبيرة، فإذا نظرت فيه رأيت البحر الذي لا أنت قادر على تجفيفة، ولا على تقليصه، وقصاراك أن تعبره على قارب حتى تصل إلى البر، وتطمئن إلى اليابسة تحت قدميك ثم تنثني وترى البحر ما زال بحراً، وتعيش على شاطئه راجياً ألا يطغى.

***

كنا على أبواب الانتخابات. وبعد إحراز شيء من النجاح في هز العصا للفاسدين رأى فيَّ الناس ضمير البلد. حسناً سأكونه. اجتمع باباتي بعصام، واجتمع بي، كلاً على حدة. وعندما قلت لباباتي إنني راض كل الرضا بالموقع الثالث على القائمة، شغل نفسه بزر قميصه، ثم سدد إليَّ تلك النظرة العابثة. ولم يقل شيئاً. فهل أراحه هذا القرار من مباراة خشنة بيني وبين عصام يكون فيها الحكم؟ أم أنه كان يفضل أن يصبح صبيُّهُ رئيس وزراء، أم أنه يعتقد أن عصام يجب أن يكمل ما بدأه من خطط، وأن يستكمل حياته السياسية في المنصب الأول. لم أبلُغ أن أقرأ باباتي. ولم ألتفت كثيراً إلى أنه اجتمع بعصام أولاً. لست متأكداً ما إن كان مكتب القرار في الحزب سيفضلني على عصام لو أن الأمر عرض للتصويت. ففي هذا المجلس تجري الحسابات في مجاري الأهواء والمصالح الذاتية. الساسة ليسوا أمناء على مصلحة الأمة. هم أمناء على مواقعهم. على أن باباتي ما كان ليتركنا نخوض مباراة أمام مكتب القرار، وقد سعى بيننا كي يحل المسألة قبل أن يجتمع المكتب لترتيب جديد للأسماء العشرين الأولى على القائمة.

لم يتركني باباتي أنصرف دون أن يحادثني في خططي للمستقبل، وما أريد وما لا أريد. يظل باباتي الراعي والأستاذ. وعرفت أنه لم يحن الوقت لأكون رئيس وزراء. وربما لن يحين أبداً. أنا قاعد بين كرسيين: المال، والسياسة. وليس لي أن أطمح إلى المنصب الأول وكفى. قلت لباباتي: «وزارة العدل إن تيسر ذلك، وتتبعها هيئة مكافحة الفساد بدل أن تتبع رئاسة الوزراء». سيكون في

هذا بعض غمز لعصام. واستفسرت عن التعليم: هل أضمن بقاء ابتسام؟ باباتي لا يضمن شيئاً. وخشيت أن يعاقبني عصام على ضم هيئة مكافحة الفساد بإزاحة ابتسام من التعليم. فقررت إرجاء ضم الهيئة، إلى ما بعد تشكيل الوزارة. وافق باباتي على أن هذا حصيف.

***

لا، لم نستفد كثيراً من السمطة (الانتصار على الغزو الإسرائيلي) في حملتنا الانتخابية، فالذي انتصر أصبح الإمام الغائب الذي لا ترتجى له عودة. ولم تفدنا بعض الشعارات الرديئة التي فاخرتْ بأن التكافل يخلق أردناً جديداً. سئلت في الحملة عن الفساد كثيراً وكنت متحفظاً. لكنني وضعت نفسي في قالب من تهمه مصلحة البلد. الناس يعرفون أنني من كبار الأثرياء، لكنهم يعرفون أيضاً أنني أسكن شقة في عمارة، وكثيرون عرفوا أنني لا أتقاضى مرتبي بل أحوله إلى خزينة الدولة. وبالطبع لم أكن أجيب عن أي سؤال في هذا الصدد، بل أكتفي بالقول إنني أعيش مرتاحاً. وأن يأتيك المدح من غيرك أوقع من أن يخرج من فمك.

وكانت الانتخابات وجاءت النتيجة، وازداد عدد مقاعدنا في مجلس النواب بضعة مقاعد، ليس لأن الشعب يرانا رائعين، بل لأن الآخرين لم يقدموا برامج مختلفة، كلهم قدم برنامجنا نحن، وأحياناً بكلماتنا نحن. وأشرق وجه عصام في ليلة إعلان النتائج، واستدعي إلى القصر الذي تنفس فيما أتوقع الصعداء لأنني لم أكن أنا المدعو.

وكلفت بالعدل، وكلفت ابتسام بالتعليم، وعادت حسناء إلى الخارجية. أما وزير التموين السابق فكان منشغلاً بأعداد دفاعه أمام المحكمة عن تهمة الإهمال. بعد التشكيل مباشرة جاءني اتصال من حسناء:

– فقط، أردت أن أقول شكراً.

كانت زلتها محدودة استوجبت التعزير لا غير. وكان سلوكي وأنا أسعى نحو الأربعين من العمر قد بارح الرعونة واستقبل الحكمة، ولكن بعض البله وبعض الحمق سيلازمانني طويلاً. لم يخلق الله الناس كلهم بشخصية من فولاذ كشخصية الزعيم، ولا بشخصية كأنها الجدول الرقراق كشخصية باباتي. لقد خفق قلبي خفقة لاتصال حسناء، لأنها امرأة، ولأنها جميلة، ولأن عينيها جميلتان، ولأنني أحب النساء بقدر خوفي منهن.

كما نطق شعارنا الانتخابي الرديء، فنحن فعلاً نخلق الأردن خلقاً جديداً. ظلت الأردن جرداء، كاليابان تقريباً، ولكنها أخذت تعج بالخبرات.

أصبحت الفتاة المتوسطة الإقبال على التعليم تنهي السنة التاسعة إلزامياً، وقد قرأت قصصاً كثيرة بالعربية وقصصاً بالإنجليزية، وقصصاً عن التاريخ، ليس فقط عن نابليون وهتلر، بل أيضاً عن اليابان وكيف صنعت لنفسها مستقبلاً وعن ماليزيا وتصنيعها، وعن الثورة الفرنسية والأمريكية والروسية، وعن سيرة عمر بن عبد العزيز، وعن قصة الدولة الأموية وكيف بدأ التوريث في ثقافتنا. وتكون قد شاركت في فرقة موسيقى أو تمثيل أو رسم أو في الألعاب الرياضية أو في نادي الفلاسفة. ومن قال إن الفيلسوف يجب أن يكون متفوقاً في دراسته؟ ثم تمضي هذه الفتاة لتلتحق بمعهد حكومي لتصبح عازفة مشهورة، أو مغنية، أو راقصة، أو سكرتيرة، أو عاملة في مشغل، أو مؤلفة، أو شرطية.. قد تصبح عبقرية، ولكنها في الغالب تصبح نحلة شغالة في خلية المجتمع.

وقد تكون الفتاة محبة للدرس، فتكمل تحصيلها، وتصبح طبيبة أو مهندسة.

ومثل الفتاة أخوها.

والشركات والمؤسسات الجيدة لا توظف المرء على شهادته الجامعية بل على كفاءته. وكنا في وزارة العدل نجري الفحوص، والمقابلات قبل التعيين. وكل المؤسسات قبلنا وبعدنا تتبع النظام نفسه، ولا سيما الشركات الربحية. معظم الطلبة يدرسون بعد السنة التاسعة في المعاهد ومدارس الصناعة، كلهم يعرفون القراءة والكتابة والحساب والإنجليزية معرفة كافية، ثم يستزيدون مهنة. وأخذ الجيش يشذب الرجال والنساء، يضيف إليهم خبرة مهنية وتدريباً عسكرياً محدوداً. صار الجيش أكبر معهد مهني في البلد. هذا لأننا حافظنا على التجنيد الإجباري لما شهدناه مؤخراً من تهديد لأمننا.

كانت ابتسام في وزارة التعليم تمضي بعناد في ترسيخ نظام مرن يقبل التعديلات. وكانت حيلتها في الجامعات حيلة المصلوب في المسمار، كما يقول أحمد شوقي. على أن الطالب أخذ ينتقي الجامعة الجيدة لأنه عرف أن المؤسسات تفحص الناس قبل التوظيف، وأصبحت الجامعات تتحسن سلحفائياً.

وتعرض معلمو ومعلمات المدارس لدورات ولرحلات دراسية خارجية ولبرامج في المطالعة تحمل جوائز كبيرة. كانت مصانع جرزال تقدم مبلغاً محترماً يصل إلى مرتب ستة أشهر للمعلم الذي يفوز في مسابقة في المطالعة. واشتعل حب المطالعة في قلوب المعلمين. ولولا أن مجموعة من الشركات ساهمت معي لكنت خفضت قيمة الجوائز، فالإقبال هائل، وبدا أن كل معلم ومعلمة سيفوز في النهاية.

أخذنا نصدر الخبرات التعليمية بعد أن كنا نصدر المعلمين. وكان لنا في السعودية سوق جيدة. ليس في وسعنا أن نفي بكل المطلوب في هذا المجال، ولكننا كنا نخص السعودية لموقفها معنا في السمطة، ولأننا نؤمن أن المجتمع السعودي يحتاج إلينا. فهو مجتمع تقليدي ومتدين بنمط تدين يختلف عما عندنا، وهو راسخ على طريقة لا ينفع فيها إلا ما نفع عندنا: التحول التدريجي. ساعدنا في أمور تقنية بحتة، في تعليم العربية والإنجليزية والكيمياء. ليس أن السعودية ينقصها كيميائيون مهرة فجامعاتها تخرج الكثيرين منهم، ولكننا طورنا تدريس هذه المادة في المدارس. وظل يأتينا خبراء كيميائيون سعوديون ليعملوا بكفاءة عالية في الصناعات الحربية والتحويلية.

لم تنقطع علاقتي بابتسام، وترسخت بيني وبين حسناء علاقة الود، وتعودت على عصام، وعلى وزارة العدل. أصبح عبد الحي وكيلاً للوزارة، وانتقل صائب ذو البنطلون إلى هيئة مكافحة الفساد. وسارت الوزارة سيرتها.

مع بداية حكومة عصام الثانية في خريف 2069 أحسست أن أمامي سنوات أربعاً من الاستجمام، ومن التسيير. فهل سأحتمل عصام أربع سنوات أخرى؟ لقد حدث في حكومة عصام الثانية ما جعل الأردن الخبر الأول في معظم دول العالم. كان حدثاً غريباً.. سابقة تاريخية لا أقل.

13

لم ألمس القضاء العشائري، فالعشائر تضمحل وتتحول إلى حياة المدن، والأسر الكبيرة في المدن تتفكك إلى أسر صغيرة، هذا شيء يعالجه تعاقب الليل والنهار. وما لم يقتل أخ أخته، فيما كان يعرف بقضايا الشرف، فلتمضِ العشائر في حل مشكلاتها الصغيرة حتى تضمحل هي ومشكلاتها. ثم إننا لم نواجه قضية «شرف» منذ بضع سنين.

على أن المرأة ظلت تعاني سطوة الأخ والأب وحتى الأم. ولم يتسنَّ للفتيات الخروج إلى عالم العمل والاستقلال والحب واختيار الشريك إلا في المدن، وإلا عند أثرياء المدن وفقرائها، فأما سفوح جبل الحسين فظلت تحبس فتياتها عن الانطلاق. النساء يعملن في الشرطة والمخابرات، وفي كل مكان، وقوانين الأمومة معقولة. والتساوي في الأجور! نحن أحسن من غيرنا. والجمعيات النسائية صراخ كثير ومطالب لا تنتهي.

ما يعنيني من هذا؟ لا شيء. أنا أطور استثماراتي في الداخل والخارج. ولا أتبرع للجمعيات الخيرية بشيء، اليتيم والمسن والمعوق ترعاهم الدولة، فإن قصرت فلا بارك الله فيها، المدارس والمستشفيات عند الدولة وعند القطاع الخاص. لا أفتخر بمساهمتي في حملة منع التدخين، لأنني.. لم أساهم. يكفي منع التدخين في المؤسسات العامة منعاً باتاً، ورفع ضريبة التبغ. ولا حاجة لهذه الحملة المحمومة ضد التدخين. ما أفتخر به أنني أدفع للدولة الملايين بشكل ضرائب، وبأنني لا أتهرب. فأما تبرعي لمشاريع بعينها في وزارة التعليم فهذا لأنني أفعل ما أومن به. قد نشأت قارئاً لأن الثورة السورية قذفت بيتنا قبل مولدي بمكتبة كبيرة، وعلمتني المدرسة الخاصة التي وضعني أهلي فيها أن أكره المدرسة وأن أكتسب بعض الإنجليزية. لم أكن قط طالباً متفوقاً. آمنت بأن

المطالعة في الصغر تحفر عميقاً في عقل الإنسان. فساهمت في طباعة وترجمة وتأليف مئات القصص للمدارس، وجعلت للمعلمين الجوائز لكي يستكملوا ثقافتهم بالمطالعة.

تبرعاتي ليست للخير، بل لإرضاء نزعاتي الشخصية. ومصداق ذلك أن هذه القصص الكثيرة التي كتبت على نفقتي لا تحمل كلمة واحدة تشير إليّ، فما بقي موجوداً حتى اليوم من هذه القصص بلا إشارة إلى الجهة المتبرعة، فهذا ما قدمته، وما يحمل اسم الجهة المتبرعة فهو لأصحابه، وسيظل الناس يظنون أن كل قصة لا تحمل اسم جهة متبرعة هي من ميزانية وزارة التعليم، فليظنوا.

كان عملي وزيراً للعدل كالعمل الطارئ، فريلانس. وبخلاف ذلك فأنا صناعي معروف أملك تسعين بالمئة من جرزال، وثلث كفتة. ولي في الأردن، وفي نصف دستة من الدول، مصانع، ولي في الأردن وفي خمسين دولة حصتي من خمسمئة مطعم بعضها يؤدي إتاوة مقابل الاسم والإشراف وبعضها مملوك. ولأن الناس في بلدنا ما زالوا يعتقدون أن الشخص «الشبعان» آمن على أموالهم من «الجوعان» فقد ارتضوني ضميراً للدولة.

وضميري أنا هو باباتي، هذا العراقي الذي جاء بزوجته إلى عمان ليعالجها منفقاً كل ما يملك، ودفنها في عمان، ولبث لا يستطيع مفارقة قبرها يزوره في كل عيد، ويحتضن ابنته صادفاً عن النساء، حاملاً حقيبته يعطي الدروس في البيوت ومعاهد التقوية، وهو في الوقت نفسه لا ينسحب من الشأن العام. يزور العراق كل عامين أو ثلاثة ويعود بكتاب أو كتابين، وبسفط كبير من المدگوگة، ولا ينسى أن يدعوني فور عودته، فأسمع ضاده عادت ظاء، ويفتح سفط المدگوگة قائلاً: عيني! شغل بيت.

يعود باباتي من رحلته العراقية عراقياً مثلما أتى أول مرة، ويدحرج لي كرة وراء كرة من حلوى المدگوگة، ولا أحتمل أكثر من ثلاث، فأما هو فرجل حلوي، وهو يأكل في المدگوگة ذكريات النجف، ويلتهم كرة بعد كرة. لا يعنيه أن تعرف ابنته المدگوگة ولا أن تنطق الضاد ظاء. هي ابنة هذا البلد وهو يريدها أن تعيش موطنها الجديد. وهو يعيشه، غير أن المرء لا ينسى مسقط رأسه.

كانت رحلة باباتي الأخيرة إلى العراق مختلفة. كانت رحلة سياسية.

***

بدأ باباتي رحلته في الشام لطمأنة حكومتها إلى أن المنتدى الفكري المنشود لن يكون فيه من السياسة ما يدعو إلى القلق، فنحن نريد من جماعات وأحزاب التكافل في كل مكان أن تدرك أن الأردن غير الشام، غير العراق، غير الأنبار. وهدف المنتدى الأساسي بحث الفكر التكافلي الذي تبلور في الأردن بوصفه شأناً يناسب الأردن وحده. ولكل من استفاد من التجربة الأردنية أن يخوض تجربته الخاصة.

مضى باباتي إلى الأنبار فالعراق بالرسالة نفسها، واجتمع بالبرلمانيين والتكافليين ممن هم في المجالس النيابية. والأنبار صعبة لعلاقتها الخاصة بالشام وبالعراق. فهي كقرص اللحم المضطرب داخل شطائر مكدونالد تحبِسه خبزتان ويظل يشتهي أن يفر من بينهما.

لم يتسنَّ لباباتي أن يزور دولة الجبل على الساحل الشمالي لسوريا البائدة، برغم العنصر التكافلي الموجود فيها، فدولة الجبل تخوص سلسلة حروبها الأهلية الخفيفة منذ حين وكأنها ألفتها، بل كأنها أخذت تستمتع بها.

عاد باباتي من العراق بالمدگوگة طبعاً، واستقبلني في مخدعه صباحاً، ربما كي لا ألتقي بصديقته الجديدة الشابة، ليس غيرة منه بل خجلاً، فباباتي الذي اقترب من الستين يعاشر امرأة في الثلاثين. ولا ألومه، ولا ألومها. لكن ألسنة الناس طويلة، وباباتي محافظ في علاقاته.

– عيني! نحن لسنا الحزب الشيوعي السوفييتي، ولا نريد كومنترن يستنسخ حزبنا ليوزعه في دول الجوار. وغرض المنتدى المقبل أن نقول للأصدقاء، خوضوا تجاربكم. ولا خيل عندنا نهديها ولا مال، هي فقط هذه الأفكار، والكراريس التي تصلح لنا، ولا يصلح منها لغيرنا إلا ما تراه مجتمعاتهم صالحاً.

وعلى إيقاع التهام كرات الحلوى النجفية سألني باباتي عن وزارتي وعن مكافحة الفساد، فقلت القليل. ثم جاء بالشاي المر. واستدناني، وأراني صورة في جهازه. قلت وأنا أحدق:

– آه، زاد الشيب قليلاً. هذا ليس في قبرص!

– في الشام.

وتمعنت أكثر في صورة الزعيم وأسماء التي تقف بين زوجها وأبيها. وتركت باباتي يقول ما يريده دون التبرع بسؤال.

– تركا بيت قبرص منذ مدة. يقيمان الآن أساساً في لبنان، عيشة بدو رحل. يعيشان في بيوت الناس باختصار. وقد يأتيان إلى الشام، وأيضاً يقيمان في بيوت الأصدقاء. عيشة صعبة خصوصاً أن الزعيم برفقة أسماء لا تفارقه ولا يفارقها. التكافليون في لبنان والشام موجودون في كل مكان، ولكنهم لا يطفون على سطح الحياة السياسية، حتى في الأنبار والعراق موجودون بكثرة. يطلبون الأمان ويعيشون تجربتهم. ما لنا ولهم.

بدأت أحس أن الزعيم عاد إلى الحياة.

– لم تتحدث عن العراق خاصة بعد التحول السياسي المدني في إيران قبل بضع سنوات.

– العراق يحن إلى العروبة، والآن لديهم من العلمانية الوسطى مثل الذي عندنا وزيادة. والتنافر مع الأنبار تنافر تاريخي واجتماعي أكثر منه تنافراً طائفياً. ويتعاونون مع إيران في الاقتصاد، ولكن الشعب ينفر من النفوذ الإيراني، ولا يقبله إلا لأنه يحس بالتهديد من الشام والأنبار خصوصاً عندما تتقاربان. وللأنبار والشام كلتيهما علاقة بتركيا شبيهة بعلاقة العراق بإيران، وقدامى المهاجرين السوريين في تركيا يعودون مستشارين بعد أن تتزَّكوا وتترَّك أولادهم. ثمة حالة من اقتسام تركيا وإيران بلاد الهلال الخصيب كمناطق نفوذ، ونحن في الأردن لسنا بعيدين لكننا للآن نمسك العصا من وسطها. ومن يدري. هذه معادلة فوق مستوانا التخيلي. المهم أن الناس تعيش وتربي أولادها، ولولا اللغة العربية الجبارة لما كانت لنا في كل المنطقة سيادة.

لا أملُّ من محاضرات باباتي، خصوصاً أنه لا يجود بها إلا في الفلتات.

انصرفت تاركاً باباتي يثوب إلى شخصيته الأردنية.

انقضى منتدى التكافل الإقليمي بسلام، ومضى الأردن يعيش استقلاله وسيادته بهدوء، وانتصف عمر حكومة عصام بقليل من المشكلات. ولكن المشكلات طبع الزمن. وكانت القرون الماضية حبلى بمشكلة، وآن أن تنفجر.

***

صحونا على خبر قتلٍ على خلفية ما يُدعى بـ «الشرف». شيء لم يقع منذ بضع سنين. فلتتفضل وزارة الداخلية لتخليص المجرم من الأيدي الحانية لعائلته الكبيرة كي تقدمه للمحاكمة. حدث هذا في الماضي ويجب أن يحدث الآن. وصرح وزير الداخلية، ثم صرح عصام. وظلت العائلة الكبيرة تحمي المجرم، وتدعي أنها لا تعرف من هو، ولا إن كان في الأردن أم خارجه.

وخرجت أم القتيلة، وهي «غريبة»، من عائلة أخرى، جلست تنوح أمام بيتها وتنتف شعرها وتصيح على سمع المارة.. وسجل الناس كلامها وانتشر. كانت تقتعد الأرض وتحثو التراب على رأسها، وتقول في أنصاف جمل إنه دخل عليها بسكين المطبخ وخيَّرها بين أن تشرب قنينة كاملة من سم الفئران، أو أن يغرس السكين في عنقها. وتناولت محاسن السم وسكبته في حلقها، فما هان عليه أن يراها تموت دون أن يلوث سكينه بدمها فراح يطعنها بجنون في كل مكان من جسمها وهي تصيح.

شربت محاسن السم، ولم تنجُ من السكين.

ونقل الإعلام شهادات الجيران، وعرف من أين جاء سم الفئران، وضبطت السكين. ولكن من هو الفاعل: أبوها؟ أم أخوها؟ في هستيريا الأم لم تظهر الحقيقة. ويغلب على ظن رجال المخابرات أنه الأب، ولعل الابن افتدى أباه فاختفيا معاً. وقامت البلد. وسارت النساء في مظاهرات في كل مدينة. وشهدت إربد أولى القنابل الحارقة.

ثم إذا بالقنابل الحارقة تنهمر على واجهات المحلات في كل عمان، وألقيت على متاريس رجال الشرطة. جنت نساء الأردن. وأخذن يرمين بالقدور والمواعين من النوافذ، فامتلأت الأرصفة والشوارع.

في غضون يومين كنا نتصدر نشرات أخبار الدنيا. ظاهرة غريبة في الأردن. «جنون النساء» سماها بعضهم، و«ثورة النساء» سماها الأكثرون. كنت أتابع الأخبار في شقتي، وزوجتي نداء تطعم ابننا الذي ما كاد يمشي، وتَدلَّل الطفل عليها ورفض اللقمة، فانهمرت بشتائم لم أسمعها منها من قبل.

– يا حيوان، يا كذا. ترى نفسك ولداً، ياكلب، انصرف..

وكادت تصفعه في حر وجهه وهو واقف في شبه ذهول، لولا أن تدخلتُ وجعلته خلف ظهري. دخلت إلى المطبخ وبيدها طبقه وسمعت صوت الطبق يرتطم بالمجلى، والسباب يتطاير من فمها. هي ليست نداء التي عرفتها كل هذه السنوات. خرجت ابنتنا الصغيرة من حجرتها، فجاءت نداء واحتضنتها بحنان وعادت بها إلى المطبخ وبقيتا هناك تبكيان، ومن المطبخ أسمع نداء تقول: «سم فئران يا أولاد الكلب».

ومضت الليلة بخيرها وبشرها. وأنا أردد عبارات التهدئة كأنني شيخ طاعن في السن. وما بيدي حيلة.

في الصباح زرت أمي، ووجدتها في مزاج سيء، ربما كالعادة. ولكنها لم تقصر في التعبير:

– لو أن الذي مات أنا لا أبوك، أما كان يتزوج، ويعيش حياته فرحاً، وينساني. هل نسيته أنا؟ هل نسيتكم؟

منال وحدها احتفظت برباطة جأشها، لكن دون أن تفهم الذي يحدث. وكلمت ابتسام، وسألتها تفسيراً، فقالت كلمات قلائل ثم غلبتها الدموع، وقالت الكلمة نفسها: سم فئران؟

يومان مضيا ووزير الداخلية ينتقل بين أحياء عمان كدجاجة مقطوعة الرأس. واجتمعت الحكومة، ونطقت الوزيرات بكلام معقول. ودخل علينا الاجتماع نبأ: «نبش قبر محاسن. الجثة سرقت».

واشتعلت عمان طول النهار.

ثم جاء خبر في الليل كي يجعلنا فرجة الدنيا: «العثور على صديق محاسن». فقد كان الشاب نبيل الذي يدرس الهندسة في اليرموك بإربد مختفياً طول هذه الفترة، ربما في شعاب الجبال في عجلون حيث يقيم أهله.

«العثور على نبيل جثة دامية».

وبدأت تصل تفاصيل موته. وما انبلج الصباح الأغبر حتى كانت صورته منشورة وبها مكان السكين في بطنه. فقد ركز سكيناً في حديقة بيت أهله في عجلون ورمى نفسه عليه. ونشرت

ورقة انتحاره بخطه في كل مكان. خط جميل أنيق كصاحبه الوسيم. اعتذر إلى والديه، وإلى محاسن، وقال: «لو كنت أظن أنني أقدر أن أحب غير محاسن طول عمري لجربت أن أعيش، لكنها كانت عمري. أموت سعيداً بالموت، حزيناً على البلد».

ألغي مهرجان عرار السنوي المقرر بعد أسبوع في إربد، فإربد كعمان كانت تشتعل. واشتعلت عجلون. وكانت جنازة نبيل حدثاً مهيباً. وانصرف شيوخ القوم وهم يظنون، أو بالأحرى يتمنون، أن تكون هذه الخاتمة، فبعد حين ستتسلم وزارة الداخلية قاتل محاسن أو من افتدى القاتل، لا فرق. ستتسلمه إما في الأردن وإما بواسطة البوليس الدولي في أي مكان في الدنيا، ويد مخابراتنا طويلة. هكذا تمنى المسنون.

وحاولت الشرطة هذه المرة أن تهدئ الوضع في عجلون، خوفاً من اشتعال نزاع دامٍ بين العائلتين في عجلون وفي إربد. ورابط أمام كل بيت شرطي، وامتلأت الشوارع برجال المخابرات، وبرجال ونساء الشرطة.

ونبش قبر نبيل بعد يوم واحد من دفنه، وسرقت الجثة. وصرح وزير الداخلية، وصرح عصام، واستجديا التهدئة.

وحل بنا يوم السبت بعد جمعة هادئة حاولنا فيها نحن، أعني كل رجال الأردن، أن نهدئ نساءنا، وأن نظهر بمظهر النسويين الغيورين على حقوق المرأة.

بدأ السبت بشمس حامية من فجره. وحاولت عمان أن تستيقظ متثاقلة كعادتها، ولكن نساءها لم يسمحن لها أن تستيقظ، ولا أن تفتح دكاكينها. كانت المخابرات قد أبلغت الحكومة أن مسيرات السبت، بعد ثلاثة أيام من انتحار نبيل، ستكون مختلفة، وستكون كبيرة. ولم تفعل الحكومة سوى انتظار ما ستفعله نساء البلد.

وخرجن في الشوارع كالسيول، تدفقت النساء في الشوارع. من كل باب بيت كانت تخرج فتاة أو فتاتان، ومن كل باب عمارة كان يخرج سرب من نساء وفتيات. من الأحياء الفقيرة تدفقن، من المخيمات، ومن الأحياء الغنية خرجن.

وركبن إلى إربد.

لم تبق سيارة عامة ولا خاصة ولا بقي باص ولا أي شيء يسير على أربع عجلات إلا تحرك شمالاً. ومن جرش انطلقت النسوة إلى إربد. ومن عجلون انطلقن. ومن الجنوب بدأت مع أول خيوط الشمس تتحرك باصات الكرك ومعان.

كانت الإذاعات تبث أغنية قديمة يغنيها على عوده ملحن مغمور بكلمات عرار. وكانت الإذاعات تقص المقطع الأخير وتكرر بثه:

يا أردنيات إن أوديت مغتربا

فانسجنها، بأبي أنتن، أكفاني

وقلن للصحب واروا بعض أعظمه

في تل إربد أو في سفح شيحان

عسى وعلّ به يوماً مكحلة

تمر تتلو عليه حزب قرآن

وكانت المسيرات تتغنى ببعض ذلك المقطع. ثم تنطلق صرخات «يا محاسن يا شهيدة.. يا نبيل يا شهيد» بلحن خرج لتوه من أعماق التراب. لم يسمعه أحد قط قبل هذا اليوم.

كنت اتصلت في المساء بباباتي، وعلمت أن النساء سيحيين مهرجان عرار في إربد، فهو شاعر الحب، وهو الذي طلب من الأردنيات أن يتكحلن ويقرأن عليه حزب قرآن.

وتكحلن وأخذن طريق الشمال. وأخرجت لهن المطابع حزب قرآن في ورقات قليلات. كل هذا بترتيب منظمات نسائية بعضها معروف، وبعضها نشأ في الأيام الأخيرة.

سألت باباتي إن كان وجودي في إربد في هذا اليوم سيفيد في شيء، فقال: لا يقدم ولا يؤخر. فقررت أن أبقى في شقتي محاولاً قدر الإمكان أن أبحث عن مواضع الرضا القليلة في نفس زوجتي. كانت محطات تلفزيون العالم كله تبث في نقل حي ما يجري. هنا توجد ظاهرة. هنا توجد ثورة، لكنها ثورة نساء.

كان مركز الحدث الطريق من عمان إلى إربد، والهدف تل إربد حيث قبر عرار. وعلى الطريق الذي راح يتحرك بطيئاً، بسرعة لا تزيد كثيراً عن سرعة المرء راكضاً، وحيناً ماشياً، كانت السيارات والباصات تزحف كأنها الجيش الغازي. وقد تبطئ الحركة فتنزل الفتيات من باص ويمشين ثم يركبن في باص آخر أو في سيارة أخرى.. كان الطريق جمهورية مشاعية. الماء مَشاع والشطائر مَشاع. والفتيات يرتدين الأسود أو الأبيض لا شيء سوى ذلك، ولا زينة سوى شعور تهفهف وعيون تقدح شرراً وحول الأجفان كحل سميك. وتحاشى الرجال الموكب مثلما يتحاشى المرء مجنوناً بيده هراوة، إلا من سائق باص أو سيارة عمومية.

وبدأت الحشود تملأ إربد. نساء في الأربعين وفتيات في العشرين وما دون العشرين، وما بين ذلك. وران هدوء مخيف. لم يفتح أحد في إربد متجره. ولكن بيوت إربد كلها أخرجت طعامها وشرابها وفتحت قلبها فامتلأت بالغريبات من امرأة أعيتها الرحلة الطويلة، ومن فتاة أغمي عليها لفرط ما صرخت وما أحسَّت. وانتصف النهار وأحاطت النساء بتل إربد. تتقدمهن في الدوائر الضيقة النساء اللابسات مسوحاً بيضاً تلمع في عيون العدسات. كن كأنهن الساحرات بشعورهن المشعثة، ولم تبق في الأردن شرطية إلا وانتقلت إلى إربد. بالمروحيات وعلى الطرق الجانبية سيرت وزارة الدخلية كل شرطية إلى إربد.

أخذتْ ملاءة بيضاء في مساحة منزل بحديقته تتهادى فوق الرؤوس حتى وصلت إلى الدائرة الضيقة، وحملتها ذوات المسوح البيض إلى قبر عرار، أليس القائل «فانسجنها بأبي أنتن أكفاني»؟ وعلا الصراخ وسال الكحل مع الدمع، واشتعلت نساء الأردن بجنون غريب وهن يرين النسوة يتمايلن بالبكاء والصراخ والملاءة البيضاء تدخل من الباب لتكفين ضريح عرار بعد مئة وعشرين سنين من موته.

لم تنتقِ نساء الأردن الرمز عشوائياً، هذا شاعر الحرية الذي هجا النظام ولقي النفي والسجن، وكان عاشقاً، وأحب المظلومين.

ووسط دهشة الكاميرات، التي أخذت تتحرك باهتزاز غريب كأنه النذير، كان المشاهدون في بيوتهم يرون نعشاً يتهادى فوق أكف النساء. وانشقت الدوائر المحيطة بالساحة وبدأ المعلقون والمراسلون يصفون النعش الرمزي.

لكنه عندما وضع أرضاً بدا ثقله.. إنه نعش حي.

وعادت الكاميرات تهتز وتبحث بعدساتها، بعضها يصعد فيصور سماء إربد الزرقاء، وبعضها يتوه بين الأشجار البعيدة، ثم استقرت العدسات على نعش آخر يتهادى بين الجموع. وكانت الشرطيات يفتحن له الطريق ودموعهن تسيل، ومعها يسيل كحل تكحلن به جميعاً. وكان الرجال يقفون في خلف الخلف.

***

كانت النسوة يقبلن بوجوههن على النعشين المفتوحين ويصرخن صرخات مجنونة إذ يرين جثة محاسن وجثة نبيل. كانت الدوائر الخلفية تتقدم وتلقي نظرة، ثم تحكم اللابسات المسوح الطوق حول النعشين. ووسط الصراخ أخذت تعلو الأغنية «يا محاسن يا شهيدة.. يا نبيل يا شهيد» في بكائية لم تبق عند أحد دمعاً. بكى الرجال في كل الأردن وبكت النساء. كأن البلد كان يريد أن يطهر نفسه من عار قتل النساء على مدى قرون.

كان الإعياء والحر ودفق المشاعر يسقط الفتاة تلو الفتاة أرضاً فتحمل إلى الخلف للإسعاف. وتردد الخبر من دائرة إلى دائرة، ومن مراسل إلى مراسل، بأن النعشين نعشا محاسن ونبيل فعلاً. وكانت إربد كلها تهدر بهذا النشيد العجيب «يا محاسن يا شهيدة.. يا نبيل يا شهيد». وانشقت الدوائر. واهتزت الكاميرات. وزادها اهتزازاً أن النشيد أخذ ينتظم ويعلو ويرج المكان رجاً. وتتحرك الصورة في كل اتجاه كأن العدسة أم ذاهلة تبحث عن طفلها وسط الحريق.

وثبتت العدسة.

وبدا الزعيم على بعد عشرات الأمتار. كان يتقدم وئيد الخطو بين الصفين والصراخ يعلو في الموضع الذي يصل إليه، والنشيد يعلو. يتقدم ماشياً رافعاً رأسه لا يرفع يداً ولا يلتفت.

وملأ وجهه الشاشة.

وصل إلى الدائرة الضيقة، ووقف بإزاء النعشين. وأشار بتوجيه صدريهما إلى القبلة فأقبلت ساحرات المسوح يحولن النعشين بحسب إشارته. والصراخ يكاد يسقط الطير من جوها، يتخلله نواح حزين يردد النشيد «يا محاسن يا شهيدة.. يا نبيل يا شهيد».

وقف الزعيم صامتاً بلا حراك. وتبرعت مراسلة جريئة فقربت الميكروفون عسى الزعيم يقول شيئاً. ولا حراك، ولا نأمة. وخفت الصوت، ولوحت أيدي النساء بأوراق القرآن، فرفع الزعيم يديه وكبر. فكبرت النساء وراءه رافعات الأيدي إلى السماء، يلوحن بجنون. «الله أكبر» تنطلق وتكهرب الجو بأصوات نسائية لم تألفها المساجد. وقرأ الزعيم الفاتحة جهراً بصوت هادئ أبكانا كلنا في بيوتنا، هذا الصوت يأتينا بعد سنوات لم نحلم فيها بأنه سيعود.

بكى الأردن رجله الذي عاد بعد غياب، بكى صاحب الانتصار الصعب، بكى الرجل الذي قارع الملكية حتى أقامها على الصراط المستقيم.. وحافظ عليها، بكى رجلاً جاءته الشهرة ولم يسع في حياته إليها، بكى رجلاً قاد البلد بالكلمة الصادقة.. وغالباً بالصمت.

وكبر الزعيم ثانية فكبرن وراءه وهن بين العقل والجنون، وقرأ في سره. وكانت إربد تهدر بالتكبير يتموج متدرجاً كموج البحر. وصلى على النبي جاهراً. وكبر ثالثة ودعا جاهراً: رب أسكنهما جنتك زوجين، فقد كانا طاهرين، رب اجعلهما فداء لكل مظلومة ومظلوم. وكبر رابعة ودعا جاهراً: اللهم احفظ هذا البلد، واجعله واحة أمان، مثلما كان على مر الزمان. وسلم تسليمتين، واستدار يجيل نظره حتى بدت ثغرة في الدائرة، والأيدي تكاد تتخطفه ويصدها عنه هالة هيبة أحاطت به. وفتحت الشرطيات له طريق العودة. ومضى والأعين تتابعه في ذهول. واحتواه الحشد النسائي، والأصوات البحاء تنوح باستعطاف حزين: يا زعيم، يا زعيم. ثم وصل إلى حيث الرجال، ثم أذابه رجال المخابرات، ولم يعلم أحد طريقه.

دفنت محاسن ونبيل في الساحة أمام مدفن عرار، وصحا الأردن في صباح الأحد يتمطى. وأحس كل أحد بإرهاق، وبارتياح. وعادت النساء إلى المطبخ. لكنهن اكتسبن عزماً.

كانت الرسالة أكبر من الحدث، والخرافة أبهى من الحقيقة، وكان الشعب الأردني بشتى منابته وأصوله بحاجة إلى أن يبكي معاً، وإلى أن يسمع في وقت واحد قصة واحدة، حتى يصبح كالبنيان المرصوص.

***

كان العنوان الأبرز في مواقع وصحف العالم: الزعيم ما زال يحكم الأردن. وكان العنوان الذي خطر ببال كل أردني: الزعيم ما زال يحكم قلوبنا. وسألنا عن الزعيم، فقيل لنا: المخابرات التي

أجاءَته إلى إربد أعادته من حيث أتى. فها هنا عنوان آخر: الزعيم يحكم المخابرات. ولعل المخابرات برجالها، وبنسائها أيضاً، دبرت الحدث.

***

ليس الأردن مَن قدم ربع مليون قتيل في الربيع العربي الذي اغتيل بمساعدة الصديق والعدو، بل كانت سوريا. وليس مِن عمان انطلق الفاتحون لكي ينشروا الإسلام ما بين لشبونة ونهر السند، بل من الشام. وفي الشام بدأت تظهر أصابع الزعيم. ولا حيلة لحكام دمشق في رجل لا يستطيعون ترحيله ولا حبسه ولا حتى العثور عليه. أصبح الرجل بركاناً، فمن يتحكم في البركان إذا ثار؟

كان يأتيه إلى معقله في باب توما الشيخ والبطريرك، واللواء والفريق، والثري والفقير، والعلوي والشيعي، وكان يأتيه من رجال الحكم المراسيل. كلهم يسأل ماذا تريد أن تفعل لنا.. أو بنا؟. وهو يسألهم: وماذا تريدون أنتم؟

وكانت إلى يمينه رزان، المحامية التي قادت مفاوضات التقسيم الثانية وضمنت للشام منفذاً إلى البحر، ومنعت التصاق دولة الجبل بتركيا تحقيقاً لرغبة تركية ومصلحة شامية، واستخلصت النصف الباقي من حمص لدولة الشام دون دولة الجبل. تأتي راهبات معلولا فيقرأن على رأس الزعيم صلاة بالسريانية، ويطلبن أن تحمي الدولة الوجود المسيحي، ولا حل جديداً عند الزعيم سوى ما صنعناه في الأردن من تسييج القرى.

كان الزعيم وباباتي قبل سنين قد صاغا قانوناً بأن كل قرية لا تبيع قطعة من أرضها أو بيتاً من بيوتها إلا بموافقة المجلس البلدي القائم موافقة علنية، وبموافقة المجلس البلدي المقبل موافقة علنية بثلثي الأعضاء، ولا يتم البيع إلا بعد الانتظار لحصول الموافقتين، فبهذا تحمي القرية أراضيها وبيوتها من الأغراب إلا من يريدهم أهل القرية إرادة قوية.

ويطلب الجيش الشامي من الزعيم إذناً بالتحرك. ولكن الزعيم يتريث إلى حين طمأنة الحزب الحاكم الهش على حياة وأمان أقطابه وأعضائه. فتغيير الحكم بانقلاب سريع يأتي بعده – بقضاء لا يدَ لأحد فيه – تنكيل، ويأتي مع التنكيل نزيف داخلي. على أن تسلم الحكم لا بد أن يأتي قبل أي انتخابات. لا سبيل إلى مهزلة انتخابية تضاف إلى عشرات مثيلاتها في تاريخ البلاد. لا بد من

حكومةِ أمرٍ واقع تطرح برنامجاً، وتفتح المجال لمن يريد أن يطرح برنامجاً مختلفاً. لا بد من فترة تنمو فيها معارضة ذات وزن. وعلى الزعيم قبل أن يشير بتسلم الحكم أن ينظم صفوف التكافليين. ليس كافياً أن الناس أخذوا يدخلون في التكافل أفواجاً. فأين أنت يا باباتي ويا عصام أيضاً حتى تقودا عملية التنظيم الحزبي؟ رزان نزقة، وسريعة الاستجابة لكل مؤثر، ولا تحسن التجييش الحزبي.

ما أكثر الناس، وما أقل الرجال؟ وما أقل الرجال في بلد أذله حكامه على مدى بضعة أجيال فلم يبقَ فيه شامخ. ولست أدري كيف التقط الزعيم زياد، لكنني على يقين من أنه غربل بضع مئات من البشر قبل أن يستصفيه. كان زياد من النوع الذي تصفه العبارة الإنجليزية «رجل يجعل الأشياء تحدث». كان إذا اتُّفق على أمر هز رأسه وخرج من فوره ليجعله يحدث.

ما كان يمكن للبلد أن يحكم إلا بمجموعة صغيرة من صفوة الرجال والنساء قبل أن يستعيد شموخه ويتأكد من أن الهواء نقي فيفتح خياشيمه.

***

بدأت من ناحيتي أفكر برئاسة الوزراء في الأردن. فليس معقولاً أن يحكم الأفق السياسي والاجتماعي المحدود لعصام البلد فوق السنوات الثماني التي حكمها، وهو الآن لا ينتفع باليد القائدة للزعيم، وباباتي دخل في الستين. والانتخابات بعد أشهر.

لم أكلم باباتي، وقلت في نفسي: سيكلمني.. قريباً. وكلمني باباتي. وجاءني زائراً في شقتي، ففي هذا علامة. قال عندما دخل:

– لماذا تأتيني كل مرة إلى بيتي العتيق، ولا تدعوني للاستمتاع بهذه الإطلالة.

فهذه إشارة ثانية. ووقف يستمتع بالمنظر من النافذة العريضة الكاشفة. وشربنا الشاي، وجلست نداء تضحك على نفسها وعلى نساء البلد لما فعلنه قبل نحو سنة، إذ سألها باباتي ممازحاً:

– كم قنبلة حارقة ألقيتِ.. بصراحة؟

ضحكت ضحكة هيثمية، وأشارت إلى الولد الملتصق بها، وإلى البنت الجالسة في حجري. ثم أخذت الطفلين إلى الداخل.

– «ستكون انتخابات صعبة. البلد ملّ منا». قالها باباتي مسلِّماً.

– هل تشك في أننا سنحقق الخمسين بالمئة؟

– وحتى لو حققنا الخمسة والأربعين فالتحالف مع المستقلين سهل، وسنتمكن من الحفاظ على الإنجازات. هناك دول حكمها حزب واحد وبشكل ديمقراطي تام عشرين وثلاثين سنة.. في أوروبا وفي الشرق الأقصى. لسنا خجولين من أننا نحكم وسنحكم مدة طويلة. نحن من يملك المشروع، وبعد حين سيكون المشروع ملك البلد، وسيأتي من يكون أقدر منا على تطويره. لكن ليس الآن.

هذه إشارة قوية. ولم أثب على الموضوع، فباباتي ما زال رئيس الحزب، وهو معلمي، وأنا صبيُّه رغم أنني جزت الأربعين. ومرت في ذهني مسألة العمر.. أظن أنه لا مجال لأن أصنع لنفسي تاريخاً في السياسة بعد أن أتخطى الأربعين، فشباب الحزب قد شبوا عن الطوق، وسيزاحمون قريباً على المراكز العليا. إما الآن وإما تقاعد مشرف، وعودة إلى صفوف المناصرين. قال باباتي:

– لنفترض افتراضاً.. مجرد افتراض للتفاكر لا غير، أنها انتابتك فكرة نزقة، وأردت أن تنأى بنفسك. مجرد افتراض. فمن تراه رئيس وزرائنا المقبل؟

وعبثت بإبريق الشاي، غير ناظر إلى باباتي. واكتفيت بالهمهمة. فأكد:

– هو افتراض.

– كأنك تظنني سأستنكف، أم أنك تدعوني إلى الاستنكاف.

– لا، ليس هذا.

– ابتسام الصقر. لا أرى غيرها. قادت مشروع التعليم على نحو لم يكن ممكناً أن يكون حتى لو ظللت أنا في التعليم، وكان لها موقف مهم ودقيق في ثورة النساء، فقد ضبطت المدارس والمعلمات ضبطاً خلطت فيه الشدة باللين بعد انحسار الأزمة. وحان أن تترأس الحكومة امرأة.

كنت أقول هذا والقناعة تزداد في نفسي بأن ابتسام جديرة.. بل أخذت أقتنع أنها أجدر مني. لكنني أحسست بغيظ من باباتي، هو دائماً يسبقني في حساب الخطوات خطوة أو خطوتين، وكأنه

أرادني أن ألفظ الجوهرة من فمي، حتى لا تأتي من فمه هو. ما أكثر ما يبذُر باباتي فكرة في رأس محدثه ويتركها تنمو وحدها. ثم أخذ غضبي على معلمي يتراجع. وظل معلمي صامتاً وسبابته على شفتيه. فاستأنفت:

– هذا إن كان ممكناً ضبط طموح عصام. لا تنس أن الزعيم طلقنا بالثلاث الآن، وله في الشام ما يشغله.

– لم أفكر في ابتسام أبداً. ولكن، معك حق في كل ما قلت عنها.

– فقد حسمت الأمر؟

– لا، أبداً. الأولوية أنت. هذا إن لم يحدث شيء خارج عن كل حساباتنا.

– في بطنك كلام.

– هل انزعجت من سؤالي إياك عن المرشح المحتمل لو لم تكنه؟

– بدأت منزعجاً ثم أدركت أن ابتسام جديرة بحق. لكن، أنا متأكد أن عندك ما تريد إطلاعي عليه.

– الزعيم يطلبك.

لا أدري بمَ شعرت.

– يطلبك في الشام. تعرفه.. لا يصر على شيء. فقط طلبك. فإن بقيتَ هنا فلك أن تتوقع دعمي لك في مكتب القرار رئيساً للوزراء، ولكنني أؤدي رسالة وصلتني صباح اليوم من الزعيم.

– يريدني ماذا؟

– لا أدري. صاغ الأمر بصيغة غامضة، قال: ماذا لو طلبت أحمد إلى الشام؟ بالضبط بهذه الكلمات. ولم أعده بجواب سريع.

ومَن مثلي أنا في تقديم الإجابات السريعة. ألست الأحمق، ألست المغامر النزق؟ ثم إن قيادة الأردن في مرحلة تشطيب المشروع. ووضع اللمسات الأخيرة ليست مما يشرف تاريخي السياسي.

ألست من قفز من العمل الحر إلى السياسة بصدفة، ثم عدت إلى العمل الحر ثم إلى السياسة ومن وزارة إلى وزارة؟

– أذهب وألتقي بالزعيم في الشام. ونرى.

– متى؟

– غداً صباحاً.

وساد صمت. قطعه باباتي:

– لا تتأخر هناك. لن نفتح موضوع القائمة الحزبية في غيابك. لك الأولوية.

***

تفرغ لي الزعيم ساعتين من نهاره، وأشار بنقل حقيبتي إلى بيته، كي أقضي ليلة في دمشق، وأعيش أجواءها صباحاً ومساء. نعم الضيافة! الزعيم لا يصر على شيء. هو كفراشة الفاكهة يزرع بيضته في الزهرة، وتتبرعم الزهرة وتنمو إلى ثمرة وتنمو البيضة بداخلها إلى شرنقة. شرح لي ساعة عن مصاعب الشام، وساعة عن التغيير الكبير الذي يمكن إحداثه في هذا المستنقع.

وفي المساء توجهنا إلى بيته بحراسة رجال من حزب التكافل الذي بدأ يتشكل تنظيمياً بجهود زياد. فقد أصبح زياد يعقد الاجتماعات والمهرجانات في المدن والقرى، وأخذ بعض رجاله ونسائه يكشفون عما في أعماق شخصياتهم من فولاذ أو.. من حمأ مسنون. والغربلة مستمرة، ولما يتشكل مكتب قرار.

دخلنا في زقاقٍ فمه محروس برجال التكافل، ثم في بيت من حجر يقف في منتصف طريق صاعد. ثم إلى غرفة معتمة وبعدها إلى غرفة داخلية بلا نوافذ غير أن الإضاءة فيها حسنة. هذا بيت رجل جرب سقوط صاروخ على سيارته.

تلقتني أسماء بمصافحة شدت بها على يدي أكثر مما شددت، وأنا أرحم اليد الصغيرة من كفي الكبيرة عند كل مصافحة. وسألت عني أولاً ثم عن أبيها. وجلست قبالتي فأنارت الغرفة بوجهها الوضيء. قد أمعنتْ في الثلاثين الآن، ولكن فتنتها زادت. وأنا رجل أرى المرأة مخلوقاً غير

المخلوق الآخر الذي هو الرجل. أفتتن بالمرأة مدة قبل أن أبدأ بتبين ملامح عقلها. أهي طبيعتي أم تربيتي؟ وأسماء يوجد في عقلها قلب كبير. تميل بحدقتيها السوداوين باتجاه زوجها فأرى بياض عينيها.. أفتن ما فيها. ثم تصوب إليَّ سواد عينيها فيشع منهما ضوء أنوثة حارق. هذا والزعيم يخلع معطفه، ويمضي إلى الداخل هنيهة ثم يعود. ثم يطلب مساعدتها في إعداد العشاء.

ومضت دقائق قليلة ثم جيء بطبق الفول، وشيء من الجبن والزعتر والزيت.

ولم أتمالك نفسي بعد انتهاء العشاء من السؤال:

– كيف يمكنني أن أكون مفيداً؟

– بطرق كثيرة. قد حدثتك عن صعوبة العثور على الرجال. ولك في الرجال نظرة، وإنك لرجل.

– هل تراني في موقع معين؟

– ليس بعد، لكن تصلح لثلاثة أرباع المواقع القيادية، التعليم، والاقتصاد، و.. لكن المسألة في القيادة لا في الشغل اليومي. ولست أنا من يقرر موقعك، أنت من يقرره.

قامت أسماء، ورفعت المائدة وهي تلقي تحية الإيواء. وقمنا للجلوس المريح على أرائك جديدة من النوع الرخيص. وتحادثت عيوننا كثيراً وألسنتنا قليلاً. بدا لي أن الحديث عن منصب أو حتى دور سابق لأوانه. قلت:

– تركتنا على حين غرة.

– شعرت أن دوري في الأردن انتهى، وعندما أحسست أن الشام هي بؤرة الحدث القادم حللت بها. لا تنس أنني حوراني وحوران مقسومة بين البلدين.

– وأنا أردني.

– ألستم من باب سريجة؟

– هذا قبل مئة وخمسين سنة.

ومات الكلام. بدا واضحاً أن الزعيم يريدني، ويريدني أن أصنع الأشياء، وأن أكون معه. ولا حاجة للكلام، فالزعيم يعرفني، وأنا أعرفه. وتحت مظلة الزعيم أنت تفعل كل شيء حتى تصل إلى جدار الخطأ فعندئذٍ يوجهك بيد حنونة. وقطع الزعيم الصمت:

– غداً نصحو باكراً، وقبل أن نوصلك إلى المطار لنا جولة قصيرة.

وقام الزعيم ليحضر لي بطانية أتدثر بها على الكنبة، وألقى التحية. وأخذت أحاول طي جسمي الفارع بالطريقة الأقل إيذاء وقدماي تحاولان التعايش مع حافة الكنبة، وكان رأسي يقول لي: لعله يقيس الناس بنفسه. أنا لست ثورياً مثله، ولست بوهيمياً، ولا قبل لي بمثل هذه الحياة في مثل هذا المنزل المعتم.

شيَّعتنا أسماء ونحن نخرج في الصباح وحمَّلتني سترة صوف لأبيها، لا ليست من شغل يديها، فأسماء ليست صناعاً، لا في مطبخ ولا في غيره، هي امرأة حبتها الطبيعة بكل ما عند الطبيعة من الجاذبية، ولا شيء غير ذلك. لعل أسماء السلاح السري الذي يحارب به الزعيم المستحيل، هي مرفأ الأمان للزعيم. وكانت أسماء قد وضعتني في خانة «أخي الأكبر»، مما يجعلني في محضرها أحب الحياة أكثر. لي أخت أكبر مني وأعقل مني، وأكثر مني جدية وجهامة، وبي توق إلى أخت صغرى. وزقزقت أسماء بصوتها وهي تستودعني الله.

أسماء عراقية، مولودة في العراق، سماها أبوها ابن النجف «أسماء» متحدياً التعصب الطائفي. فأسماء أخت عائشة وهي زوجة الزبير حليف عائشة في معركة الجمل. لكن أسماء أردنية، تتكلم مثلنا، وعاشت حياتها في الأردن. أسماء هي المرأة التي وصفها نيتشة: تبحث عن احتواء، ولا يهمها بعد ذلك العالم. احتواها صدر أبيها، ثم حان أن تنتقل إلى صدر زوجها. وبخلاف امرأة نيتشة فلا يبدو أن الولد من همها.

وانزلقت أسماء عن ذهني مع نزولنا في الطريق منحدرين نحو فم الزقاق. كانت في انتظارنا سيارتان، ودعني الزعيم وركب إحداهما، وركبت الأخرى وفيها ضابط مخابرات يتلكم باللهجة الأردنية، ولم يكن صادف أن رأيته في الأردن، والسائق الشامي يبدو أنه من المخابرات أيضاً. أدركت أننا نسير بعكس اتجاه المطار. فهذه إذن الجولة التي وعدني الزعيم بها قبل سفري.

قال لي الضابط الأردني: نحن الآن متجهون إلى باب سريجة، إلى بيت العائلة.. لمعاليكم. وترجلنا في شارع ضيق من شوارع هذا الحي الشعبي، ودخلنا باب بيت عربي، فاستقبلتنا ساحة واسعة فيها بركة. والغرف حول الساحة، وفي الطابق الثاني غرف تدور مع الساحة. ما كنت أظن داراً كهذه قد بقيت في دمشق دون أن تتحول إلى شيء آخر غير دار.. إلى مطعم أو استديو لتسجيل حلقات تلفزيونية أو متحف. ورافقنا في الجولة بالمنزل الواسع الخالي من الأثاث رجل شامي يبدو أنه من رجال الزعيم.. وفي غرفة أرضية، جُعلت كأنها مكتب، أخرج أوراقاً قديمة، وقال: هذه أوراق طابو البيت «الحُجَّة». وهو مملوك لسعد الدين السريجاوي، والد السيد عبد الغني السريجاوي الذي ارتحل إلى الأردن منضماً للأمير عبد الله. وشرح أن البيت أصبح مملوكاً للدولة، وحتى لو طالب به أحد أفراد العائلة فهو يباع له بالثمن المخمن حسب السوق، إذ لا يوجد حصر إرث.

يبدو الأمر حقيقياً. أم هو شيء صنعته مخابرات الزعيم الشامية الوليدة المستعينة بخبرات أردنية؟ أينصب لي الزعيم هذا الفخ ولا أقع فيه. يكون الوقوع في الفخ غرارة، ويكون حمقاً، ويكون مغامرة، ويكون أيضاً شهامة. أما كان السيد العربي القديم ينخدع لمن يخدعونه، ويتغابى أمام من هم دونه، ويعطي مِن وراء ستار فلا يعرفونه. أما كان الوزير الفارسي يرى من تمام حق الخدمة أن يفتدي مليكه. فإن يكن الزعيم قد جعل نفسه خادماً للأمة، فلا غضاضة في أن أخدمه. لكن..

لكنني شقيت في اللهاث وراء الموقع الأول. حازه عصام، وها هو الآن ينهي سنة ثامنة رئيساً للوزراء، وكان من وزرائه الزعيم نفسه وأنا. وحاز الموقع الأول الزعيم لأنه الزعيم، وحازه باباتي لأنه رئيس الحزب. أَكُتب علي أن أظل التابع الأمين، وصاحب المشروعات المثمرة الذي ينجح وينجح، ويظل يصفق بجناحيه عند السفوح؟

قد جعل الزعيم نفسه شامياً وها هم يسمونه الآن «الزعيم الحوراني» في أول ورود لاسمه في التقارير الإخبارية، ثم يكتفون بإحدى الكلمتين: الزعيم أو الحوراني. ويريد أن يجعلني شامياً. أأنا صبي الزعيم حتى يأمرني أن أكون شامياً عندما يريدني شامياً. كنت صبي باباتي قضاءً غير مردود، التقطني شاباً غضاً. فهل أنا صبي كل أحد؟

ركبت طائرتي.

***

مضيت إلى باباتي في بيته. كانت صديقته الشابة جالسة تقرأ كتابها على أريكة جديدة أنيقة، وكان يحرث ملفاته على حاسوبه جالساً على الأريكة الكبيرة العتيقة التي رفع مقعدتها بحشية سمينة مجللة ببطانية من صوف. جلست بجانبه، وتحادثنا.. وأغلقت الصديقة كتابها. مثقفة، وكتاب عن تاريخ سوريا. وطفقت تتحدث بحماسة عن معاهدة التقسيم الثانية التي نالت بها دولة الشام بقية حمص ومنفذاً آخر على الساحل مقابل قطعة من محافظة إدلب.

وتناقشنا قليلاً، ثم انصرفت الشابة تكمل مطالعتها في الداخل. قلت لباباتي:

– على ذكر تاريخ سوريا، ما مدى اطلاع الزعيم على ما جرى بين عبد الناصر والقوتلي، وتسليم القوتلي سوريا لمصر كي تحكمها قبل مئة سنة؟

وأطلق باباتي ضحكة صائته وهو يرفع رأسه بانتشاء فترتد غرته الوافرة إلى يأفوخه ثم تعود لتنوس على جبينه.

لم يسألني باباتي عن رأيي الأهم. رأيي في عرض الزعيم. ورأيت أن من حقي على معلمي أن أجعله يدور دورة كاملة مثلما جعلني أدور دورة كاملة قبل رحلتي الدمشقية. فسألته عن حزبنا والحشد للحملة الانتخابية المقبلة. ثم عن اتجاه الكلام داخل مكتب القرار فيما يتعلق بـ «المرشح». ثم قال:

– لم يحدث شيء في اليومين الماضيين، ولن يحدث كلام في مكتب القرار إلا بعد أن أسمع منك.

– سأذهب إلى الشام.

عندما نزلت في مطار عمان عصر اليوم ومشيت على البلاط الرخامي، ورأيت النظام والانضباط والخدمة والدقة والنظافة قلت في نفسي: هذا الإنجاز الذي كان؛ وهناك في مطار الشام حيث الفوضى والتدافع واللغط، هناك ما سيكون. قد وضع الزعيم نفسه في المستقبل، ولن يرضى المغامر المتهور، الذي هو أنا، أن يجلس في الماضي.

أخذ باباتي يرفع شعرات حاجبية الطويلة عن عينيه. وكأنه قرر تغيير الموضوع لكي يسترد أنفاسه الذهنية:

– رأيت رزان؟

– رئيسة الجمهورية المقبلة فيما يبدو؟ لا.

– زياد؟

– نعم.

– أسمع أنه يصنع لتكافل الشام شعبية واسعة.

– يبدو أنه مقبل على الأمر بقوة، تساعده أصوله الريفية، فقد كان أهله بمبعدة عن القهر في الجيل الماضي. فيه روح الشهامة والتضحية، ولم تذبح الحرب الأهلية روح الشموخ في أهله.

– أهو درزي؟

– لا أعتقد. لا. لهجته أقرب إلى كلام أهل حلب وإدلب.

– الطريق طويل.

– الزعيم يعول على ما في البلد من بقايا صناعة. يعول على نهضة اقتصادية قوية تنتشل الروح المعنوية، وهو يؤمن بخرافة حرق المراحل. بعض الخرافات فيها من الحقيقة أكثر مما نظن. لكن التحديات الأمنية هي المشكلة الأكبر الآن.

– هل.. فكرت في موعد معين للذهاب إلى الشام؟

– غداة تعيين ابتسام مرشحة.

كأنها كانت مساومة، ولكنني كنت قد كشفت أوراقي. فحتى لو قرر باباتي، أو أجبره اتجاه مكتب القرار، على البقاء مع خيار عصام لما كان في مقدوري أن أصنع شيئاً. فقط أردت أن أمارس ضغطاً أدبياً على باباتي.

هيأت نفسي لهذه القفزة في الظلام. ورتبت الأوضاع في وزارة العدل ما وسعني. وعندما وصلني نبأ تعيين ابتسام «مرشحة» وتراجع عصام إلى المركز الثالث بعد باباتي، كانت حقائبي شبه جاهزة.

14

أهو عيد ميلادي الثالث والأربعون أم الرابع والأربعون؟ هل أعد السنة التي نحن فيها أم أعد فقط سنة الميلاد. رحت أحسب حسبة طويلة وأنا أجلس إلى مكتبي الجديد في مجمع باب توما. بل الثالث والأربعون. فماذا سيحدث في السنة المقبلة؟ ستكون من أكثر سنوات عمري حفلاً بالمفاجآت، هي قفزة في الظلام.

كنت قد حولت المال المطلوب وكتب البيت في «باب سريجة» باسمي.. باسمي الجديد في الواقع. كان جواز سفري الجديد عندهم. وعندما وصلت إلى الشام بجواز سفري الأردني، ناولني ضابط المخابرات الذي استقبلني جواز سفري الجديد، فأنا إذن أحمد يونس السريجاوي. تشرفنا! تعرفت على نفسي الجديدة. وبقي أن أعيشها.

سرعان ما اكتشفت أن الزعيم لا يجلس في مكتبه المحاذي لمكتبي إلا قليلاً. كنت كالتلميذ الذي انتقل إلى مدرسة جديدة. وجدت بيتي الواسع مؤثثاً بالضروري فقط من رخيص الأثاث. فاستكملت بعض ما ينقصني من الرخيص أيضاً.

وبدأت أرافق الزعيم في أسفاره العجيبة. لهجته وهو يكلم المخاتير والتجار والصناعيين هي لهجة أهل درعا، هي لهجة أهل حوران، هي لهجته التي أعرفها كلما تكلم بأريحية في جلسة من تلك الجلسات مع باباتي. ولهجتي لهجة أهل عمان الضواحي التي هي أقرب شيء إلى لهجة دمشق الضواحي، فأما دمشق القديمة فلها مخارج حروف شديدة الخصوصية لا يهتدي إلى مواقعها في الحنجرة إلا أهلها. لا بأس! فكم من عائلة أصلها من باب سريجة ومن القصاع ومن الميدان سكنت الضواحي قبل بضع عشرات من السنين فجاء أفراخها يتكلمون بشيء كأنه لهجة أهل عمان.

كنت يمين الزعيم، وكانت رزان تجلس في مكتبها بباب توما مع ملفاتها، وتقابل الناس من القضاة والمحامين، و.. تؤلف دستوراً. فالمحامية التي قطعت شوطاً داخل الخمسين تريد أن تصنع للشام الجديدة قوانين متينة. وكان زياد يقوم بجولاته، تراه يلتقي الزعيم في حمص أو في حماة، أو في حلب أو الرقة أو دير الزور لقاءات شبه صدفية. ثم نجلس في مجلس التآمر في باب توما بين الحين والحين.

وجاء يوم كنت فيه رسول المتآمرين إلى رئيس الجمهورية.

***

استقبلني فخامة الرئيس مدحت خطاب بلحيته المشذبة، وبعبارة «مرحباً بأهل الأردن الشقيق». واختلينا في مكتبه. بدأ بخطبة عصماء عن الشام العظيمة، ثم عن دور حزبه في الحفاظ على البلد في ظل توازن قلق، ثم عن آلاف الشهداء الذين قدمهم اتجاهه الإسلامي على مدى عقود، ثم أقر بأن النموذج الأردني كان جذاباً للغاية وبأن تغلغل حزبنا – «الذي ما كان على ما هو عليه لولا سماحة جماعة الحق في التعامل مع المعارضين» على حد قوله – كان عنصراً مهماً في المعادلة السياسية الحالية. واستمعت تاركاً محدثي يفرغ شحناته وهو مستمسك برونق منصبه الكبير. كان في نحو الخمسين، وكان في عينيه سؤال عن المستقبل المجهول، وشهوة في أن يكون له دور سياسي. لم أشر في خطبتي إلى أصله التركماني القديم، ولا هو كرر الإشارة إلى أردنيتي. غير أنني من هنا بدأت:

– فخامة الرئيس، الشام أعراق كثيرة، ومذاهب كثيرة. صحيح أن المسيحيين تركوا البلد إلا القليل، ولكن التعدد الموجود سيكون المشكلة وسيكون الحل في المرحلة المقبلة.

وبدأت بتبليغ رسالتي قبل أن يفكر في خطبة أخرى:

– كما تعلمون فالزعيم قد ظل يمتنع وبشدة عن السير في ركاب الضباط الذين فكروا ذات يوم في حكم عسكري. وله على الجيش دالة.

– قد تعلم أن أصولي من تركمان هذا البلد. تعربنا بالإسلام منذ مئات السنين، وكنا وما زلنا في موقع الوسط من هذا الشعب. تعلم أن الرئيس القوتلي كان تركمانياً أيضاً! لا تذكر الكتب هذا لأنه كان عروبياً.

– ما كنت أعلم ذلك في الواقع.

– لا أزعم أن كل تركماني يدعمني، ولكن ورائي مليونين يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. لم أذكر ذلك يوماً، ولكننا الآن بصدد تحصين البلد من خلال تمثيل كل الفئات.

لم أناقش فخامة الرئيس في شيء، وحرصت على أن يطلب بنفسه لقاء بالزعيم. فقصره الجمهوري محمي بمفرزة تدين للزعيم بولائها الكامل، ووزراؤه رواحون غداؤون على باب توما. وحزبه مفرق الكلمة إلا من نواة صلبة في حماة. ولم تكن حماة قلب حزب الحق فحسب، بل كانت عقله الشرير أيضاً، فمنها تنطلق بين الحين والحين عصابات من يسمون أنفسهم «المنتقمين» يأتون من هنا وهناك، ليرابطوا على حدود دولة الجبل فيقتلوا القرويين، أو يخطفوهم ويعرضوهم للتعذيب فالموت. وتلك النواة الصلبة لحزب الحق تزود المنتقمين بالزاد وبالمال. ولا تقر جماعة الحق في دمشق هذا الدعم الذي يقدمه أنصارها في حماة للمنتقمين، ولكنها لا تسعى في وقفه. وقد تستضيف نواة حماة عصبة من مقاتلي أحد أطراف الحرب الأهلية المستمرة في الجبل كي تسترد أنفاسها وتعود لتسعير الحرب الأهلية. قلت للرئيس:

– اجتمع الزعيم الحوراني في حماة بكبار التجار وأهل الحل والعقد، وأشير عليه بأكثر من خطة.

– مهما كان وضعنا في البلد فالرأي أن أي وضع جديد في مرحلة دقيقة يجب أن يكون بائتلاف.

لم أناقشه، فأنا رسول لا مفاوض. ثم إن هذا رجل يبحث عن دور، لا زعيم حزب متماسك يصطف وراءه الملايين كما زعم. سكتُّ وتركته يكمل كلامه:

– فمتى يزورنا السيد الحوراني؟

– أيناسب فخامتكم مثل هذا اليوم بعد أسبوع؟

فهم أنني كنت رتبت الموعد مع زعيمي، فقال: على بركة الله، وانتصب واقفاً.

لمست فيه حصافة وفهماً. على أن من كان رئيساً قد لا يرضى بمنصب أدنى.

***

«لكنه قد يرضى بدور مهم». قال لي الزعيم معقباً على فكرتي. واستأنف:

– متشددو حماة الذين يستضيفون المنتقمين من كل مكان أصحاب ثأر قديم. وقد تأسس ثأرهم على أساس طائفي، ولا قبل لنا بقمعهم مثلما كانت الأنظمة البائدة تقمعهم. في السجون قد نستطيع تأهيل أو اتقاء شر من ركب الجريمة من المنتقمين أو ممن يدعمونهم، ولو جاء هذا على يد الرئيس لكان أفضل. دولة الجبل ليست العدو، بل هي المستضعف الذي يبحث عن حضن دافئ. وكبار مجرمي العهود الماضية ماتوا أو قتلوا في معمعة الحرب، وقلة ممن بقي تعيش سنوات الخرف.

– فهل سترتب شيئاً مع الرئيس؟

– سأحاوره، وسأعلم إن كان يريد أو يستطيع أن يساعد.

كنت من بين القلائل الذين يشاركون الزعيم التفكير في معضلة الانقلاب المقبل الذي نريده أبيض.

***

قبل يومين من اللقاء بين الزعيم والرئيس التقيت بالزعيم في مكتبه في ساعة صباحية. كان قد جاء إلى المكتب قبل أن ينطلق في جولة طويلة من جولاته. دخلت المكتب بقرعة باب وتوسطته ووجدت الزعيم قد ألقى رأسه بين كفيه جالساً إلى مكتبه. منظر يندر في الحياة، وإن كان فاشياً في الأفلام.

رفع رأسه بتثاقل وأشار إلي بالجلوس.

– زعيم، ربما كان عليك أن تسكن في بيت مشرق.

– إيه، ربما.

– هذا سيساعدك وسيساعدنا.

وغيَّر مجرى الحديث:

– مشكلتي أن الناس تركوا الشام. كل من لديه علم أو رأي أو شخصية ترك الشام. عمروا ألمانيا وأمريكا، ونصف الدول العربية، وتركوا بلدهم.. إلى غير عودة. مشكلتنا أنه ما زال هناك ريف في هذا البلد.

– الريف هو الذي طلب الحرية ودفع الثمن غالياً.

– وهو الذي لم ينجح في مسعاه لطلب الحرية.

– أتقول إن وجود ريف مشكلة؟

– المدينة هي الصناعة وهي الرخاء وهي الاقتصاد النامي، وهي التصنيع الزراعي. والريف فقر وشعور بالظلم.

– ترييف المدن لم يكن الحل في مصر مثلاً.

– بل أفضل من بقاء الريف، لا سيما إن كان ترييفاً يتبعه نهوض صناعي وتعليمي. أريد من أهل الشام أن يمكثوا في الشام كي تتربى نخبة. بلد بلا نخبة ليس ببلد. هو بلد ريف، هو سيارة ليس في بطنها محرك. في زمننا، البلد الناجح مدينة كبيرة وصناعة كبيرة، وأرضه مزارع لا قرى. أنت عشت في أمريكا!

– أحاول البحث في عقلي عن نماذج فيها ريف ومدينة وحققت النهوض.

– قد لا يكون ذلك مستحيلاً. أنا لا أصوغ نظرية. ولا أخطط لتفريغ الريف تفريغاً قسرياً. لا أنا في الأولى ماركس، ولا في الثانية ستالين.

كان الزعيم يتحدث بلسان باباتي. لكن، بلسان أصيل. وفي فترة صمت دق لمساعدته، فقدمت، فطلب منها أن ترتب مع مسؤول ذكره لها كي يجد له شقة من غرفتين بين حرستا ودوما، أو في ضاحية الأسد، والأفضل بيت مستقل صغير مع سور حتى لو كان داخل حرستا. ثم التفت إليّ:

– معك حق. وأريد البيت على الطريق السريع إلى الشمال. متى اللقاء مع فخامة الرئيس؟

– الخميس ظهراً. قد نسقنا الموعد.

لقاء قمة! كيف وجنود يعلنون الولاء للزعيم يحرسون القصر الرئاسي؟ ويقيم الرئيس في قصره مستنداً فقط إلى أن الزعيم يملك من النخوة ما يمنعه من الغدر، ويملك من حسن النظر ما يجعله يُقبل على الحوار.

وغاب الزعيم ثلاث ساعات في القصر الرئاسي، وقلقنا. هاتفت مسؤولاً في المخابرات كي أطمئن إلى أن الزعيم خرج سالماً، ولا تأكيد. فمضيت باتجاه القصر وتأكدت من عدم وجود مسلحين في الداخل. واستحضرنا ثلة من خاصِّ حرس الزعيم ليحيطوا بالقصر ويعززوا الحراسة. وما كان أمامنا من شيء سوى أن نقتعد مقاعدنا في مكتب السكرتير الشخصي للرئيس، وعرفنا أنه تم إدخال المرطبات قبل دقائق فاطمأننَّا قليلاً.

خرج الزعيم والرئيس يتضاحكان، وتعانقا متوادعيْن. ومضينا مع الزعيم إلى الخارج ونحن نتنفس الصعداء.

وتوجهنا إلى مكتب الزعيم في باب توما. وطلب مني أن أرافقه في غدائه. وعلى شطيرتين حدثني بكل شيء.

***

لم يكن الرئيس مدحت الخطاب يملك من أمره شيئاً داخل جماعة الحق، فقد استولت عصبة التشدد في حماة وإدلب على القرار، وراحت تعيش في ماضي الانتقام، وتجمع المال من التجار، فضاق بها الثري وتبعها الفقير ينقر من فتات ما تلقيه إليه نقر العصافير. وكفر من بقي من جماعة الحق بالسياسة وانصرفوا إلى أشغالهم، فمنهم الأكاديمي المحبط والمحامي التائه والطبيب الذي رأى أن مهنته أولى بجهده. هؤلاء هم القلة التي لم تنخرط في التكافل، لكنها كانت ترى في حركتنا بصيص أمل حيناً، وتعود ويغمرها شك عميق في أن يحل أي شيء حسن بهذا البلد.

كان زحف التكافل حثيثاً في الأرياف، وبين فقراء المدن، وفي أوساط العلويين، وبين القلة القليلة التي بقيت في البلد من المسيحيين، وبين الدروز. وكان أبناء السنة معنا، كانوا هم الكثرة في البلد، فيهم الثراء وفيهم الفقر.. هم الشام من حيث قوة العدد، ولم يشذ منهم سوى أولئك المتشددين الذين قرروا أن خير ما يصنعونه دعم المنتقمين. كان دعاتنا يشرحون للناس في قراهم مسألة تسييج

القرى، وطرب الدروز لهذا طرباً شديداً، وطربت له الفئات المسيحية المختلفة. وكان أغنياء الشام معنا، فمرحباً بالضرائب إن جاءت وجاء معها الأمان، ولم يصحبها عسف ولا فساد. كان المتنفذون من جماعة الحق، على مدى سنين، يشركون أنفسهم غصباً في أرباح التجار والصناعيين على طريقة عرفتها سوريا عقوداً طويلة. والآن، وعقد الدولة ينفرط، أخذ الفاسدون يهربون من البلد بأموالهم، فمن بقي فقد هرَّب أمواله أمامه منتظراً اللحظة الحاسمة كي يلحق بها.

ولم يكن لدى ما يسمى بـ «التحالف الوطني» وجود حقيقي. مجموعة من المسنين الذين شهدوا في طفولتهم ثورة سوريا في الربيع العربي قبل خمسين سنة، بعضهم شارك فيها وعاش الخمسين سنة الماضية مذهولاً بما رآه من ثورة مضادة، ولم يجد لنفسه طريقاً، وبعضهم شهدها صبياً. كانوا أشبه بنادٍ يرتاده بعض الشباب ثم ينصرفون عنه.

وحل يوم الخميس وفي مسائه دعا خطيب الجامع الأموي فخامة الرئيس كي يؤم الناس في صلاة الجمعة. وانتشر الخبر، وأحس أصحاب نظرية المؤامرة بأن في الأمر مؤامرة. وكان في الأمر مؤامرة.

***

احتشد الإعلام واتجهت الأنظار. في مساء الخميس، سرَّب التكافل في مواقعه أن الزعيم أيضاً سيصلي الجمعة في المسجد الأموي. وأخذت الشام كلها تترقب شكل المصالحة المقبلة.

صعد مدحت الخطاب المنبر، وحمد وصلى وسلم، ودعا إلى السلم، ووصف ما مرت به البلاد في تاريخها من حروب أهلية، ومن اعتداء أهلها على أهلها. ثم:

– جاءنا رجل من حوران يدعو إلى السلم وإلى الأمان وإلى النهوض، جاء ووراءه ما يصدق على دعوته، فقد نهض وإخوةً له ببلد شقيق، ورأينا فعله. جاءنا ابن من أبنائنا تقي أمين، صادق الكلمة، صادق الفعل.

صمت هنيهة. فعلا التكبير، ورددته الحناجر الظمأى إلى العدل وإلى الأمان. ومضى الخطيب:

– أنقول له، كن وزيراً، كن رئيس معارضة، كن صاحب فكرة نهتدي بها؟ لا. بل نقول له: جئتنا بما يفتح طريقاً نحو المستقبل. نقول له: نحن نتبعك. اللهم اشهد أنني قد تبعته. اللهم اشهد أنني رئيسكم حتى أتم صلاتي. فإذا قضيت الصلاة بايعت، فبايعوا يرحمكم الله، فما ينكر الحق من رآه إلا وقد أخذته العزة بالإثم. اللهم قد بلغت. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، اذكروا الله يذكركم، واستغفروه يغفر لكم، واشكروه على نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون. أقمِ الصلاة.

وصلى الناس، وبايعوا. والشام تسأل، والعالم يسأل: وماذا بعد؟ وصفوها بالثورة المخملية والانقلاب الأبيض، وبخيانة الرئيس لجماعته، ولكن ياسمين الشام أخذ يفوح برائحة عطر كان حبسها عن أهل الشام سنين طويلة حتى لم يعد أهل الشام يعرفون أن للياسمين عبيراً. وكانت أول خطبة للزعيم في حماة. احتشد الناس في الميدان الرئيسي ليسمعوا الزعيم وهو يؤبن حماة القديمة التي قُتلت مرتين، ويريد بعض الناس أن يقتلوها مرة أخرى. وحدد الزعيم صفته:

– لست آمراً بل مأمور. أمرني أهل هذا البلد بأن أمنع البندقية من أن تصوب إلى أعزل، وأمرني أهل هذا البلد بأن أمنع الفساد، وبأن أخلِّي بين التاجر وسوقه، فمن كان من أهل السياسة فليأكل خبزته من مرتبه، وليترك التاجر والفلاح والصناعي وصاحب المزرعة ينشطون في أعمالهم ويشغِّلون الناس. أليس هذا هو التكافل والتراحم؟ سنبيض السجون كي تستعد لاستقبال من يرفع السلاح على الدولة. جيشكم واحد، وهو لحمايتكم.

وفي اليوم التالي في حلب، زاد الزعيم:

– لم ينجح هذا البلد تحت سلطة الحزب الواحد. وحتى يتاح للمعارضة أن تظهر، وأن تنمو، فأمامنا أشهر يحكم فيها البلد رجال ونساء تعرفونهم وتعرفون عنهم نظافة اليد وصدق العزم. ولن أحدد موعداً حتى لا أخلف.

***

نشأ نوع جديد من «مجلس قيادة الثورة». ترأسه الزعيم وكنا فيه أنا ومدحت الخطاب ورزان، وزياد، وتاجر دمشقي، وصناعي حلبي، وشاب درزي، وشاب سرياني. وكنا جميعاً من التكافل، أعضاء مضت علينا في الحزب سنوات، سوى التاجر الدمشقي فقد كان صديقاً للتكافليين

منذ ما قبل قدوم الزعيم وكان نظيف اليد، وسوى مدحت الخطاب الذي ظللنا نناديه فخامة الرئيس. وظل ولاء الجيش معقوداً للزعيم، وظل الجيش بعيداً عن السياسة.

***

عثرتُ على عفاف في ندوة بالصالحية بدمشق عُقدت في نادي الضباط. شابة في نحو الخامسة والعشرين تتلوى خصلات شعرها على غير نظام. لا تأنق ولا مكياج، ولا ابتسامات مغناجة، ولا ابتسامات غير مغناجة. وقفت تسأل. وسؤال المرء يكشف أعماق شخصيته أكثر من جوابه. وقفت لتسأل لا لتستعرض. وقفت تسأل لأنها تريد أن تعرف:

– أربعة ملايين موظف في الدولة، كان نصف رزقهم من العمل المسائي ومن الرشوة. في محاضرتك لم أجد جواباً: كيف سيكون حالهم مع محاربة الرشوة، ومع تراجع العمل الإضافي بتشغيل كثير من العاطلين؟

كان «مجلس الحكم» قد كلفني بملفي التعليم، وموظفي الدولة. وكنت أخبط خبط عشواء. وخبطت خبط عشواء في إجابتي. وطلبت عفاف الكلمة مرة أخرى، ولكن صاحب الميكروفون انحرف عنها ليعطي المجال لغيرها. وبعد سؤال استعراضي من أحد الحاضرين وقفت عفاف، فأشرتُ إلى صاحب الميكروفون ثم إليها، فتكلمت:

– أجبتني عن نواياكم، لكن ما هي خطتكم؟

– شكراً للإصرار على السؤال. ليس لدينا خطة حتى الآن.

وهزت رأسها وهي في مقعدها بامتنان للإجابة القصيرة الصريحة. حرصتُ على ألا تضيع عفاف في زحام الانصراف، فاستوقفتها عند الباب. هي معيدة في الاقتصاد بجامعة في دمشق. لم أكتف بإعطائها رقمي بل أخذت رقمها. هؤلاء الناس لا يسعون إلى السلطان، وعلى السلطان أن يسعى إليهم.

ليست تكافلية، فجعلتها تكافلية. الناس يتجمعون في أحزاب لكي يحققوا هدفاً، ولم أخض مع عفاف كثيراً في الأفكار، أدخلتها في التكافل مع أول شبح ابتسامة لمحته على شفتيها. الحمد لله، فالفتاة ليست صنماً.

في التكافل نساء كثيرات: سعاد الضخمة ذات العينين الواسعتين والخدين الممتلئين، سعاد التي كل شيء فيها كبير حتى صوتها، كانت تقود المهرجانات وتحشد الحشود، وكانت لها سطوة زعامة. ورابعة ذات القوام المعتدل والعينين اللتين تجحظان بنظرات نيرانية، كانت ناشطة قوية. وكان من بعض شغل الزعيم أن يفصل بينهما. وابتهال التي هي دهاء صرف مع رقة وطموح.

عندما احتجَّت ابتهال لدى الزعيم لغياب المرأة عن «مجلس الحكم» شاورني فأشرت عليه بعفاف أولاً وبابتهال إن رأى هو ذلك، فأما عفاف ففيها فائدة الفهم والنقاش الذي يكشف العيوب، وأما ابتهال فدخولها المجلس يحجب فرص الأخريات من ذوات اللسان الطويل والنزق. ودخلت المجلس عفاف وابتهال.

تلجأ الشركات والمؤسسات إلى شركات متخصصة في صيد المواهب، أو «صيد الرؤوس» كما يدعونه. ولا مكان لمثل هذا الصيد المنظم في مجال السياسة المضطرب. الحزب الحاكم طبق شهي لا يسقط عليه إلا الذباب. كنا في مجلس الحكم نغربل الرجال والنساء، ونسعى في تكوين نخبة تتولى الحكم حقاً. فليكن مجلس موسع، ليكن لدينا دكان كلام نصيخ السمع إلى أعضائه. وليكن اسمه الجمعية التأسيسية.

هكذا ولد مجلس الألف. مجلس ضم شتات الناس في البلد في عملية انتقاء خططنا لها بحيث نمرر في المجلس دستوراً، وبحيث تبدأ عملية التشكل الحزبي في البلد. لا كوتا للنساء، ولا للطوائف، ولا للفلاحين ولا للعمال. على أن النقابات والبلديات والمجالس القروية سدت بعض الفراغات، فلا يدخل المجلس رئيس النقابة وحده، فلا بد معه من عامل، ولا يدخل المختار المجلس وحده، بل لا بد معه من فلاح.

كانت أشهراً ممتعة ونقاشات طيبة ضمن لجان الجمعية التأسيسية التي كانت تجتمع في مدن شتى. وكنا نراقب النقاشات حتى نعرف الناس. وبرز القادة وبرز المفكرون، وبرز الانتهازيون، ومجلس الحكم يراقب.

أقيل بعض الوزراء وبقي بعضهم. وأفهم الجميع أن المرحلة مؤقتة. وداومت في مكتب وزارة التعليم التي تقاعد وزيرها. وداومت عفاف معي كأنها وكيلة الوزارة، وكان بين أيدينا أيضاً ملف موظفي الدولة كلهم، ملف الأربعة ملايين، وثلثهم من المعلمين والمعلمات.

كانت الشام تحاول أن تستيقظ كمريض أجريت له جراحة ولم يزل واقعاً تحت التخدير، يفتح عينيه ثم يغلقهما، ويرفع جذعه بطيئاً ثم تخذله قوته فيسقط على سريره، ويغفو.

ودخل عام 2074. انقضت علي في الشام أربعة أشهر. جئت إلى الشام مواطناً أردنياً تحول في المطار إلى مواطن شامي والبلد تحت حكم الرئيس خطاب، وها أنا بعد أربعة أشهر في مجلس الحكم، وبجانبي زميلي.. الرئيس خطاب.

15

لم يكن في شرايين الشام دم يكفي لصحوتها، لا بد من استثمارات خارجية. واستثمرت أنا بالطبع.. من باب الشهامة والصدق، وحتى لا تتحرك يدي بغير ما يتحرك به لساني. لم أكن أكثر إيماناً بنجاح الشام اقتصادياً في المدى القصير من المستثمرين الآخرين، حتى وإن كنت في قلب الحدث. صاحب المال يجعله المال ذكياً في تثميره، وينسى كل عواطف قلبه، ويحسب حساباته بعقله دون قلبه. على أنني لن أرى مجلس الحكم يطلب إلى الغريب والقريب أن يفتح المصانع في الشام ولا أفعل شيئاً. وضعت الأسس لمصانع جرزال للزجاج والسيراميك بالشام، فأما مطاعم كفته فكان أهل الشام يزدردون من شطائرها أكثر مما ينصح به الطبيب. وبحثت عن قرض أجنبي كبير للنهوض بصناعة السيارات التي ظلت تتعثر وتستهلك مال الدولة بدل أن ترفده، وتيسر قرض سعودي كبير على اتفاق الشراكة.

وضمنت لنا قوانين رزان أن ننهض بصناعة النسيج، لتستعيد تألقها. كان ذلك سريعاً بخلاف صناعة السيارات التي بدأت تنجح بتدرج شديد. كانت قوانين رزان تساعد كل الصناعات والفنادق والمستشفيات الخاصة. وتجمع حول رزان رجال قانون يعملون في صياغة وإعادة صياغة شتى اللوائح والضوابط والقوانين كي تتمكن الصناعات والمزارع من أن تربح وأن تدفع الضرائب. كان أصعب شيء شطب قوانين قديمة تعود الناس عليها. البند الواحد في أي قانون كان يمس حياة آلاف الناس.

فهمت الآن فقط لماذا ظلت القوانين العثمانية سارية في الدول العربية حتى بعد مئة سنة من زوال الدولة العثمانية. القوانين لزجة، وتأبى أن يُستبدل بها.

رغم عجزي الظاهر عن معالجة ملف ملايين الموظفين فقد كان غيري موفقاً في مجالات أخرى. ثمة في الشام جوع للكاش، للمال الذي يدير عجلة الحياة. وبحلول الاستقرار يأتي الكاش. فكيف لنا بالاستقرار وأخبار العمليات التي يقودها الجيش بمحاذاة دولة الجبل تتصدر نشرات الأخبار. كانت عمليات محدودة، ولكن المراسل الأجنبي لا يعد نفسه صحفياً إلا إذا كان تقريره عامراً بصور الدبابات. كان الجيش يطهر الجبال من بقايا المنتقمين. ونزل من دولة الجبل بضعة آلاف من الفقراء وسكنوا على أطراف المدن وأخذوا يعملون في الحقول والمصانع، وأعجبهم ما وجدوا في الشام من أمان. ولم نكن نريد أن نتعرض لدولة الجبل التي نشأت بمعاهدة دولية. لكنها سرعان ما وقعت في حضن الشام، خصوصاً بعد أن فر أشقياؤها من رؤوس عائلات الشقاق بأموالهم إلى الخارج على مدى الأشهر التي سبقت الدستور.

وكانت معاهدة أخرى نسخت التي قبلها، واحتفلت الشام بعودة الساحل كاملاً إليها.. احتفال مغلف بسيلوفان الفقر. وبدأنا نصلح التعليم بخطى واسعة، فقد عرفنا الطريق من تجربة الأردن.

لقد خرَّجت جامعات الشام على مدى عقود ملايين المهندسين والأطباء، فإن أردت أن تلتقي بخيارهم فارحل إلى كليفلاند في أوهايو وإلى باريس ولندن وعمان والكويت والرياض. فأما في الشام فلن تجد إلا المتوسط وما دون. والذي ذهب لا يعود. ويرسل المغترب إلى أخته أو أمه ليرات لا يعدها مصدر دخل قومي إلا بلدٌ لا مستقبل له ولا كرامة.

لا بد أن يكون البناء من الأساس. وكان يستوجب عرقاً ودموعاً. فلنمرر الدستور، ولنحكم البلد قبل أن يستبطئنا الشعب ويعتاد على سوء الظن فيحن إلى قديمه، ويؤثر كسله على مقتضيات النهوض.

قبل أن تبدأ أي بشائر للنهوض الاقتصادي، استغل مجلس الحكم الثقة التي ما زالت في النفوس، والحلم الذي لم يتبدد بعد. وصدر عن الجمعية التأسيسية دستور ليس فيه رئيس، بل رئيس وزراء وبرلمان. والولاية ست سنوات، تنهي الحكومة أعمالها بانتخابات ويسلم رئيس الوزراء العهدة إلى البرلمان ويتولى الحكم زعيم أكبر الأحزاب ويشكل حكومته بائتلاف أو بغير ائتلاف بحسب ما حصد من مقاعد. دولة بلا راس.. شيء لم يتعود عليه الناس.

ولأننا نعرف تاريخ الزعيم، الذي ظل في الأشهر الماضية في الشام يتولى وزارتي الدفاع والداخلية، فقد شددنا عليه في مجلس الحكم أن لا رئيس وزراء سواه. وذكَّرنا هو بأن مجلس الحكم سينتهي عقب الانتخابات الوشيكة. فالجمعية التأسيسية قامت بواجبها وحلت نفسها.

كان قد مضى على خطبة الجمعة تلك ثمانية أشهر. زاد فيها فقر الشام قليلاً بضم دولة الجبل، وتبدد بعض الحماسة التي ملأت نفوس المصلين وهم يكبرون في الجامع الأموي، واجتمعت لنا في حزب التكافل كوكبة من الرجال والنساء يمكننا بها أن نخوض الانتخابات. وأعاد «التحالف الوطني» خلق نفسه بوجوه أقل تجاعيد من الوجوه السابقة، ونظمت «جماعة الحق» صفوفها. وكانت خيرة الرجال والنساء من العلويين والدروز معنا فلم يكن للحزب العلوي وللحزب الدرزي كبير قيمة. والانتخاب بالقوائم وبحسب الدوائر مختلطاً كالأردن، هذا لنضمن عدداً من المستقلين في البرلمان يكونون أقرب إلى الحزب الحاكم.

أقامت جماعة الحق دعايتها الانتخابية على أنها الحزب المجرب الذي تعلم من أخطاء الماضي، وأنها حزب لكل الأمة وليس كحزب التكافل «العلوي». الانتخابات حلبة ملاكمة، مع فارق واحد، يجوز في الانتخابات الضرب تحت الحزام.

وضربنا ضربة صغيرة تحت الحزام فشجعنا الحزب العلوي الصغير على مهاجمتنا.

***

فازت جماعة الحق بمئة مقعد من الخمسمئة، وفزنا بثلاثمئة وخمسين وفاز المستقلون بالباقي. وكانت نتيجة ديمقراطية فرحنا بها. فلدينا معارضة قوية، ويمكننا أن نحكم مستريحين. فرحنا؟ قليلاً. هل يمكنني أن أصنع صاروخاً يحمل إنساناً إلى المريخ؟ لا. فهل يمكنني إصلاح بلد تالف اقتصادياً وبشرياً كالشام في ست سنين؟

بل أحاول صنع الصاروخ.

حضرت افتتاح البرلمان ابتسام الصقر رئيسة وزراء الأردن، ورغم أنها عانقتني وصافحت الزعيم بحرارة فقد قالت للإعلام عقب انتهاء مراسم الافتتاح:

– نعم هذا حزب التكافل، ونحن هناك حزب التكافل. لكن الأردن أردن والشام شام، والأخوة بيننا أبدية، ولن نصدِّر للشام مشكلاتنا أبداً. وبالطبع نستثمر في الشام والعلاقات التجارية والسياسية كأحسن ما يكون بين بلدين مستقلين.

إيه ابتسام! لن تصدروا مشكلاتكم إلينا! تقصدين العكس. قد أصبحتْ صديقتي سياسية محنكة، بعد سنة وشهرين على توليها رئاسة الوزراء في الأردن. نعم، الفارق في الدخل الفردي بين الشام والأردن أكثر من الضعف، فلا مكان لحديث عن وحدة البلدين لمجرد تشابه الحزبين. لم يغب هذا عن ذهن الزعيم ولا عن ذهني. لا، بل لم نفكر في الوحدة مع الأردن أبداً. نحن اخترنا أن نجفف المستنقع فلا يحق لنا أن نأخذ له تراب المزرعة المجاورة. وبالطبع لم توجه ابتسام كلمتها إلى الزعيم ولا إلى أهل الشام، بل كان في ذهنها ناخبوها في الأردن الحريصون على ما حققوا لبلدهم من رخاء.

اجتمعنا عصراً، قبل قيام الطائرة إلى عمان، بباباتي وابتسام وحضرت رزان والرئيس مدحت. اجتمعنا في قصر الرئاسة. الذي أصبح مجموعة مكاتب مهجورة بانتظار تشكيل الحكومة.

اجتمعنا في المكتب الذي كان يحتله الرئيس السابق الذي خلع نفسه. وفتح الرئيس الحديث واصفاً ما شعر به في اجتماعه مع الزعيم، وكيف «نظمه» الزعيم للحزب في ساعة، ثم كيف بحث معه في ساعة تكتيك المبايعة. كان يضحك بسرور على الموقف. وتشاورنا في حديث لا رباط عليه. ولكن باباتي أعلمنا أنه سيصدر كراسة جديدة يدرس فيها حكم حزب واحد لبلدين، كما حصل للبعث في سوريا والعراق، وللحزب الشيوعي في روسيا والصين، ويبين فيها المشكلة ويعرض الطرق الممكنة لتجنب الصدام، ولإحلال التعاون محل الخصومة.

وغادرت ابتسام ومرافقاها، وبقي باباتي ليرى ابنته. وكانت لنا جلسة عائلية مسائية قصيرة مع الزعيم في شقته المشرقة. واطمأن قلبي إلى أن باباتي يقظ الفكر، ولكنه فيما أظن يفضل صنع صاروخ المريخ. ليس عنده حلول لنا.

***

أخفقت كل الإخفاق، وأخفقت عفاف معي، في الوصول إلى أي حل مقنع لإطعام موظفي الدولة. فكان حقاً ألا تناط بي هذه الحقيبة. فنلت التعليم عندما حان التشكيل الوزاري الرسمي، وناء

فخامة الرئيس بما سميناه «الديوان الحكومي»، ونالت رزان الخارجية، وضممت عفاف إليَّ وكيلة، وإن لم يكن لها بشؤون التعليم اهتمام واضح، ضننتُ بها. أو أنني أحب العمل مع النساء؟ منذ أن شاركت أختي منال في مشاريعي وحتى بدأ الشيب يظهر في عارضيَّ وأنا أحب العمل مع امرأة، خلا وكيلتي القديمة في وزارة التعليم الأردنية.

ثم إنه لا بد لوزارة التعليم في الشام من امرأة في الموقع الأول أو الثاني، فهي وزارة طلاب وطالبات ومعلمين ومعلمات.

وقبل تقدم الوزارة لنيل الثقة قال الحوراني (هو الزعيم) لوزرائه:

– سنحكم البلد ست سنوات، لكن التعديل الوزاري الأول سيكون بعد سنة ونصف. فهل أضع هذا في بيان الحكومة.

وقلنا له: فليكن. وجاء في البيان أن التعديل سيكون بعد ثلاث سنوات لا بعد سنة ونصف.

كان النزاع مستحكماً بين شبه الدولة الكردية في الشمال وبين حكومة دمشق، ولم نلتفت إليه لأن مشكلتنا كانت في البنية الداخلية لا في الرقعة الجغرافية، فليحكموا أنفسهم ذاتياً. لكنهم أُولو جيش ولهم علاقات خارجية. ونحن بلد لا يقيم علاقات مع إسرائيل ولا يريد أن يقيم. ومطالبتنا بهضبة الجولان المحتلة ظلت على حالها منذ مئة سنة ونيف. والأكراد يستعينون بخبراء إسرائيليين.

وتقف في وجه الأحلام القومية للأكراد تركيا ودولة الأنبار. للأكراد دولة في شمال العراق، وهي تلبي الحلم القومي بعض تلبية، لكنهم أخلدوا – بعد تبخر حلم الدولة الكردية الممتدة من الخليج إلى شاطئ المتوسط – إلى فكرة دولة في شمال العرق لها أيضاً أرض مفصولة عنها في سوريا. والأفضل ألا تكون مفصولة، وما المانع من ضم الموصل؟ هذا عن أحلام المتشددين من القوميين الأكراد. لكنها أحلام.

إسرائيل نفسها أخذت تروض فكرها السياسي على أن تكون دولة جامعة، ففلسطينيو الحواضر جزء من الاقتصاد الإسرائيلي، وهم قد نالوا بعض المكاسب الحياتية المعقولة، وتحقق الحلم الفلسطيني في الدولة القزم بقطاع غزة، بعد استقلالها عن مصر. ألا يُرضي أكراد الشام ما أرضى الفلسطينيين؟

الحل عسكري في الداخل ودولي في الخارج. وكانت رزان مؤهلة جيداً وذات خبرة. وكان الزعيم يمسك بالجيش بيد قوية. لكن لا شيء ينجح دون نهوض الاقتصاد. والطريق طويل.

***

أحببت مكتبي في وزارة التعليم. وجعلت عفاف قريبة، ولكنها كانت تطوف في الأقاليم، وقد تزور مدارس الأردن في الحين بعد الحين. أما أنا فأكثر التصاقاً بالمكتب، ولا شأن لي بالأردن، اخترت أن يكون مقامي في الشام، وصرت السريجاوي ونسيت اسمي القديم «السلطي»، هنا حياتي وهنا سيكون قبري. لم تمضِ عليّ السنة في الشام، لكنها كانت كعشر سنين مملوءة بكل إحباط وكل إثارة، ووفرت كل هذا الاضطراب على نداء والطفلين فعشت أعزب في بيتي الكبير بباب سريجة.

قعدت في مكتبي أستعرض الرجال والنساء من مديري التربية في الأقاليم يروحون ويأتون في اجتماعات لا تنتهي، وأعجم عيدان موظفي الوزارة، ألتقي بهم في مكتبي وفي مكاتبهم. ومديرة مكتبي منتهى تنظم مواعيدي ولقاءاتي. كنت أجوب المدن وأحتك بالناس، وأحك معادنهم. لكن الكثيرين كانوا يأتونني.

أدخلتْ منتهى عليَّ في صباح يوم هادئ موظفة لديها شكوى.

دخلت ميساء. فتاة في أواسط العشرين ترتدي تنورة زرقاء قصيرة. وجهها ذو ملامح دقيقة وفيه غَيْنتان تزينان خديها ضحكت أم لم تضحك، ولها ثغر كالفستقة، حسبما يصف أهل الشام الثغر الجميل الصغير، يفتر عن أسنان بيض، تقدمت نحو المكتب وعجيزتها تميل بها يمينا ويساراً، وأقبلت بصدر عامر يحسبه الرائي كبيراً على وجهها، ويحسبه الرجل الأعزب الذي أمعن في الأربعين آية من آيات الجمال. وقفتُ لكي أشير لها بكفي للجلوس، فمالت إلى جانب المكتب لتصافحني، وقدمت إليَّ كفاً رخصة طرية كأنها مبتلة، لا شدت على يدي، ولا أنا شددت.. خفت أن أشد فيقطر من كفها عسل الأنوثة. وأجلستها مقابل مكتبي وجلست خلفه، وقد بدأت أتعود أن أجلس خلف المكتب ولا أجالس كل داخل عليَّ إلا من كانت له قضية طويلة.

تمايلت وهي تتكلم لأن امرأة في فتنتها لا بد أن تتمايل، وكانت تنحني لتريني الشق بين نهديها. وشكت شكوى كل موظف من عدم الترقية. واحمر عنقي.

وشكت بحرارة، وكان الحق أن أصرفها بعد دقيقة كي تراجع شؤون الموظفين. ولكن صوتها الناعم المغناج جعلني أسمع اكثر. ثم دق جرس الإنقاذ. وذكرني زياد بندوة مسائية. فانشغل فكري في الندوة عشر ثوان كانت كافية لأقول للفاتنة إن هذا اليوم ليس مناسباً للبت في الأمر فتفضلي، وعسى أن أراك مرة أخرى. وانحنت وهي تقوم ورأيت في عينيها براءة. وأعجبني ذلك.

لست زير نساء، ولا عاشقاً كباباتي، لست إلا رجلاً يفتنه في المرأة ما يفتن كل رجل.

ودخلت مديرة مكتبي منتهى بأوراق، وقالت إن تلك الفتاة مظلومة بحق، مظلومة في أسرتها فهي مطلقة حديثاً، ومظلومة في الوزارة. ومنتهى نفسها، بالمناسبة، ذات فتنة، ترفع قامتها وتتكلم وقد صعرت خدها بعض تصعير. لا، هي لا تتكلم بل تمثِّل أنها تتكلم. منتهى معتزة بعينيها الواسعتين سعة غريبة، المدورتين تدويراً، وبصدرها الذي ترفعه وتدفعه قدامها لا كصدر تلك الشابة الذي يثني قامتها وهي جالسة، منتهى تعرف الوزارة وأهلها كما لا يعرف أحد. وهي ذخر ثمين.

ومر يومان أو ثلاثة وأُدخلت عليَّ الشابة مرة أخرى وهي ترتدي تنورتها الزرقاء القصيرة عينها. وقالت إن عندها أموراً كثيرة تتحدث فيها، وهي تخشي أن تضيع وقتي. وحان أن أنصحها:

– هل قابلت مدير شؤون الموظفين؟

فأجابت إجابة كأنها محفوظة في ذهنها، إجابة بريئة طبعاً، لكنها مدروسة:

– أنت الكل في الكل سيادة الوزير، وعندي ما أقوله لك، أنت تاج رأسنا، كلنا نعرف حكمتك، هناك أشياء لا تُقال، ولكنها لسيادتكم تُقال طبعاً.

– ممّ.

– لو سمحت لي بجلسة خاصة، لو تمنحني بعض الوقت، فسوف أقول ما عندي.

أعجبتني، أعجبني إصرارها، أعجبني جسمها. أعجبتني حتى زينتها الفاقعة. وأعجبني العرض المغري. كل الساسة فعلوها، قل نصفهم. فمن تحرش وانكشف أمره فهذا الخسيس، ومن تعشق امرأة في حضور زوجة له في البلد فهذا يلقى من زوجته ما يلقى ويتسرب خبره ويصبح

مضغة في أفواه الناس. فماذا عن رجل يعيش أعزب وهو يخدم المصلحة الوطنية؟ وماذا عن رجل جاءته الفتنة وتحرشت به، ولم يتحرش؟ احمر عنقي، وفجأة قررت أن أرجئ. أإلى هذه الدرجة أنا خبيث؟ أم ربما أريد أن أسيطر على خجلي أولاً؟

أنا ممن كان يصفهم زميل دراسة لي في بوسطن بالذين يعانون «الجبن الجنسي». لم يصفني بذلك، ولكنه كان يحدثني عن غزواته، ويحدثني عن شيء يعاني منه بعض الرجال ممن يجبنون عن المرأة. وصنفت نفسي منذ ذلك الحين في هذه الخانة. أأخرج من هذه الخانة الآن؟ أم أكون صياداً ماهراً يصبر على الفريسة؟ ولأنني تبلبلت قلت لها:

– دعيني أرَ، سأخبرك لاحقاً.

وحرصتْ على أن تترك لي رقم هاتفها. كتبته على وريقة أمام مكتبي وهي تريني بضع سنتمترات من الشق بين نهديها. وخرجت.

أغمضت عيني وأسندت مؤخر رأسي إلى ظهر الكرسي. فكرت في الزعيم. هذا رجل كفته أسماء همَّ جنس النساء. وجعلته قادراً على أن يكون نصف إله أمام الناس، لأنه معها يكون إنساناً كاملاً.

جبان جنسياً، صياد ذو غزوات، زير نساء، كازانوفا، أم.. شخص طبيعي. أنا رجل ولي حاجة، وميساء امرأة ولها حاجة، ومنتهى امرأة ولتكن لها عندي فيما بعد حاجة. لا مانع. تلوح أمامي ميساء بغينتيها وبثغرها. لا ليس ثغرها صغيراً، بل هو جميل فقط. وما ثغر المرأة؟ هو فتحة بين الشفتين تظهر فيها أطراف الأسنان، فما الجمال فيه؟ ما الفتنة في فتحة وراءها قواطع؟ تلوح في ذهني ميساء بركاناً من الشهوة. لو لم أنلها الآن لما نلتها أبداً، ولا نلت مثلها في عمري. هي الفرصة. وأنا المغامر.

وتلوح في ذهني زوجتي نداء. أراها وضعت رأسها على كتفي وقد نامت كفها على صدري، أبعد كفها برفق فتصحو من بداية إغفائها وتبتسم الابتسامة التي لم تفارقها إلا مرة واحدة.. أيام ثورة النساء. تصحو، تبتسم، تحرر كتفي من رأسها، وصدري من كفها وتنام، وتتركني أنام.

وجدتني أتحسس الجهاز أمام مكتبي، وجاءني الصوت دافئاً صارخاً:

– منذ أسبوع لم تكلمنا.

وتركتها تتكلم:

– ما عدنا نعرف أنحن شوام أم أردنيون.

وتضحك. وسمعت صوت ابني يصرخ، وهي ماضية في الكلام، وحدثتني عن هيثم، وزوجة هيثم، وعن خالي وعن زوجة خالي. قلت:

– فمتى تأتون لتصبحوا من أهل الشام؟

– «غداً». قالت مبالِغة..

– طيب، فليكن بعد أسبوع. الجمعة. ليس بعد غد.. الجمعة التي بعدها.

***

رميت بالورقة التي تحمل رقم الشابة المثيرة. وبعد أيام رميت بمنتهى في دائرة شؤون الموظفين. قد أرادت منتهى أن توقعني لابتزازي.. ربما فقط لكي تحسن وضعها، وربما للحصول على زجاجة عطر مرة وسوار مرة، وعندي من المال الكثير. لا تفسير عندي سوى هذا. ولماذا التحقيق، ولماذا الاستقصاء؟ حاولت منتهى أمراً ونجوت منه بفضل «الجبن الجنسي». لا رجل فوق الغواية، بعضهم غازٍ وبعضهم يوفر طاقة الغزو في أحشائه ليقوم بجلائل الأعمال. أحاول أن أخفف وطأة تهمة الجبن عن نفسي. خلق الله البشر نصفان: لكل امرأة رجل، ولكل رجل امرأة، فما زاد عن هذا وما نقص فشذوذ لا يُقاس عليه. ولماذا التفلسف؟ أنا هكذا، تتلقلق الفكرة في رأسي، أو تتقلقل، كأنها حبة حمص في قدر فارغة، وتتجول في تلافيف دماغي بإرادتها الحرة تذهب إلى كل مكان، وتنتهي في مكان لا أعلمه ولا الفكرة تعلمه؛ لو يقوم أحد بزيارة إلى داخل رأسي لرأى العجب.

أطلت نداء وهي ترتدي فستانها العنابي. حملت إليَّ من عمان وجهها المدور، وبراءة الطفولة التي لم تزايلها وقد مشت طويلاً في الثلاثين، تناولت رأسي من فوق وأنزلته إليها بكفين ناعمتين كي تقبلني في الوجنتين، أحسست بأصابعها الممتلئة الناعمة على أذنيّ. ثم انحنيت لأقبل ابنتي التي عرفتني، ولأنظر نظرة شغف إلى ابني الذي لاذ بفستان أمه منكراً هذا الرجل الطويل الذي دخل حياته على غير ميعاد.

وقضينا ليلة طويلة لم تكف فيها نداء عن الكلام. وبات الطفلان على سرير في غرفتنا حتى يزول ما بهما من وحشة المكان الجديد، وانتظمت أنفاسهما، فتحول كلام نداء إلى همس.. وتحول كلامي إلى همس. ونام الهمس، ولم تنتظم الأنفاس.

قمنا باكراً إلى إفطار أعدته مدبرة منزلي. عندي اليوم اجتماع طارئ.

خرجت من البيت مسرعاً.

دخلت قاعة الاجتماعات في الوزارة وأنا أتصبب أَلَقاً.

***

لم أعهد أختي تلح في الاتصال هذا الإلحاح. كنت أستحم، ونداء من وراء الباب تحثني ألا أطيل حمامي كعادتي، فالإشارة تأتي من أختي وراء الإشارة، ونداء تتحسب من أخذ المكالمة بنفسها، لما ظل بينها وبين أمي من جفاء.

توجست شراً. ونقلت إليَّ أختي الخبر: أمك! ماذا؟ جلطة قوية، والعملية غداً. وركبت إلى عمان على الفور.

أمسكت يد أمي وهي على سرير المستشفى، كانت جزعة منخلعة القلب. كانت قد تخطت منتصف الستين وفي جسمها قوة وصحة، ولكن الجلطة لا تعرف عمراً. وكانت عملية طويلة وناجحة. وبعد أيام قلائل كانت أمي في سريرها في بيتنا الكبير، وحولها الخدم والممرضة المقيمة، والطبيب الخاص يزورها كل يوم. هزلت بعض هزال، ولكن هذا جيد للصحة. وصارت تحدث كل من يأتي لعيادتها عما غدا في شراييها من شبكات، وفي قلبها من حركات، لكن الطبيب طمأنني إلى أنها ستعيش حياة طويلة وسعيدة.

كانت سعيدة بما يأتيها من عوَّاد من علية القوم بوجودي إلى جانب سريرها. وهي تحدث العواد عن زيارة رئيسة الوزراء لها، وعن زيارة باباتي، وعن زيارة فلان وفلانة. وأنا ألازمها: أذهب إلى الشام صباحاً وأعود عصراً إلى عمان لأكون بجانب أمي.

بعد أيام رميت لأمي أول تلميح بأنني على وشك العودة إلى الشام:

– عندما أعود المرة المقبلة سنأتي جميعا. مؤكد أنك تريدين رؤية حفيديك..

وزوت أمي وجهها. وعضت منال على شفتها.

– «ستأتي إلى عمان وتسكن هنا؟»، قالت أمي بنبرة هي بين السخرية وبين السؤال.

– زيارة أطول من هذه بالتأكيد.

– مثلما ذهبت إلى الشام تعود إلى عمان، لست أول رجل يتقاعد من السياسة، وعندك المال، ولا ينقصك شيء.

وجلست هادئاً. وغيرت الموضوع بالسؤال عن أمر يخص حالتها، فهذا ما يطلق لسانها بالحديث. موضوع مرضها يجعلها تنشرح وتتحدث. ولم تنشرح ولم تتحدث، وازورَّت عني.

الذي تكرهه أمه ماذا هو في علم النفس؟ كانت تحقد على الرجال فيما أظن. لا، بل على النساء. لم تغفر لزوجة أخيها أنه بقي لها زوج، ولا لنداء أنها ذات زوج. لم تغفر إلا لمنال.

ودعتها بقبلات اغتصبتها من خديها ومن جبهتها. نزلت إلى السيارة التي تنتظرني، ثم قبل أن أصل إلى السيارة عدت أدراجي. هذه أمي التي ربتني سنوات اليتم وأرسلتني إلى أمريكا، ولا أتركها غاضبة علي.

دخلت.. لأراها تلوذ بحشية على الأريكة تمسح دموعها وبجانبها منال. جلست على يد الأريكة، ويدي تمسح رأس أمي، وحدثتها عن السياسة وعن أن الخروج منها ليس مثل الدخول، وأن الأشياء تستوجب بعض الوقت. وهي لا تقول إلا: خذ راحتك، خذ وقتك، أنا لا يهمني شيء.

وقبلت يدها، وانصرفت وأنا ألوح لمنال بيدي.

ووفيت بالوعد، وبعد أسبوع جئت بالعائلة. كانت أمي على قدميها شديدة قوية، وإن كان يعن لها أن تتمارض عند العصر مع قدوم العواد. وقضينا يومين، وعدنا إلى الشام.

وقررت في سري أن الذي تكرهه أمه يجب أن يغور من وجهها حتى لا يزعجها.

بعد شهرين توفيت أمي، وورثتها وورثتُ غضبها علي. ماتت غاضبة علي. قالها لي خالي. وسأعيش ما بقي لي في هذه الدنيا تحت وطأة غضب الأم. واقَفتُ أختي منال في المطبخ وهي تشرف على إعداد القهوة والتمر للمعزين، وقلت لها ما سمعته من خالي. فقالت لي ويدها تمسك بعضدي، فمنال تكبرني ببضع سنين: «أمك كانت هكذا، وأنت لم تقصر. هيا.. هيا».

كانت منال أحكم مني وأكثر برودا. قد أخذت من أمنا القامة القصيرة والبرود وعدم الانجراف في المشاعر.

رجعت إلى الشام بعد انتهاء العزاء. رجعت من عمان المزدهرة التي لم يبق فيها معدم، إلى الشام التي تحاول الوقوف على ساقين من طين. رجعت متطيراً من غضب أمي علي. لكنني اخترت الشام حياة وقبراً.

16

العمل كثير، والبطء في الإنجاز يثقل النفس، نبحث كثيراً ونفهم كثيراً، ولكن البلاد تمشي على مهلها، بسرعتها التي تعرف تمشي بها. يحقق كل وزير في وزارته بضع خطوات في انتظار تحقيق قفزة قبل مضي السنوات الثلاث التي سيعزل فيها الزعيم من يعزل، ويستبقي من يستبقي.

شاركت عفاف في بعض زياراتها لمدارس دمشق، وواصلت اجتماعاتي. وسكنت إلى زوجتي وطفليَّ فعاد إليّ بعض ما افتقدته في الأشهر الماضية من انتظام الأوقات. وفي أربعين والدتي حضرت مجلس العزاء يوماً عدت في مسائه إلى دمشق كئيب النفس. كأنني كنت أعرف ما سيحل بي.

كنت أتابع بالنصح وبالتدخل مشاريع أخرى لا تخص وزارتي، فأنا ابن مشروع الشام كله لا صاحب التعليم فحسب. وكان نجاح أي وزير في وزارته نجاحاً لي أسجله في دفتر في ذهني لا يهمني أن يطلع عليه أحد، مؤمناً أن المرء يفعل الخير ويرميه في البحر ثم إذا به يلقاه أمامه، قولة المثل الشعبي.

سرت بحقي شائعة لم أسمعها لكنني أحسست بها في قلبي. قلبي العامر بالحزن لغضب أمي علي. لم يخبرني أحد بالشائعة، لكنني شممتها في الهواء. ولم يمضِ يومان على إحساسي حتى تحولت الشائعة إلى خبر.

عقدت المحكمة جلسة استماع. وجلست بين الذهول وبين التسليم بقدر لا يد لي فيه. وجلست الشابة المثيرة، ميساء، بجانب محاميها. التهمة ليست التحرش. التهمة الاغتصاب. كنت بارداً،

جسمي بارد لا تنز منه قطرة عرق، ولا تتحرك فيه شعرة، جلست كالصنم أسمع القاضي يستجوبها، وهي تقول وسط دموعها إنني اغتصبتها في مكتبي، وإنها تأخرت في رفع الدعوى لأنها خافت من نفوذي. وساقت قضية مقنعة.

وقلت كلمتين: هذا افتراء تام.

ورفعت الجلسة.

دخلت بيتي كالمتلصص. واستقبلتي نداء مثلما استقبلتي في الأيام التي سبقت المحاكمة، فقد عرَّفتُها بالقصة، وعرفتها كيف طلبتها من الأردن واستقدمتها في وقت كدت فيه أقع، ولم أقع. وصدقتني نداء، وظلت تصدقني. ولم أخرج من بيتي إلا إلى باب توما لألتقي بالزعيم على موعد. كان أقصر اجتماع يضمني بالزعيم، قدمت استقالتي لأخوض قضيتي كما يجب على كل من هو في منصب كمنصبي. وقبل الزعيم تعليق وظيفتي دون أن يقبل الاستقالة. كان شعاع الليزر المعهود ينطلق من عينيه، رآني غير مكترث، أقف أمامه ببلاهتي المعروفة، شامخاً. وقال مودعاً: «أحمد لا تبتعد كثيراً». كان الأمر أمام القضاء، ولم يكن للزعيم أن يصنع لي شيئاً. ولا أحب أن يقوم بما سيقوم به غيره: بالتحقيق معي والتحقق من صدق روايتي.

في جلسة أخرى للمحكمة جيء بالشاهدة.. منتهى. وشهدت أنها سمعت صراخاً في مكتبي.

– لكنه، سيادة القاضي، مكتب كبير وفيه غرفة داخلية للاستراحة وفيها سرير. ولم يكن من حقي أن أدخل مكتب السيد الوزير دون أن يستدعيني.

– فكم دام الصراخ؟

– دام بضع دقائق لا غير. ثم سكن، ثم خرجت ميساء مشعثة الشعر، وذهبت، ولم أجرؤ على أن أسألها عن شيء.

وكان ردي: افتراء محض. رددت على الأسئلة ببرود مبعثه الاشمئزاز. إذا كان قدري أن أكون ضحية فلأكن ضحية تُذبح بلا أنين.

وفي جلسة ثالثة طلب القاضي أدلة. وفي جلسة رابعة أَحضرت ميساء تنورتها وفيها تمزق من ذيلها. هي تنورتها الزرقاء عينها لا أنكر ذلك. ولم أنكره أمام القاضي.

وأصبحت القضية تسلية البلد. وخرجت السكاكين الطوال. إن سقط الجمل كثرت سكاكينه، كما قال المثل. وانتهشتني المواقع. وسر الناس أن يكون هذا الثري الرأسمالي ملوثاً، فهو رغم كل إنجازاته الشخصية، وإنجازاته العامة في البلد المجاور، جاء إلى الشام كي يتسلى بأعراض بنات الشام. أخذ الضغط الشعبي على القاضي يزداد. يريدونني في السجن. ولم يستطع القاضي أن يحكم بشاهدة واحدة ودليل ضعيف. لكن أهل الشام، الذين أهاجهم قميص عثمان قبل ألف وخمسمئة سنة، أهاجتهم التنورة القصيرة، وألهبت خيال رجالهم صورة الشابة الحسناء التي أصبحت تتردد في كل موقع. حسدني الرجال لأنني نلت مبتغاي من هذه الشابة الجميلة.

حبسني القاضي عن السفر إلى حين انتهاء القضية. وطالت القضية.

صرت أختلي في غرفة وحدي. وأنام وحدي. وتقتحم عليَّ نداء غرفتي، وليس بيدي كتاب ولا جهاز، هي نفسي المعذبة أعيش فيها وأستعرض ما مضى من أيامي. وتضع نداء يدها على صدري. وبابتسامة في وجهها الذي يكره الحزن:

– هل تشك فيَّ يا أحمد؟

– في ماذا؟

– في أنني أعرفك جيداً. أنت تغتصب امرأة! لا أنا ولا أبي ولا الزعيم نصدق هذا الهراء. أنت ضحية هذه الحية السامة منتهى، وفرخها ميساء.

ثم تضحك نداء..

– يخرب بيتها ما أجملها!

وأضحك لضحكها. وأقوم إلى عشاء لا أتناول منه سوى لقمتين. هزلت وظهرت عظام خديَّ، وأكلني الغيظ. ثم أقوم إلى غرفتي، وأغلق الباب ورائي.

وجدت ذات ليلة العنكبوت في الزاوية عند السقف قد زاد شبكته خيوطاً، وها هو ينتظر الذبابة السمينة التي سيبقيها حية بعض الوقت وهو يتغذى عليها وينهشها. رأيتني أقفز من سريري وأطلق المخدة مرة ومرة باتجاه العنكبوت وشبكته حتى مزقتها وقتلته. وهبطت على سريري وآلاف العناكب تجلس الآن إلى حواسيبها وبأصابعها تنهشني، أو تتفرج على من ينهشونني. تمنيت الدمعة، ولكن غيظي كان أكبر من الدموع.

أرجئت المحاكمة بغرض فحص الأدلة. وطلبتُ للتحقيق مجدداً. وكنت في التحقيق السابق قد ثبتُّ على الكلمتين لا أزيد: هو افتراء.

هدأت القضية بالتأجيل، ولم يهدأ الناس. ثمة شهوة عندنا كلنا لرؤية الدم، ثمة رغبة متوحشة لذبح الكبير. إن لقتل النفس في القاموس اسماً، ولقتل الملك اسماً، ولقتل الأب اسماً. فهل هناك اسم لقتل الكبير؟ لا أدري، ولكنني رأيت الناس يريدون أن يروني أتمرغ في الوحل، وأن أُدمغ دمغاً.

زارتني عفاف، وببرودها حدثتني عن الوزارة واستمعت إليها شارد الذهن، فهتفتْ:

– سيادة الوزير، هي وزارتك، ونحن معك.

وقفتُ كأنني أريدها أن تذهب. فلم تقف. وظلت جالسة وانحدرت من عينيها دمعتان. فهتفت بها:

– ما بك يا عفاف!

– ألا تصدق أننا نصدقك؟ أنا أعرف منتهى وأعرف ميساء وأعرفك. نريدك أن تؤمن بشيء واحد: أننا أذكياء، وأننا نستطيع أن نفهم النفوس.

ثم قامت.

وأخذت أسماء زوجة الزعيم تزورنا وتلاعب الطفلين، وكان يعمر بيتي في زيارتها وجهان مشرقان: نداء وأسماء، وقد انعقدت بينهما صداقة. لكنني لم أكن أبصر هذا الضياء الذي يغمر بيتي. كنت أغلق باب غرفتي ورائي فأحس بالأمان. هذا أنا وحدي، وهذه نفسي معي. هنا فقط يوجد الصدق والتصديق. هنا لا أحتاج إلى أحد.

جاء باباتي من الأردن. وبات عندي ليلة. وتحادثنا في أمور شتى، ولاحظ أنني أسمع وأنسى كل ما أسمع. وأنني أنزلق إلى الكآبة. وقال لي: القضية تمزقت مع التنورة الممزقة.. هذا قميص يوسف الذي لم يأكله الذئب. وثباتك في دفاعك على كلمتين نعم الخيار. لو كنت قاضياً لأصدرت حكماً بتعزير المرأتين ورددت الدعوى. اثبت على ردك.

وجاء الزعيم في زيارة سريعة حرص على ألا تكون سرية، وقال لي: أحمد نريدك، لا تبتعد كثيراً.

جلست أمام المحقق وفي جعبتي كلمتان كالمرة السابقة. تلا اسمي بغير لقب ناظراً في الملف أمامه، وتلا التهمة، فقلت الكلمتين، فقلَّب الأوراق. شاب وسيم، في أواسط الثلاثين، ويبدو أن رتبته عالية. أغلق الملف.

– سمعت من جانب الادعاء رواية مفصلة. فإذا لم أسمع منك رواية مفصلة صعب الأمر علي. الفتاة دخلت مكتبك. هل هذا صحيح؟

نظرت في وجهه وعبارة باباتي تتردد في ذهني. لم أر في عينيه لا تعاطفاً ولا شراسة ولا لطفاً. رأيت ذكاء. قلت:

– أُدخلت إلى مكتبي.

– تقول أُدخلت؟

– نعم، أدخلت. ما كان لها أن تدخل إلا بإذن من مديرة المكتب.

ونسيت نصيحة باباتي، وشرحت بلا توقف. شرحت كل شيء، كل شيء، حتى ما دار في ذهني وأنا أتعرض لذلك الإغواء شرحته. وشرحت كيف استدعيت زوجتي فور انتهاء الإغواء الثاني. وأقررت بأنني كان يمكن أن أسقط. لكن، كان يستحيل علي أن أغتصب. بدأ يسمعني، حين بدأ، مرتكزاً إلى منضدته بمرفقيه مقوساً جذعه، وانتهى مصغياً بكل جوارحه وهو يرتكز إلى المنضدة برسغيه مشدود الجذع. ولم يكتب حرفاً. قال لي ببرود: شكراً لتقديمك التفاصيل. تفضل. لم يقم عن كرسيه، وقمت أنا متثاقلاً. لم يقم عن كرسيه، لم يصافحني. صرفني فقط. ومع ذلك خرجت مستريح القلب.

خرجت مستريحاً لأنني رويت قصتي لمن قد يرويها بعد سنين كثيرة. قصتي الكاملة أصبحت خارج قلبي. أودعت كتاب التاريخ روايتي للحدث. وأراحني هذا كثيراً. وانقطعت زيارات الناس، ونامت القضية أسبوعين بدَوا لي شهرين، بل سنتين. ثم طالبت المدعية بتعويض ضخم يتناسب وثروتي. وحدّد محاميها قيمة تقريبية للتعويض. وأقر القاضي أن مبدأ التعويض غير مستبعد، لكن بعد صدور إدانة. وقعت كلمة «الإدانة» في مسمعي كأنها حكم بالإعدام. أعادتني إلى حالة هي خليط من الذعر والتسليم. ولزمت غرفتي.

***

جاءني اتصال من الزعيم: نحن معك، وننتظرك. وأنت ذو عزيمة.

وهل تُلزمه كلماته بشيء؟ هو قال كلمة، فإن جاءت الإدانة، فهي كلمة كان قالها وذهبت في الهواء. جلست أنتظر الإدانة.

وطلبت الفتاة المدعية من مصرفها دفتر صكوك. أخبرني ضابط مخابرات بالأمر. وماذا في ذلك؟ هي تنتظر أن تحصل على التعويض الضخم، وقد تحتاج إلى دفتر صكوك. استعرضت كل ما أعرفه في التاريخ البشري فوجدته تاريخ الظلم المستمر. ماذا ينفع الظبي أن يقول للأسد وعنقه بين فكيه: أنا ظبي بريء؟ الدنيا قائمة على الظلم. وأنا ابن هذه الدنيا. وبدأت أستعد لسني السجن، فالغرامة وحدها لا تروي عطش الإدانة.

ونُقل إليَّ أن التحقيق فُتح مجدداً مع الشابة المثيرة. قلت في نفسي: ربما بشأن دفتر الصكوك. وهذا لا يثبت شيئاً.

كانت مخابرات الزعيم تتابع القضية، وتسرب للمحققين المعلومات. تابعت المخابرات العلاقة الحميمة بين مديرة مكتبي وبين الشابة المثيرة، وتابعت الخصومة بينهما التي وصلت إلى الصراخ في بيت إحداهما، وإلى القطيعة في المكتب.

وانهارت الشابة في التحقيق، وقالت كل شيء. ثم جيء بمنتهى فانهارت. فأسقط القاضي القضية. وفتح المدعي العام قضية على المرأتين.

ليس للبريء من تعويض سوى براءته. لا يعيد القضاء إلى البريء ما ضاع من عمر وما شاخ من روح. ولا يستطيع أن يمسح ما علق بخيال الناس، قد رسموني في مخيلاتهم ذئباً ينقض على فتاة جميلة تصغره بعشرين سنة. وليمسح الزمن هذه الصورة إن هو استطاع!

طاف بي شباب الحزب من أهل باب سريجة وما حولها في الشوارع في عَراضَةٍ ترافقها الأهازيج. لفوا كوفية على عنقي وساقوني سوقاً إلى ساحة المرجة، وأعادوني إلى بيتي.

في المساء في بيتي فتحت الجهاز وبجانبي زوجتي وعفاف وأسماء والزعيم، وتفرجنا على الأخبار. رأينا الشابة الحسناء تقول للعدسة وهي خارجة من باب المحكمة: تسألون لماذا؟ لأنه رفضني.. لم أتعود أن يرفضني أحد. وكانت تتمايل بغنج. وقالت مديرة المكتب لعدسة أخرى: أنا لست من يُرمى في وظيفة وضيعة بشؤون الموظفين بجرة قلم. تتكلم وكأنها تمثل دوراً.

لئن فاتهما التعويض الضخم، فها هما تستحمان تحت الأضواء.

أفاقني في الليل حلم. نسيته. وقعدت في غرفة المكتب. لا يفرح الناجي من الورطة غير ساعة، ثم تعود الحياة كما كانت. وفكرت في الضحيتين: الجميلة ضحية جمالها. رباها الناس على أنها جميلة، ووجدت جمالها كأنه الجوهرة المحبوسة في متحف، لا ثمن له. يريد الرجال أن ينهشوها، ولا يقدم أي منهم الثمن المناسب. ومديرة المكتب ضحية قسوتي. أكنت قاسياً فعلاً؟ حقاً لقد اعترفت بأنها دبرت إدخال الفتاة عليَّ تدبيراً. ولكنني رميتها من مكتبي، مكتب الوزير، بلا سؤال. لم أسمح لها أن تذرف دموعاً وتطلب الصفح، لم أعطها فرصة لكي تتوب. ولماذا كنت متجبراً هذا التجبر؟ لو كان باباتي في مكاني لصنع غير هذا، ولو كان الزعيم لصنع غير هذا. من أنا حتى أرمي منتهى في وظيفة وضيعة بعد أن كانت مديرة مكتب الوزير؟ ربما كانت تريد فقط أن تخصني بشيء طيب، مثلما يخص المضيف الكريم ضيفه بأطيب قطعة لحم. ربما لم تكن تريد مني سوى أن أتمسك بها وأن أجعلها أمينة سري. من أنا حتى أتصرف بجلافة مع الخاطئين؟

وعادت بي الذاكرة إلى وكيلتي القديمة في وزارة التعليم في الأردن. كانت صاحبة أحلاف وتآمر، مثل تسعين بالمئة من كبار الموظفين. وأهدت إليَّ الورد، ولوحت بالصلح، فماذا فعل الوزير الشاب المغرور؟ رد على تآمرها بتآمر. أنا الوزير فلماذا أتآمر؟ أنا السياسي وهي مجرد موظفة. لماذا تآمرت؟ تلك خسَّة فيّ. وعزلتها ورميتها في وظيفة أدنى. ماذا صنعت بي وكيلتي القديمة؟ لا

شيء. أقول عن نفسي إنني أحب المرأة.. أنا لا أملك شهامة في التعامل مع المرأة. أنا وغد في أعماقي.

لم أنم.

في الصباح كنت في مكتب المدعي العام قبل بدء الدوام، جلست في مكتبه أنتظر وصوله. أسقطت حقي الشخصي عن الفتاتين، وسألته بضراعة حقيقية إن كان هذا يكفي لإخلاء سبيلهما. ثم مضيت إلى مكتبي. فهل أقسم على أنني لم أرد لخبر إسقاط حقي الشخصي انتشاراً؟ كنت ما زلت أعيش داخل نفسي المحترقة، وكنت أستجيب لهاجس أفاقني، وتفكير انتابني.

ضجت الوزارة بالنفاق المعروف مع قدومي، ثم في ساعة الظهر وصل خبر إسقاطي حقي الشخصي، وبكت النساء وبكى الرجال في الوزارة. وخرجتُ من الدوامة بسرعة، وقعدت أراجع بعض ما عرضته علي عفاف، وتأخرت.

وصلت إلى البيت خالي الذهن، أريد أن ألحق ساعة مع الطفلين قبل نومهما. رأيت باب منزلي الخارجي مفتوحاً، فقلت لعله زائر دخل لتوه.

وضعت رجلي في العتبة.

رأيت في ساحة البيت الوسيعة منظراً عجباً. شباب وفتيات يقتعدون الأرض، تلفتُّ أبحث عن نداء والطفلين، فإذا هي واقفة ومعها الطفلان على باب غرفة المكتب. في الساحة صفان من الفتية والفتيات في دائرة واسعة. رأوني فأقعوا جميعاً على ركبهم. وقال متحدثهم: جئنا نطلب السماح. قد ظلمناك ونهشناك. والآن عرفناك، وعرفنا أنفسنا. كانوا كأنما اتفقوا على هذه الحركة المسرحية. لكن كان فيهم صدق.

كانت عواطفي قد جفت. ولم يخطر ببالي سوى فكرة واحدة: الشام فيها روح. جلست على طرف البركة. وحادثتهم ساعة. حدثتهم عن الأمنيات لهذا البلد، وعن صعوبة تحقيقها، وجلسوا جلسة مريحة.. لكن على الأرض، واستمعوا. قلت لهم إن شيئاً فيَّ قد تغير، وإنني لا أريدهم أن يقسوا على الفتاتين لأن البشر خطائين. كان منهم من هو صاحب موقع، ومن هي صاحبة حساب

على موقع تواصل. ودعوتهم إلى الانصراف بنفوس مطمئة، فقبلوني واحداً واحداً وواحدةً واحدةً. وهتفوا وخرجوا. ودخلت حجرة المكتب بنفسي المشتعلة بنار جديدة. شعرت أن في البلد روحاً.

في مجلس الوزراء هنأوني، ودقوا المناضد بقبضاتهم. وتشكل مكتب القرار للحزب فكنت رئيسه. أصبحت باباتي الشام. وأين أنا من باباتي، من حنكته، من علمه الغزير، من عزلته، من حقيبته التي طاف بها يعلم الناس وينظمهم لحزب لم يكن له اسم. لكنني ترأست التكافل الشامي بنفس صهرتها المصيبة الكبيرة، وعركتها سنو المغامرة والخطر.

صار الحزب همي. وتركت التعليم يسير بمحرك التسيير الذاتي وبعفاف. وكان شتاء 2075 لطيفاً، كأنه يعِد بأن الدنيا ستضحك لي بعد أن عبست كل ذلك العبوس.

17

كان هم رزان في السنة الثانية لحكومتنا مشكلة الديون الإيرانية القديمة. وشكلتْ ببراعة رأياً عاماً دولياً بأنَّ ما أقرضته إيران للحكم في (سوريا) قبل التقسيم كان مالاً سياسياً نالت مقابله النفوذ الذي اشتهته، وانتهت تلك الدولة ونشأت باتفاقية دولية دولة أخرى هي (الشام). ولم يعد ثمة من معنى لفتح إيران الملف كلما شعرت بقلاقل داخلية تنفس عنها بإثارة زوبعة خارجية. ثم جرى حصر لما تحول من تلك الديون إلى مشاريع اقتصادية طرحت ثمارها فكان المبلغ معقولاً، وعليه رسا التحكيم الدولي.

كانت إيران قد قطعت نحو عشر سنين في ظل حكومات مدنية بعضها يميل إلى رجال الدين بعض الميل وبعضها ينحرف عنهم. وكان التعصب الديني في كل بلاد الشرق الأوسط قد تراجع كثيراً. انحسر الإسلام السياسي، وعاد الدين إلى القلوب بعد أن كان في عهود سابقة أداة في يد التعصب والسياسة. وأخذت إيران وتركيا تنتطحان اقتصادياً لكن بدهاء يجعلهما لا تغفلان الفوائد الجمة من التعاون فيما بينهما.

بدأت تركيا تضغط للحيلولة دون التواصل بين كردستان التي أسست نفسها وطناً كردياً ودولةً في شمال العراق ذات مقعد في الأمم المتحدة، وبين مناطق الأكراد في شمال سوريا. كان الضغط أساساً على دولة الأنبار، ولم يكن مجرد ضغط، فالجيش التركي يدخل ويخرج ويقطع طريق التواصل بين أكراد كردستان وأكراد الأنبار وأكراد الشام، هذا الطريق الذي عجزت دولة الأنبار عن قطعه. وكان من واجبنا نحن – في رأي الأتراك – أن نمنع قيام دولة كردية في شمال الشام. الأمر يتجاوز رزان ووزارة الخارجية. هذا أمر داخلي سيظل ينخر في جسم دولتنا طويلاً.

مثلما أعاننا علويو الشام على دولة الجبل وساعدوا في ضمها ضماً حميداً، أعاننا أكراد دمشق على أبناء جلدتهم في الشمال. لكن الأمر لم يكن سهلاً، ولم يكن بين الحالتين تشابه إلا في الظاهر. حلم الأكراد قومي، ولغة الأكراد الكردية.

كان الدستور، بعد تعديله بدخول دولة الجبل في حظيرة الشام، ينص على أن أرض البلد واحدة وتضم هضبة الجولان المحتلة، ولا قسمة لأراضيها؛ جيشها واحد، وسياستها الخارجية واحدة. ولم يرد للعروبة في الدستور ذكر، وذكرت اللغة العربية لغة رسمية، وذكرت الكردية لغة رسمية في المناطق ذات الأغلبية الكردية، ونصَّ الدستور على التسامح اللغوي في المدارس، دون الإشارة إلى السريان أو إلى غيرهم، وللدستور من يفسره، ولا يمكن للدستور أن يضمن كل شيء، ولا أن يضم كل شيء.

كان لب المشكلة الميليشيات الكردية التي ما فتئ نفوذها يتمدد أو يتقلص تبعاً لقوة الدولة المركزية وضعفها. ومع بداية حكم التكافل في الشام ارعوت هذه الميليشيات في الشمال، لكنها ظلت تمارس جمع المال من الغني والفقير في الشرق، وظلت تلتمس أكبر قدر من التواصل مع كردستان. كان أكراد دمشق مع أهل دمشق في مشاعرهم: كانوا متحمسين لدولة متنوعة القوميات والأديان.. ههنا كانت مصلحتهم، فقد تعربوا كثيراً وعرفوا كيف يعيشون ازدواجية كردية – عربية مريحة، وكان أكراد الشرق قد ملوا حكم الميليشيات، ولكن الزعيم مضى يمد الحبل للميليشيات حتى تشنق نفسها بنفسها. ومضى يقوي الجيش غير تارك وزارة الدفاع من يديه.

ثم حدث أن فرت مجموعة مسلحة كردية من تركيا بعد سلسلة عمليات للجيش التركي إلى شمال بلادنا، إلى المناطق الكردية. طالبت الحكومة التركية بتسليمهم، وإلا دخلت بقواتها للعثور عليهم. ودخلنا في أزمة دبلوماسية مع دولة لنا معها ألف كيلومتر من الحدود. ومن تركيا يأتينا الماء، ولا حياة للشام بغير الفرات. وبدأت رزان تسعى سعيها، وظل الزعيم يتابع الأمر، فليس معقولاً أن نسرع إلى نقل الأزمة إلى المحافل الدولية. وزار الزعيم أنقرة. وكان الاتفاق المعلن أن تسعى دمشق بجهد مضاعف في حل أزمة المتسللين. هم بالنسبة إلينا متسللون، وليكونوا بالنسبة إلى تركيا مجرمين أو إرهابيين.

أكان الزعيم، باتفاقه الرخو مع الأتراك، يماطل؟ أم أنه اتفق معهم على ضربة جوية يوجهونها؟ هذا ما لن يتاح لي معرفته، وقد قال فيه المؤرخون كلاماً كثيراً.

جاءت الضربة الجوية التركية لمواقع الميليشيات ولبعض المنشآت الحيوية مؤلمة. واحتجت الشام، وجرت ملاسنات بين دمشق وأنقرة. ودخل جيشنا دخولاً حذراً يرابط على الحدود الشمالية مع تركيا، ولم نسمع احتجاجاً تركياً. جاء الجيش كي يفصل مناطق الأكراد عن الحدود مع تركيا، وعزز الجيش مواقعه بالتدريج، وانحدر جنوباً في المناطق الكردية. كان الأكراد يعلمون أن الحكم الذاتي المحدود أفضل لهم بكثير من حكم الميليشيات. لم يكن لدينا حل سحري لمسألة الميليشيات، فالميليشوي لا يحمل البندقية ليهاجم ولا ليدافع، يحملها لأنها قيمته الاجتماعية ومصدر فخره، ولن يسهل إغراؤه بتسليمها.

حارب الجيش حرب القط والفأر أشهراً. وتحولت الميليشيات إلى قطاع طرق، وأخذنا نعاني مما ظلت تركيا تعاني منه عشرات السنين. لكننا لم نمنع الأكراد أياً من الحقوق المدنية واللسانية. وتدفق فقراء الأكراد على دمشق وحمص وحلب والرقة، وظلت شوكة المطالبين باستقلال كردي في شمال الشام تضعف، ولكن القلاقل استمرت كالحساسية الجلدية تظهر ثم تختفي؛ ولا تموت؛ ولا تميت.

وفتح حزبنا كتاب التاريخ على صفحة بعينها: التطهير العرقي الذي قام به الأكراد ضد العرب والكلدانيين مستغلين الحرب الأهلية قبل ستين سنة. أثرنا الأمر وحرضنا الناس بألسنة تكافليين من الذين تم «تطهير» مناطقهم وتهجير آبائهم وأجدادهم. وفتحنا كتاب التاريخ على صفحة أخرى: هجرة الأكراد إلى سوريا في عهد أتاتورك، وأنهم حلوا ضيوفاً ثم وسعوا لأنفسهم حيزاً لم يكن قط موطناً تاريخياً لهم.

لم نوفق في عملية التهييج هذه. كأنَّ مثل هذه التكتيكات مما لا يصلح لحزبنا. لقد خرج الأمر من يدنا، ولم نستطع ضبط موجات الغضب التي أخذت تجتاح النفوس. فأردفنا هذا التهييج بمنظومة من مشاريع القوانين تمنح الأكراد حكماً ذاتياً محدوداً ودون تحديد جغرافي، بمعنى تسهيل فتح المدارس الكردية الخالصة، والتأكيد على أنه لا مجال لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء بنزع ملكية أي فرد كردي أو العبث بها استناداً إلى أساس تاريخي.

وظلت المسألة الكردية تتفاعل، وظللنا في التكافل نعمل بخطة توطين الآخرين من عرب وكلدانيين فيما بين الخابور ودجلة، وبدأنا مشروع قناة الخالدية للاستفادة من مياه دجلة في أيام الشتاء، ومع العمل في المشروع كان آلاف العمال العرب والكلدانيين يسكنون في المنطقة ويتحولون

إلى مزارعين معمرين أراضيَ بوراً، وكان الهدف السياسي قطع الطريق بين محافظة الحسكة والموصل بجمهرة غير كردية.

في المحصلة كان سعي الحكومة والأحزاب غير الحكومية، خلا الحزب الكردي، يتمثل في تذويب الأرض التي فرش الأكراد أنفسهم عليها في الحرب الأهلية قبل ستين سنة بحيث لا تكون عرضة للانسلاخ عن جسم الوطن، وفي الوقت نفسه ترسيخ مبدأ أن الدولة ليس ذات عرق واحد بل أعراق، وتجد تماسكها في مبادئ التكافل الاجتماعي من رعاية يتيم ومسن ومريض ومعوق، ومن خلال اللغة العربية، ومن خلال العدل.

***

لم يأتِ حزبنا إلى الشام بحريات أكثر، بل بحريات أقل. فقد شهدت السنوات القليلة قبل نزول الزعيم في دمشق استرخاء للدولة وحرية عمل للأحزاب، وحرية للنصابين واللصوص أيضاً. ما أتينا به كان الضبط القانوني والشرطي وقمع «المنتقمين» والمجرمين. فأما الصناعة والزراعة فقد انتظرتا سنتين ثم كان نهوض مفاجئ تراه فكأنك ترى فلماً بالتصوير السريع. أخذنا نرى كل يوم مصانع ومزارع جديدة، رغم شح الاستثمارات الخارجية.

في الشام حضارة كامنة، وفي الناس فهلوة وذكاء اجتماعي يتحولان إلى إنجاز اقتصادي ومعرفي إن وجدا المناخ المناسب. ولا يزعمنَّ أحد أن حزب التكافل جاء للشام بشيء لم يكن موجوداً في الشام. كان حزبنا كالعامل المساعد في التفاعل الكيميائي، يدخل بين المواد ثم يخرج من بينها بعد التفاعل سالماً غير فاقد شيئاً، لكنه يصنع التفاعل.. أو يساعده.

كانت قوانين رزان تضارع في أهميتها جيش الزعيم. ولم نفتقد كراريس باباتي كثيراً، واهتدينا بهديها وكتب الكاتبون مثلها، مما يشابهها أو يناقضها. كنا نسيِّر أدبياتنا تسييراً لتلائم الواقع، ولم نكن نلوي عنق الواقع ليساير ما كنا نكتبه. ولم يكن لدينا من الأفكار المحفورة في حجر الصوان سوى كلمة «التكافل».. وتحتها تندرج مفهومات بسيطة: لا فضل لقومية على قومية، ولا لدين على دين، الناس متساوون أمام القانون، والفرص متساوية قدر الإمكان، والطبيعة التكافلية للمجتمع تقلص الفجوة بين الغني والفقير في لعبة كر وفر دائمة، واللغة الرئيسية عظيمة لأنها أداة للمعرفة ولتسيير الشؤون. وقد وعينا تجارب الأمم وأنْعَمنا النظر في التكلفة الباهظة التي يدفعها الأوروبيون منذ عقود للهوة بين حلم التوحد وصعوبة التخاطب. فلئن ارتضوا لأنفسهم، مرغمين، الإنجليزية أداة

للتفاهم حتى بعد خروج الجزيرة البريطانية من صفوفهم، فمن العجز والفَهاهة ألا نرتضي لأنفسنا اللغة العربية التي تجد في نفس العربي قبولاً وفي نفس غير العربي قداسة. واشترطنا على أنفسنا «الحزبية» و«البرلمانية» نتقي بهما شر التسلط.

مع انقضاء السنة الثالثة على حكومتنا جاء التعديل الوزاري جارفاً، شاركتُ فيه الزعيم وشاركتنا رزان وفخامة الرئيس وزياد ضمن مجموعة «مطبخ» صغيرة. كان البرلمان خير بوتقة تنجلي فيها معادن الرجال والنساء وكنت منغمساً في الحياة النيابية أحضر الجلسات، وأستدعي نوابنا إلى مكتبي بالمجلس فرادى وزمراً. وكان زياد يأتينا من الأقاليم بمن يتوسم فيهم العزم.

كانت سنوات ثلاث من غربلة الرجال والنساء.

شهد الأردن في الوقت نفسه حكومة ائتلافية ترأستها ابتسام، ولكن ما لحق بالتكافل الأردني من ضعضعة لم يقربه من تكافل الشام. لم يعد الزعيم يحكم الأردن، ولم يكن للأردن التكافلي وغير التكافلي مصلحة في أن يكون قريباً سياسياً من جاره الشمالي الذي يعالج أزمات داخلية عويصة. ولكن الزعيم وباباتي لم يسمحا بالتنافر. وكان مؤتمر الحركة التكافلية المقبل في الشام. لم يكن منتدى بل مؤتمر. وكان الترتيب أن أدعو إليه، فدعوت.

كانت نهضتنا الاقتصادية قد أطلت برأسها، وشقت سطح الأرض بقوة. وكان الأمان النسبي واضحاً، فلا حماة انتقضت ولا اللاذقية انتفضت، ولا حتى مناطق الأكراد شهدت أكثر من مناوشات.

اجتمعنا مئة مندوب: عشرين تكافلياً من كل من العراق والأنبار والشام ولبنان والأردن. وكان تكافليو مصر قد ابتعدوا وغيروا الاسم، واختطوا لأنفهسم طريقاً يلائم مجتمعاتهم في مصر والسودان، ويعالج ظروفهم السياسية المختلفة. وكان تكافليو اليمن ودول الخليج قد فهموا أن عليهم السعي وحدهم.

نوقشت الأفكار في القاعة صباحاً على مدى الأيام الثلاثة، وأسهر المندوبون مقاهي دمشق وفنادقها حتى الهزيع الثاني في نقاشات جانبية وفي صفقات سياسية. وقصدنا أن ننزل المندوبين في الفنادق مختلطين. ورغم اهتمامي الشخصي بباباتي، فإنني وجدت في مندوبي الأنبار ما أثار اهتمامي.

غاب الزعيم وغابت ابتسام، فالمؤتمر حزبي لا حكومي.

كان باباتي الذي اقترب من السبعين في قمة نشاطه ويقظته الفكرية، وجلست إليه، وذهب بتفكيره بعيداً:

- ماذا يجري في لبنان؟
- مصر تعبث، وفرنسا تعبث، وإيران، وتركيا. وإسرائيل كالعادة.
- لقد تجمع من السلاح ما يكفي لبدء حرب أهلية صغيرة. هل يشغلكم هذا، أنتم في الشام؟
- ليس في المقام الأول.
- التكافل في لبنان بقي الوحيد غير المسلح بين شتى الجماعات.
- أليس في هذا بعض الحماية له؟
- إذا اشتعلت حرب أهلية فسوف يركض كل لبناني إلى من يوفر له الخبز ليضرب بسيفه. وقد يتفرق التكافليون على الميليشيات، وينسون أنهم تكافليون. وتلوثهم التجربة ويضمحل تكافل لبنان.
- هل لمست هذا من كلامهم هنا؟
- شعرت به.
- هل ترى لتكافل الشام دوراً مفقوداً؟
- للزعيم علاقات مهمة في لبنان، ولا أراه بدأ يوظفها.

عندما كان الزعيم في منفاه القبرصي كان كثير التردد على لبنان، يقيم طويلاً في بيوت أصحاب له. ولكن، يبدو أن مشكلات الشام أنسته أن لبنان يجلس على برميل بارود.

كان المؤتمر إشارة واضحة إلى أن التكافليين في الدول الخمس لن يتخلى بعضهم عن بعض، وإلى أنهم يشكلون جسماً واحداً من حيث الفكر، ومن حيث التعاون اللوجستي. وظلت للزعيم

صلات مخابراتية بالأردن، وأضيف إليها مخابراتياً لبنان والأنبار. ولكنه لم يملك حرية الحركة بعد. وأوضاع الشام، رغم النهوض المفاجئ، لا تسمح باتحاد جمركي مع الأردن.

***

عقد الحزب الكردي مؤتمره تحت شعار (بلد واحد وشعبان) وامتص بعض التوتر، واجتذب عدداً من الأكراد التكافليين. وانتظرت حتى يستقر الوزراء الجدد في كراسيهم، وحتى يتم تدبير أمر الوزراء المعزولين، إذ أنشئ لهم مجلس استشاري ملحق بمكتب القرار، ثم دعوت إلى مؤتمر لحزبنا. وانتخبنا هيئة الحزب الكبيرة، وانتخبت الهيئة مكتب القرار الذي سيرشح النواب للبرلمان بعد أقل من ثلاث سنين. لكن هذه السنين ستشهد من النهوض أضعاف ما شهدته السنون الثلاث الأولى من حكمنا.

ألا تقول الخرافة إن الشاة أخذت ترعى آمنة وبجانبها الذئب في عهد عمر بن عبد العزيز، وإنه لم يبقَ فقير تجوز عليه الصدقة؟ رأينا كيف جعل الأمان الشام تنمو، وتكبر، وتصبح بلداً سيداً. أما اللبنانيون فتذكروا عادتهم القديمة، يشتد الاحتقان فيأتي الفرقاء إلى دمشق، والحل دائماً عند الزعيم. وظل أمراء الطوائف يغتنون من أموال ريعية تدرها عليهم إقطاعاتهم التجارية والصناعية، وظلوا يأخذون المال والسلاح من الخارج، وظل الشعب يعاني نقص الخدمات.. والقهر. ويزيد عدد المنتسبين إلى التكافل، وليس للتكافل اللبناني إقطاعات ولا مال يأتي من الخارج، ولا من عندنا.

وإلى الشام أتى عصام وابتسام وباباتي، فعصام كان قد كون جماعة له يغلب عليها الطابع الفلسطيني ضمن التكافل الأردني، وابتسام تريد الخروج من السياسة ولكنها قبل أن تترك رئاسة الحكومة تريد أن تشارك في حماية المنجزات التكافلية في البلد، فثمة جماعة ذات نزعة أردنية إقليمية قد نشأت، بعضها داخل صفوف التكافل. بتحرك عصام نشأ استقطاب قد يعيد البلد عشرات السنين إلى الوراء.

لم يتوقف النمو الاقتصادي في الأردن، وإن كانت الشام مع قرب انتهاء ولايتنا ذات السنوات الست قد لحقت. ولكن جنون العظمة حل بعصام فأبى إلا أن يكون مرشح الحزب بخلاف رغبة مكتب القرار، وراح يجيش الأحياء التي كانت مخيمات، ثم انشق عن التكافل وشكل حزبه، وبسرعة تشكل حزب أردني رداً على نشاطه. الزعيم وباباتي وابتسام وأنا أخذنا ننظر إلى الأمر باستياء، ونقدر مدى المخاطر. لكن الزعيم كان أسبقنا إلى تفهم الوضع، فعصام يرى أن حياته

السياسية توقفت وبدأت تنحدر، وقرر أن يكون رئيس حزب صغير لا الشخص الخامس أو السادس في حزب كبير، ونشوء حزب فلسطيني أو سوري أو أردني في الأردن هو كنشوء حزب كردي في الشام. هو شيء مشروع. على أنه في الأردن وصفة للتفكك. نعم، ثمة فرق جوهري.

لم أحضر اجتماعات الثلاثة، باباتي وعصام وابتسام، مع الزعيم. وانصرفوا دون اتفاق.

فكرت في نفسي وفي عائلتي، أنا نفسي يجري في عروقي مع الدم الشامي والأردني بعض الدم الفلسطيني ككثيرين من أهل السلط، وزوجتي أمها فلسطينية، وأمي، رحمها الله، رغم أنها سلطية من الفرع «الأصلي»، لها جدة شركسية. ألم تختلط الأعراق في الأردن بما يكفي؟ وماذا عن ملايين السوريين وآلاف العراقيين الذين استقروا في الأردن بعد الفلسطينيين بسبعين سنة؟ لعل ما جرى في عائلتي ظل محصوراً في نسبة محدودة من العائلات، ولا يقاس عليه. ثم إن المسألة ليست مسألة دم، هي نزعة حب الزعامة عند هذا الناشط الذي اسمه عصام، فقد تولى رئاسة الوزراء ثماني سنوات وأنفاس الزعيم توقفه على قدميه، فلما تُرك وحده عاد مجرد ناشط لا سياسي، ولم يكن قط صاحب فكر.

تحلى الزعيم بالصبر، ولم يلاحق رؤوس المعركة السياسية في الأردن، لكن ملفات المخابرات الأردنية كانت تصله قبل أن تصل إلى أي أحد. وأخذ يغشى الشام أسبوعاً بعد أسبوع شتى المسؤولين غير السياسيين: ضباط، ورجال أمن، ورجال صناعة.

دعت ابتسام إلى الانتخابات التي وجب تأخيرها بضعة أشهر بسبب وفاة جلالة الملك، وارتقاء ولي العهد العرش. وسارت الحملة كالمعتاد. وحصل عصام لجماعته على عشرين بالمئة من المقاعد، والتكافل على أربعين بالمئة، وتوزع الباقي. وشكل التكافل مع الحزب الأردني حكومة كان على رأسها باباتي.

عندما استُدعي باباتي إلى القصر مكث طويلاً، فالملك الشاب بحاجة إلى أن يسمع منه وأن يعرف أموراً كثيرة. وكان بين الملك الشاب ورئيس وزرائه العجوز عدة لقاءات غير رسمية.

زار الزعيم عمان، وتوجه من فوره إلى القصر لتهنئة الملك الجديد، ومكث طويلاً. وزار باباتي في مقر رئاسة الوزراء، ثم زاره مرة أخرى في أحقر شقة في جبل الحسين، في المخدع العتيق، ترافقه زوجته. وعادا إلى الشام مساء. عاد الزعيم وفي جعبته مؤامرة حاك نصفها باباتي.

***

بدأنا نحشد الحزب، ليس للانتخابات بل للتصويت على قانون جديد، ومررنا القانون بالثلثين. واعتليت منبر البرلمان داعياً جلالة الملك الهاشمي إلى قبول تاج الشام. وحشد باباتي وراء هذا المطلب حكومته الائتلافية، التي رأت في الخطوة مهرباً من الطائفية البغيضة التي بدأت تسود البلاد.

كان هذا مجرد الغلاف لتطورات تالية. فقد فُرض الاتحاد الجمركي الكامل بين الشام والأردن باتفاق حكومي، وبدأت تندمج قيادات الجيشين، وتولت رزان وزارة الخارجية الموحدة. وظل مجلسا النواب في البلدين منفصلين، إلى حين إتمام الاتحاد الذي بدا أنه سيكون كونفدرالياً. لم يسمع أحد من الزعيم كلمة. ومضت الأحداث تتوالى كأنها تطور طبيعي للأمور. لم يكن لهذا الاتحاد «الفعلي» بين الشام والأردن أثر الزلزال، ولا ما دون الزلزال، فقد تدرج من تتويج الملك على الشام إلى الاتحاد الجمركي إلى تداخل الجيشين، ونسينا الكونفدرالية واتجهنا إلى اتحاد أقوى.

ثم إن حدثاً آخر سرق الأضواء.

أحدثت زيارة رزان إلى القدس ضجة عالمية. وفُتحت سفارة إسرائيلية في دمشق، على أن يبدأ سريعاً التفاوض بشأن هضبة الجولان. لم يكن معقولاً أن يكون لإسرائيل سفارة في عمان، وعلاقات مقطوعة مع دمشق.

حضر عصام إلى الشام بعد أشهر معتذراً. فقد رأى أن يد الزعيم طويلة، ورأى أن مستقبله السياسي قد يتحسن إذا رضي عنه الزعيم. ثم عاد إلى الأردن فحل حزبه، ودعا أنصاره إلى العودة إلى حضن التكافل.

وبدأ على قدم وساق تجديد «قصر المهاجرين» في دمشق ليكون لائقاً بملك الشام والأردن.

***

في لبنان رأى أمراء الطوائف أن الوقت مناسب جداً لبدء حرب أهلية، ورأت فرنسا رأيهم، ومصر شاركت، ودخلت السعودية في سوق الحرب ببعض الاستثمارات السياسية، وتهيأت إيران للدخول. أما تركيا فوقفت موقفنا الذي لا يريد هذه الحرب.

الحرب الأهلية خير وسيلة تمنع التكافل اللبناني من نيل أغلبية في مجلس النواب. فلتكن حرب أهلية حتى لا تكون انتخابات. ورفعت المليشيات رايات الحرب. وكان موقفنا حاسماً: لا نريد من لبنان إلا أن يكف شره عنا. هو الثغرة التي يدخل منها الآخرون إلى المنطقة، وهو الساحة التي يقتل فيها اللبنانيون بعضهم بعضاً بتمويل خارجي. ما لنا وللبنان!

بدأت الحرب حلفاً سنياً مسيحياً ضد الشيعة والتكافل. وسرعان ما اختلطت الأوراق. ومع سقوط القتيل الألف دارت الدائرة على المسيحيين بتحالف سني شيعي. وأخذت قوى داخل الشام تمد بعض المتحاربين بالسلاح، فرابط الجيش على الحدود وقمع أي تدخل. تقلص التكافليون في لبنان، والتحق عدد كبير منهم بطوائفهم.

فمتى يتدخل الزعيم؟ عند أي ألف من القتلى يقرر الزعيم أن يدخل عنصراً في الحرب الأهلية اللبنانية؟ كان هذا سؤال الناس في لبنان، وفي الأردن والشام أيضاً.

قبع الزعيم يستقبل ويودع وفود أمراء الطوائف. جاءه المسيحيون، ثم تحالفوا مع حزب شيعي، ودارت الدائرة على السنة، فجاءوا، ثم ضرب الشيعة الشيعة فجاء الطرفان. ثم ضرب المسيحيون المسيحيين فجاءوا جميعاً. وكاد الدروز يعلنون دولة مستقلة، فهوجموا فدخلوا الحرب، فجاءوا.

***

يميز الدولة التي يحكمها رجل قوي أنها تتحرك بسرعة، وبفاعلية.. غالباً نحو الهاوية. وأراد الزعيم أن يرسخ الملكية الدستورية والنظام البرلماني، مستغلاً كل ما يملك من سطوة ومن شعبية. لكنه تريث لأن الوضع على الجانبين: في لبنان وفي دولة الأنبار قلق. وكانت بعض الأمور العالقة بين الشام والأردن بحاجة إلى علاج.

توتر الوضع في الأنبار بين الأقلية الشيعية الصغيرة والأقلية الكردية الكبيرة من ناحية وبين الحكومة السنية الضعيفة من ناحية، وتحركت الميليشيات، وبدأت تحكم بعض المدن والقرى. وبدأ المسؤولون ورؤوس الفتنة يفدون من الموصل إلى دمشق.

كانت تركيا تفضل أن نضم الأنبار على أن تضطر إلى خوض حرب بالوكالة مع إيران فيها. ولعل إيران كانت تفضل الاكتفاء بما بقي لها من نفوذ في العراق على أن تنزف مالاً في حرب

بالوكالة في الأنبار. كان الاستقطاب السني الشيعي قد ضعف كثيراً عما كان عليه في الثلث الأول من القرن، ولكن أهل هذا الهلال الخصيب يبحثون عن الشقاق بحثاً.

وقبل التفكير في انتخابات بالشام والأردن، مشتركة كانت أم منفصلة، قرر الزعيم أن يستند إلى تحالفه المتين مع أمريكا وتركيا وأن يتحرك.

كانت فرنسا قد حاولت استصدار قرار من مجلس الأمن بحماية استقلال لبنان، فرفضته واشنطن، وقال مندوبها في الجلسة إن المطلوب الآن أن ترفع الدول يدها عن لبنان. وسقط المشروع الفرنسي. وكان لمساعينا في واشنطن يد في إسقاطه.

كان الزعيم متغلغلاً في جيشين ضعيفين على جانبينا: جيش الأنبار والجيش اللبناني. وكان يشير بالانضباط التام إلى أن تحين الفرصة المناسبة. بدا واضحاً أن الأغلبية في البلدين تريد حكم التكافل. ولكن حكم التكافل سيحد من سلطات أمراء الحرب في لبنان، وزعماء الميليشيات في الأنبار.

كانت تجربتنا في الأردن وفي الشام تدهش الدنيا، وكان أكثر المندهشين إيانا، قدامى التكافل. كنا ننجز مشاريعنا الصغيرة، في الصناعة وفي التعليم وفي القضاء وفي تعزيز المواطنة ومنح الأقليات العرقية والدينية الحقوق. ولكن هذه كلها كانت أقزام إنجازات نراها تخرج من بين أيدينا شتلات منتثرة في صحراء مقفرة. لا نرى المشهد الكامل لأننا في قلبه. كانت تلك الشتلات تقذف بذورها في الهواء فإذا الصحراء جنة. كان العدل يثمر نفوساً والنفوس تثمر مشاريع أكبر وأكثر من مشاريعنا الصغيرة، كنا نظن أن الماء وحده يستطيع تخضير الصحراء، فاكتشفنا أن العدل يستطيع. صنعنا النموذج فتكاثر. لم ينهض التكافل بالشام بل نهضت الشام بأهلها.

لم نلمس الدين ولا الأخلاق، ولكننا لم نجبن عما هو ضروري من الهندسة الاجتماعية، قدم العلمانيون منا ومن غيرنا مشاريع قرارات لتحويل الكنائس والمساجد التي قل روادها إلى مدارس، ولحجب التمويل عن كليات الشريعة، ورفضناها كلها، وجاهدنا كي نترك المحاكم الشرعية والكنسية تحيا حياتها، تنمو أو تضمحل بحسب ما يريده الناس، وتركنا المساجد والكنائس تعمر أو تفرغ، وليبنِ المدارس من احتاج إلى مدارس، وليعدد الزوجات من وجد زوجات يقبلن. بحت أصوات

النسويات والنسويين في التكافل، وظللنا نمسك العصا من وسطها. ولتكن هناك مؤسسة مدنية تزوج الناس الذين يريدون الزواج خارج نطاق المحاكم الدينية.

لم نبالغ في تشكيل المجتمع، فهو يتشكل وحده. أليس يكفينا إنهاض البلاد معرفياً واقتصادياً، وضبطُ الناس أمنياً وكفُّ بعضهم عن بعض، وتأمين الناس صحياً بقدر الإمكان، ورعاية اليتيم والمسن والمعوق؟

فهم الناس خطنا الوسطي التكافلي، وسار المجتمع معنا لا ضدنا.

تهيأت الشام والأردن لانتخابات لم يتم بعد وصف شكلها وما سينشأ عنها من نظام، ووجود التاج الهاشمي على رأس البلدين لا يعني أن الأمور توضحت. ولم تحدث الانتخابات، فأما على الأرض فكانت الوحدة تحدث بسرعة. وقبل الإعلان عن وحدة رسمية، فدرالية أو كونفدرالية، بين الشام والأردن تحرك الزعيم في مكان آخر.

***

دون سابق إعلان كان نصف جيش الأنبار يقف على الحدود يستقبل جنود الشام والأردن، وبعد أيام قلائل كانت الجيوش المشتركة ترابط على حدود كردستان والعراق وتحاذي ضواحي بغداد، ولم نجد مقاومة لا في نينوى ولا صلاح الدين ولا الأنبار ولا كركوك.

وتسمت البلاد في إعلان رسمي صدر عن رئاسة الوزراء في دمشق «السماوة» نسبة إلى البادية التي تمتد في كل أقطارها. وبدأنا في الشام وفي الأردن وفي الأنبار نغير ترويسات الأوراق الرسمية.. وصار اسم الدولة «السماوة».

لم يسمع أحد في نشرة أخبار أن الشام والأردن توحدتا. هل توحدتا فعلاً؟ الجيش اختلط بالجيش، ونشأت اللجنة الخاصة بتوحيد الرتب العسكرية.. هذا عن الشكليات. فأما في العمق فقد كان القادة هنا والقادة هناك ينظرون جميعاً إلى الزعيم مثلما ينظر المسافرون في الصحراء إلى النجم القطبي. كان الزعيم يضم الجيشين، دون أن ينفرط عقد الكتائب والفرق، بل تهتدي جميعاً بأوامر قيادية واحدة، وانضم جيش الأنبار. ألم تكن جيوش الفتح الإسلامي مكونة من فرق شتى كل فرقة فيها تضم أبناء قبيلة بعينها لا تشاركها قبيلة أخرى؟

مع إعلان دولة السماوة كان الجيش اللبناني قد انسحب إلى ثكنه، فقد تهيأ أمراء الحرب ليشعلوها حرباً في كل قرية وفي كل شارع، وتعالت صرخات الحرب في كل مكان.

لم يدخل جيشنا إلى لبنان ولم يخرج الجيش اللبناني لاستقباله. بل فتحنا الحدود للمدنيين الذين لا يحملون، ولم يحملوا، سلاحاً. وفتحنا لهم مخيمات جديدة، وبدأنا ننقل أعداداً منهم إلى الشمال الشرقي حتى يعمروا أرضاً غير معمورة، وحتى لا يكون للمساحات الشاسعة، التي طوبتها القوات الكردية في العقود الماضية باسمها، طابع كردي صرف.

وأغلقنا الحدود مع لبنان إلا للتجارة وللحالات الإنسانية. وصرفنا الاهتمام إلى تعميد دولتنا بشكلها الجديد، وباسمها الجديد «السماوة»، في ماء الانتخابات المقدس. وكانت انتخابات عامة لجمعية تأسيسية ستقرر شكل الروابط بين الشام والأردن ودولة الأنبار.

لم يعر المراسلون والمعلقون الأجانب انتخابات جمعيتنا التأسيسية كبير اهتمام، فقد آمنوا أن ما سيصهر عشائر الأنبار وأكراد الشمال ودروز الجبل والسنة والشيعة والفلسطينيين والمسيحيين والكلدانيين والسريان واليزيديين إنما هو الحكم المطلق. وكنا نمني النفس أن يكون الصهر بنار حكم مركزي يؤول إلى ديمقراطية ويستمد حياء وارعِواء من التاج الهاشمي الذي رجونا أن يكون صمام أمان ضد دكتاتورية تختبئ لنا في طوايا الغيب.

لن يتزاوج الرجال والنساء من شتى عناصر هذا الكيان السياسي الوليد بما يكفي لتشكيل شعب متجانس إلا بعد ألفي سنة. والساسة لا تمتد خططهم إلا بحسب مدة ولاية أحزابهم. وفي حالتنا فنحن نخطط لبضعة عقود نتمنى أن يظل حزبنا فيها ممسكاً بزمام الحكم.

جعلت الجمعية التأسيسية لكل بلد مجلساً، وحدوداً، فهذا حفاظ على خطوط رسمها موظف فرنسي وموظف إنجليزي قبل مئة وستين سنة. رضينا أن نحافظ على سايكس بيكو لأن أهل هذه المنطقة تمسكوا بخطوطها بإيمان كأنها منزلة.

وتفتقت عقول العروبيين في حزبنا عن خريطة للتواجد الكردي وزعت في الجمعية التأسيسية ورضي عنها المندوبون الأكراد ولكنها احتوت رسالة دفينة. رسمت مناطق تواجد الأكراد على الخريطة بألوان متدرجة من الواضح المشرق إلى الباهت المتناهي تصل إلى دمشق وحلب

والموصل وتحتوي بتدرج معين هذه المدن ومناطق كثيرة بينها، لكن بلا خطوط. خريطة بلا خطوط.. بلا حدود.. بل بألوان متدرجة. أريد لهذه الخريطة أن تعيش في المواقع وفي الإذهان، وفي الكتب، وفي سنوات كثيرة ستأتي، حتى تمحي من الأذهان صورة كردستان جديدة غير كردستان العراق. ولم يدرك مغزى هذه الخريطة إلا الكردي المتشبث بمستقبل يكون لأكراد السماوة فيه مناطق بعينها تتحول مع مرور الزمن إلى دولة ذات سيادة.

كان الهم الكردي يلازمنا مثلما يلازم الأكراد. لم نكن نريد أن تقذف تركيا بأكرادها ليقتطعوا من أرضنا. فأما لو تيسرت للأكراد ظروف دولية ملائمة واختطوا لأنفسهم من إيران وتركيا والسماوة حدوداً فهذا سيرضينا. ولكن الوضع الآن غير هذا: ففي تركيا يقمعون الحلم الكردي، وفي إيران يتحايلون عليه، ونحن نعالجه بخبث بقدر ما عندنا من ضعف في الحكم المركزي.

حُلمنا نحن، في التكافل، هو أن تكون السماوة مصهراً لشعوبها تجتمع فيه على اللغة العربية، وعلى عدل وأمان افتقدتهما المنطقة قروناً. وكنا نورد في كراريسنا أمثلة من الشعوب الصغيرة التي انتفعت باتخاذ لغة قوية تاركة لغتها الأم لتعيش هذه اللغة عيشة هانئة في الكنيسة، كحال القبطية القديمة، أو لتوفر ملاذاً لدفقات الحنين التاريخية كلغة ويلز البريطانية، وكنا نتحدث باستفاضة عن سهولة الاحتفاظ بلغتين: لغة قومية ولغة للعلم والعمل.

وفسر أكراد كثر مساعينا هذه على أنها خير، وفسرها كثيرون على أنها خبث عروبي. ولعلها خبث عروبي مليء بالخير.

لم تثر ولادة دولة السماوة زوبعة. خسرنا مقعدين في الأمم المتحدة، ووفرنا مالاً كثيراً بتوحيد السفارات، وبدأ النمو الاقتصادي يسجل أرقاماً قياسية.

***

مضى اللبنانيون يطورون حربهم الأهلية بكل وسيلة مبتكرة. كانوا كأنهم يلعبون. السلاح لا يحب الصدأ. وقد أتخمت الترسانات في كل مكان في لبنان.

وقف جيشنا يحمي الحدود.

لم تنهِ الجمعية التأسيسية أعمالها بسرعة، ولم يضرها أن الحرب الأهلية اللبنانية كانت دائرة على بعد كيلومترات فقط من دمشق، لكنها انتبهت إلى التدخل الإسرائيلي المتزايد، وازدادت انتباهاً عندما نشرت إسرائيل جيشها في منطقة لبنانية محاذية لمزارع شبعا المحتلة. كان غرض إسرائيل تعزيز موقفها التفاوضي عندما تطرح قضية الجولان بقوة في اللجان التفاوضية والفنية التي تشكلت مؤخراً. كانت تريد أن تقايض، وأن تحمي مصادر مياه نهر الأردن. ها قد احتلت إسرائيل قطعة أرض جديدة بعد عقود طويلة لم يتسنَّ لها فيها أي توسع، ولبنان غارق في ممارسة هوايته الأثيرة.

ساعدت هذه التطورات في الإسراع بالتوصل إلى صيغة دستور فدرالي تنشأ بمقتضاه هيئات تمثيلية محلية في البلدان الثلاثة ويتحكم البرلمان المركزي في معظم قضايا الاقتصاد والدفاع والخارجية؛ تبقى للبلديات والمجالس القروية ميزانياتها، وتصب المصانع والمزارع ضرائبها في ميزانية الحكومة المركزية إضافة إلى ضريبة الدخل على كل صاحب دخل. ويبقى للبلديات الضرائب التي تجبيها من أصحاب العقارات، وعلى استعمال السيارات للشوارع، وتبقى لها غرامات السير وما أشبه ذلك. وحدة أقوى من فدرالية، ولم يجد لها المفكرون السياسيون اسماً أفضل من «الوحدة شبه الاندماجية».

أعلن باباتي رئيس المؤتمر الدستور الجديد، وحل الجمعية التأسيسية. وبقي في دمشق، عاصمة السماوة.

حمل المندوبون حقائبهم، وغادروا دمشق. ووسط الحشد العسكري الحدودي لجيشنا في الأردن وفي الشام، جرت الانتخابات في كل السماوة. وشكلنا حكومة سريعة. حمل الزعيم رئاسة الحكومة على كتفيه مع الدفاع والداخلية. وآثرت رزان البقاء في الخارجية، فكنت نائباً لرئيس الوزراء، وتولى باباتي رئاسة الحزب لكل السماوة، يدعمه الرئيس مدحت في الشام ونائبان آخران له في الأردن والأنبار. واستدعيت ابتسام لتتولى وزارة التعليم في السماوة، فتولتها بحبور بعد أن كانت قبل سنتين رئيسة وزراء في الأردن. وتولت عفاف وزارة الاقتصاد.

وافتتح جلالة الملك البرلمان المركزي الذي كانت لنا فيه نسبة تزيد عن السبعين بالمئة، هذا رغم أن التوسع الإسرائيلي الأخير، وحدوثه في ظل علاقات دبلوماسية لنا مع إسرائيل، كان من شأنه أن يضعضع حظوظ التكافل.

***

شهدت الحرب الأهلية في لبنان بعض التطورات.. لكنها ظلت مجرد لعبة تقتيل.. لا هدف.. لا تكتيكياً ولا استراتيجياً.. تقتيل فحسب. وصدرت عن دمشق إنذارات خفية أُرسلت مع من يوثق بهم إلى بعض أطراف الحرب بأن من يتحالف مع إسرائيل بأي شكل فسوف يلقى عقاباً صارماً. واستمر اللبنانيون في لعبتهم، وأوصلوا عدد القتلى إلى العشرة آلاف بكل سهولة.

بدأت تتشكل قوة مقاومة للتوسع الإسرائيلي. وبدأت تتشكل في الشام قوة، وفي الأردن قوة. وبدأت هذه القوى عملية تشبيك خفية. وبدأت منظمات وليدة تزود نفسها بالسلاح، وبدأت تصنع المتفجرات. ثم أخذت تهاجم إسرائيل في عمليات حدودية. وحفرت الأنفاق، وأخذت القنابل تنفجر في شوارع المدن الإسرائيلية تخريباً وتقتيلاً. كان وراء هذه المنظمات تعليمات صارمة كأنها صادرة من الزعيم: تخريب لا تقتيل. فإن قتلتم جندياً فهذا حسن، وإن قتلتم مدنياً فهذا مرفوض تماماً.

لم يمسك أحد بأي خيط يصل بين هذه المنظمات وجيشنا. وانشغلت مخابرات إسرائيل واشتغلت مخابراتنا، وأصبح لهذه المنظمات روح وجسد، وشارك فيها من فلسطينيي الحواضر كثيرون، لكن الأنفاق كانت تضخ المقاتلين بقنابلهم. فمن نجح منهم في أن يكمن في إسرائيل أو في الحواضر أو في داخل التجمعات العربية داخل إسرائيل فهو قنبلة موقوتة، وهو محطة دعم لمقاتلين وافدين.

ضجت إسرائيل سريعاً، وأعرب الزعيم عن ضيق حقيقي بهذا المخلوق الذي اكتسب شخصية مستقلة، ولم يعد بالإمكان السيطرة عليه، فهذه المنظمات التخريبية مشكلة لأي حكومة رسمية.

وتضخم جيشنا عدداً وعدة، وتأهب. وانفتحت شهيتنا لحرب. لو دخل الإسرائيليون غور الأردن مشرّقين، فسوف ندخل غور الأردن مغرّبين، ولن تلاقيهم مدفعيتنا على الجبال بطاقات الزهر. ولو وصلوا مشارف دمشق فسنصل مشارف تل أبيب وحيفا. لكننا تريثنا حتى يرى المجتمع الإسرائيلي أن ما يضمن أمنه إنما هو السلم والمعاهدات الدولية لا الاعتداء السخيف واقتطاع أرض من لبنان. وبدأ فريق هندسة عندنا يرسم الخطط لتحويل مجرى نهر الأردن، تحويلاً يقنع إسرائيل مرة وإلى الأبد بأن مياه هذا النهر لا يمكن اقتسامها إلا بمعاهدة كتلك التي ظلت سارية المفعول بين الأردن وإسرائيل ثمانين سنة.

استبسل اللبنانيون في الجنوب، وبدأت ترسانات أسلحة الحرب الأهلية تتحول ببطء نحو الجنوب. وبروح حزب التكافل التي لا تعترف بالطائفية ولا بالقومية الضيقة اختلط الشيعي بالسني بالمسيحي في غضب عارم. وأعلن رئيس وزراء إسرائيل أن توسيع مزارع شبعا كان مسألة تكتيكية محضة. وازدادت عمليات التخريب بدل أن تقل. واستبسل الفلسطينيون، وتحركت الحواضر الفلسطينية ضد المستوطنات.

بعد شهرين من بدء التخريب كان جيشنا يضع إصبعه على الزناد. وكانت جماعات الضغط التابعة لنا ولكل بلد عربي تواجه في واشنطن وفي أوروبا جماعات الضغط الإسرائيلية. وبعد اجتماع فاشل لرزان في القدس مع وزير الخارجية الإسرائيلي طردت إسرائيل سفيرنا، وسحبت سفيرها.

عسكرياً ظلت إسرائيل أقوى من جيشنا الكبير، كانت قوتها التقنية متميزة. ولكن قدرتها على تحمل الخسائر البشرية ظلت محدودة، وظلت محتاجة إلى الأمان أكثر من حاجتنا. فنحن نجد الأمان في نظام يدعمه الشعب، ونجد الأمان في النمو الاقتصادي السريع، ونحن نرى في هذه المواجهة تعزيزاً للحمة بين جمهرات شعبنا وأجزاء بلادنا التي لم تلتحم في دولة إلا منذ أشهر. وإذ ننظر إلى هذه الفترة بعد مرور كل هذه السنين ندرك أن ذلك الاعتداء من إسرائيل على قطعة من الأرض في لبنان، كان خير وسيلة لتعزيز اللحمة بين أطراف السماوة.

ظل الزعيم صامتاً. وعندما التقيته في جلسة خاصة بعد انفضاض الجلسة الاعتيادية لمجلس الوزراء المصغر، مجلس الحرب، سألني عن حال اللغة العربية، وتعجبت طبعاً.

– بخير. والكل مقبل عليها لأن معظم التعليم الجامعي والتقني صار بالعربية.

– إلى أي حد تطور كتبنا ومواقعنا المعرفية اللغة العربية في البلدان العربية الأخرى؟

– كثيراً، وليس عندي أرقام جديدة.

– هل نربح من وراء ذلك.

– على الأقل لا نخسر. والمردود في مدى التحصيل العلمي في المدارس والمعاهد كبير. المتخرجون عندنا أفضل من ذي قبل في العلوم والرياضيات. واللغة الإنجليزية في الشام بالذات

نهضت بقوة، مثل الأردن.

– والعبرية؟

– فقط تلك المراكز التي تخدم المخابرات وبعض الأكاديميين.

وبالعبرية كان للزعيم حديث مشهود. كانت إسرائيل ما تزال تحتل القطعة الإضافية من أرض لبنان قرب مزارع شبعا، المحتلة أصلاً منذ بضع عشرات من السنين، وكانت العلاقات شبه مقطوعة بسحب السفيرين.

***

وسط الأزمة الدبلوماسية مع إسرائيل حل بدمشق ثلاثة إسرائيليين. صحفيان وأكاديمية. وكان اللقاء بالعبرية، وبث في المحطات الإسرائيلية وفي محطاتنا، مترجماً إلى العربية، وبث مترجماً إلى لغات عدة.

– هل عاد الشرق الأوسط إلى زمن الإرهاب؟

– أرى عمليات تخريب، وأتوجس من قتل أي مدني.

– هو إرهاب للناس.

– درجتم في العبرية على استعمال كلمة مخربين، وهي كلمة مناسبة.

– هل تدركون أن هذا سيرتد إلى صدركم؟

– ندرك. ونتخوف من ذلك. لذا نتعقب من ينوي التخريب.

– الدلائل تشير إلى أنكم تساعدون المخربين.

– لا. الذي أوجدهم هو من يعتدي على دولة مجاورة. وقد أمضينا ست سنوات في حكومتنا السابقة بالشام نطالب بأرض لنا محتلة هي الجولان، ونطالب فقط بمقتضى القانون الدولي، ولم نشهد تخريباً.

– التفاوض أفضل من التخريب.

– بالتأكيد.

– فلماذا لا تريدون التفاوض؟

– على الأقل لم نطرد سفيراً. ولم نعطل عمل اللجان.

– كيف نتعاون على منع التخريب؟

– تنسحبون من الأرض التي تم احتلالها مؤخراً، فهذا يزيل سبب التخريب. وتنسحبون من الجولان فهذا يلبي التزاماً دولياً.

– أليس في أعماقكم نية، أو أُمنية لإفناء إسرائيل؟

– لإنهاء عنصريتها فقط.

– تدركون أن الصحف في إسرائيل عادت تسميكم شلشامة؟

– ليس لي ناخبون في إسرائيل.

– كانت لكم شعبية حقيقية في إسرائيل بعد محاولة الاغتيال السخيفة قبل نحو عشر سنين، ولكنكم لم تحاولوا استغلالها.

– الشعبية في إسرائيل سحابة صيف. أتمنى شعبية كبيرة لحكومة إسرائيلية تبحث عن السلام الحقيقي.

– أتنكرون أن الشعب الإسرائيلي يحس بخوف حقيقي ويوْمي من نواياكم؟

– لا يشعر بهذا الشعور الشعب السويسري المحاط بفرنسا وألمانيا وإيطاليا، لأن دولته نشأت بتطور تاريخي. ودولة إسرائيل نشأت بحسب خطة. فالعقل السياسي الإسرائيلي يخاف من خطة مضادة.

هنا تدخلت الأكاديمية:

– أحببت هذا التحليل. وأشكر لك الابتعاد عن ألفاظ كانت مألوفة في الزمن الماضي عند العرب من قبيل «الاغتصاب» و«العدوان» و«اللصوصية».

– قد يكون المغتصب والمعتدي واللص في مصطلحات القضاء غير صادر عن نية مدبرة.. ليس بسبق إصرار وترصد. وإسرائيل نشأت، وطردت الفلسطينيين من أرضهم بسبق إصرار وترصد.

– إذن فأنت تتبنى تلك المصطلحات؟ فهل أسحب شكري؟

– أوردت تلك المصطلحات في مثال من عالم القضاء.

وعاد الصحفي الأكثر استفزازاً ليحول الموضوع:

– لماذا لا تنتفعون بما عند إسرائيل من خبرات كبيرة؟

– لا ننظر إلى أي دولة على أنها مستودع الخبرات الوحيد.

– الحب أفضل من الحرب؟

وبابتسامة عذبة قال الزعيم:

– فعلاً.

– فلنتفق.. الآن.. لا تخريب ولا احتلال لأرض وتعود العلاقات الدبلوماسية، وننشط التفاوض على الجولان. موافق سيادة الزعيم؟

– أنا أملك بعض التخويل، لا كله. هل تملك تخويلاً مماثلاً؟

– ألا توافق حتى على المبدأ؟

– أنت طرحت اتفاقية كاملة فيها عنصر لا أملك التحكم فيه، ولم تطرح مجرد مبدأ.

– أي عنصر؟

– «التخريب». ليس لي في التخريب يد، وأنا أتوجس أن ينتقل إلى شوارع حلب والموصل وحمص وعمان قريباً، والسبب مغامرات ساسة قلقين في دولة إسرائيل.

وتولى الصحفي المعتدل زمام السؤال، يريد الحصول على معلومة أرّقت الناس بضع سنين:

– استقلت من رئاسة الوزراء في الأردن بشكل مفاجئ قبل اثنتي عشرة سنة، ولم تعلن سبباً، لماذا استقلت؟

– من وزارة الدفاع لا من رئاسة الوزراء. قد سئلت هذا السؤال من قبل في لقاء بالشام، ولم أجب. وليس من حقي إعطاؤك الإجابة قبل إعطائها لإعلامي من بلدي سبقك بالسؤال.

– أحترم ذلك. هل هناك حرب؟

– الحرب يبدأها الحمقى، ويخسرها الجميع.

– ربما تربحون من ورائها توطيد الاتحاد الجديد، حتى لو خسرتموها.

– لا ننوي أن نخسرها إن حدثت. ونحن نوطد الاتحاد برضا أهل الاتحاد به، وبالدستور الذي نحترمه.

– وبالزعامة المركزية التي تمسكون بزمامها بقوة.

– هذا ما لا يوافقك عليه كثيرون يتهمونني بالديموقراطية الزائدة. ليتهم يسمعونك!

– متى تشعر دولة إسرائيل بالأمان العميق؟

– هي في مأمن ولها تحالفات دولية قوية، والمخاوف سطحية. الصقور عندكم لا يبالون بمشاعر الحمائم، ويأتينا الحمائم مطالبين بأن نضمن لهم الأمان.

– نخاف أساساً على الهوية اليهودية لدولة إسرائيل.

– شأنكم.

– ألا ترون لنا مسوغاً في هذا الخوف؟

– لماذا أحلل النفسية الإسرائيلية؟ أنا أنظر في نفسية شعبنا، العربي يحافظ على عروبته في بيته، والسرياني كذلك، وكذا الكردي، والتركماني، والسني، والشيعي، والدرزي، والعلوي، والمسيحي؛ ومثلهم الفلسطيني والأردني، والشامي، والبدوي، والريفي. كل له هوية في بيته. وأمام القانون هم سواء. وتجمعهم ثقافات مشتركة، وتفرقهم ثقافات مختلفة. ولكن اجتماعهم في بلد واحد أفضل للاقتصاد وللتعليم.

– ألا تكاد ترى أي خصوصية للشعب اليهودي الذي انتظر ثلاثة آلاف سنة وهو متمسك بهويته؟

– كخصوصية الشعب الكردي العظيم، والشعب العربي العظيم، والكلداني العظيم. هل سأسرد القائمة مرة أخرى؟ هذه كلها شعوب وجمهرات لها تاريخ عريق ومتمسكة بهويتها.

– وفي إسرائيل الجميع سواسية أمام القانون.

– فاشكروا الله على النعمة.

وغيرت الأكاديمية الموضوع:

– لنكن صريحين، عندنا مشكلة الميزان الديموغرافي المائل. ولهذا قسمنا المناطق على نحو يضمن بقاء نواة يهودية صلبة. فهل لي أن أسأل: كيف ترون السماوة في المنطقة ككل؟

– أولاً النواة الصلبة. ألم تكن الأقلية البيضاء في جنوب إفريقيا نواة صلبة؟

قال الصحفي اليميني بمزيج فخر وخبث:

– لماذا تقيدون الاقتصاد هذا التقييد؟

– هل لي أن أجيب عن سؤال الدكتورة عن وضعنا في المنطقة؟ لسنا في القوة الاقتصادية كإيران، ولا كتركيا. وقد نكون قريباً. ولكننا نعتمد على تركيا مائياً. ولنا فيها أصدقاء كثر، من اللاجئين القدامى الذين انغمسوا في الحياة التركية وتتركوا، ومن المجتمع التركي نفسه، هذا رصيد محبة وقوة ضغط مهمة، والمعاهدات المائية مهمة جداً. والتراضي أسهل مما يتصور المرء.

– هذه نقطة محورية.. ماذا عن الماء في بقعتنا الجدباء. إسرائيل عطشى وهذا سبب مهم لقلقها.

– بل ثمة شره للماء، وهو قديم. ومع الأساليب الحديثة في الزراعة لم يعد مبرراً. استولت إسرائيل على المياه الجوفية للحواضر الفلسطينية بقوة الاحتلال العسكري. وهي سجينة أيديولوجيا مائية عتيقة.

– هل تنوون تحويل مجرى نهر الأردن؟

– فقط بالاتفاقات والمعاهدات التي يمكن عقدها بعد انتهاء التفاوض على الجولان.

– وإذا استمر التفاوض يجر رجليه!

– لنأمل أن يصدق التصريح الإسرائيلي الأخير، قبل طرد سفيرنا، بأن التفاوض سيكون حقيقياً.

– فإن لم يصدق؟

– المتلاعب بالتفاوض يدفع ثمناً في العادة.

– فهل تحولون مجرى نهر الأردن إن سوفت إسرائيل في المفاوضات؟

– يبدو أنك عرفت أن مهندسينا يدرسون الموضوع!

– هذه معلومات عامة الآن.

– ليس ممنوعاً أن ندرس الخيارات.

– لكم حدود مع إيران الآن. هل هي مصدر صداع محتمل؟

– بل مصدر تعاون. وقد بدأت الشاحنات تروح وتجيء بين بلدينا. ومع العراق لنا حدود يتدفق خلالها نشاط تجاري ممتاز. وتعلمين أننا بروح طيبة تراجعنا ثلاثة كيلومترات عن ضواحي بغداد على خط طوله ثلاثون كيلومتراً، مقابل مناطق عند الفلوجة والرمادي، هذا لأن حكومة العراق حريصة على العاصمة بما فيما من تنوع ثري.

– متى تضمون العراق إلى السماوة؟

– ليس هذا وارداً.

– لماذا؟

– لا نسعى لأن نكون قوة كبرى في المنطقة؟

– نعلم أن شاحنات السماوة تذهب إلى السعودية بالخضار ولا تعود فارغة. هل تفتشون الشاحنات العائدة؟

– على الحدود مراقبة وتفتيش.

– السلاح يتدفق على الأردن من السعودية. ويبدو أنكم لا تضبطون هذا التدفق.

– حدودنا مع المملكة الشقيقة ألفا كيلومتر. فإن عرفت صعوبة ضبط الحدود في جنوب لبنان وهي مئة كيلومتر فقد وصلك الجواب.

– أتينا بشوق لسماعك، وبنا رغبة عارمة لمعرفة شيء واحد: متى تنتهي هذه الأزمة؟

– لا تنتهي بطرد السفراء، ولا تنتهي بالتحايل، ولا تنتهي بالاعتقاد الخطأ بأننا مستفيدون من وجود منظمات تؤمن بأنها تناضل دفاعاً عن حق، ثم قد تصوب سلاحها وقنابلها إلى مدننا. ثمة ههنا مصلحة مشتركة. نحن نراها بوضوح، ولم نجد إدراكاً إسرائيلياً لهذا الأمر.

– سيادة الزعيم شكراً..

– لحظة.. لدي سؤال عن مصر.. أما زلتم تؤيدون الاحتلال المصري للسودان؟

– لم يتغير موقفنا من الوجود المصري في السودان منذ سنوات.

– هو احتلال، لماذا تسميه «الوجود»؟

– بعض السودانيين يسمونه احتلالاً، وبعضهم لا يسميه.

18

لم نكن شديدي التحمس للشاحنات التي تعود من السعودية محملة بالسلاح. لكنَّ تحوُّل كثير من السلاح الممول سعودياً في لبنان إلى حرب التخريب داخل المنشآت الإسرائيلية، بدل أن يكون عنصراً في الحرب الأهلية اللبنانية، كان أمراً موافقاً لمصالحنا.

لم يرضَ عن مقابلة الزعيم مع الإسرائيليين حزب الحرب عندنا، ولا الكثير من الضباط. على أنها كونت رأياً عاماً داخل إسرائيل يميل إلى استكشاف سبل الأمان الحقيقي والبعيد المدى.

كان الزعيم في خلواته مع باباتي ومعي يقول إن إسرائيل كاللص الذي يظل خائفاً حتى لو أعلنت المحكمة براءته. لكن الزعيم يتحفظ في العلن، ويستطيع ما لا يستطيعه كثيرون من الرؤساء والزعماء والمسؤولين: يستطيع أن يمنع نفسه من الكذب.

كان باقعة في اللغات، وهذا ليس شيئاً جديداً. وفي العبرية كان يتحدث مع مساعدين له يهوديين إسرائيليين: رجل من عمر باباتي، وامرأة في نحو الخمسين. كانا معه في الأردن سنوات، وفي حرب السمطة بالعقبة طلب إليهما أن يعودا إلى إسرائيل، وفور انتهاء العمليات الحربية عادا إلى الأردن.. إلى بيتيهما وأصدقائهما. كان العجوز عشّاقاً مثل باباتي، وكان للسيدة زوج أردني، ومع ذلك طلب إليهما الزعيم المغادرة حفاظاً على أمنهما. وعندما تعرض الزعيم لمحاولة الاغتيال رفض أن يسألهما أي سؤال عمن سرب المعلومات إلى إسرائيل بشأن رحلته تلك إلى الغور، ورفض أن يتعرض أحد لهما بأي سؤال. وبقيت الثقة العمياء قائمة. القوي يعرف كيف يثق، والذكي يعرف بمن يثق. وفي الأزمة الحالية كان المساعدان يلازمان الزعيم في دمشق. على أنه كان يعرف إسرائيل والعبرية بشكل أساسي من الراديو.

كان الزعيم دوماً يرى أن إسرائيل ستبقى من همومنا. وبقيت.

بقي جيشنا مرابطاً. ووصل التخريب حداً جعل المجتمع اليهودي في إسرائيل ينتفض. فأما الفلسطينيون داخل إسرائيل فكانت ذاكرتهم التاريخية قوية.. لم ينسوا أن إسرائيل قامت على شقاء آبائهم وأجدادهم وآباء أجدادهم، ولم يغفلوا عن الامتيازات التي يحلي اليهود أنفسهم بها. ولم يكن فلسطينيو الحواضر راضين بالطبع، فهم تحت احتلال أصبح أمراً واقعاً، لا يسمح لهم بالجنسية الإسرائيلية الرسمية ولا يمكنهم من إقامة دولة في ظل التشرذم. يعملون في إسرائيل في البناء والأعمال اليدوية غالباً، لكن فيهم الطبيب والمهندس والتاجر الذي يعمل في إسرائيل أو يستفيد من علاقاته التجارية بها.

تحت وطأة «حرب التخريب» انسحبت إسرائيل من قطعة الأرض المجاورة لمزارع شبعا بجنوب لبنان، وحاولت حكومتها إقناع يهودها بأنها لقنتنا درساً، وبأن في بوسعها تكرار احتلال الأرض إن دعت الضرورة، وأنها ستضرب بيد من حديد ليس فقط على المخربين بل على الجهات التي يأتون منها.

عاد السفيران إلى دمشق وإلى القدس. وبدأ التفاوض على الجولان جدياً وقاسياً، ودار حول الأمن ونزع السلاح والمياه، والمستوطنات اليهودية، وهل سنكون على شاطئ طبرية أم لن نكون، ودار حول أنظمة الصواريخ وانتشارها، وحول لبنان، ومقدار تدخلنا فيه. لم يترك الإسرائيليون ورقة إلا استعملوها، وفتحنا موضوع حق العودة للفلسطينيين، والتعويضات، وفلسطينيي الحواضر. وفتحنا موضوع فلسطينيي الأردن وسوريا الذين يرغبون في التخلي عن جنسية السماوة والعيش في الحواضر أو في إسرائيل نفسها. واستعنا بملفات وكالة الغوث الدولية.

وبالطبع سيتنازل كل طرف في النهاية عن بعض المطالب، وسيتركز الكلام على الجولان. لكن العملية طويلة.

كان علينا أن نضبط المنظمات التي نشأت. ولئن كانت مخابراتنا على علم بكثير من تحركاتها، فإن هذه المنظمات اكتسبت لنفسها وجوداً وذاقت طعم السلاح. وكي لا نكشف حقيقة أننا عالمون بالكثير عن هذه المنظمات عرضنا التعاون مع إسرائيل في منع الاختراق الحدودي.

ورحبت إسرائيل طبعاً. وبدأنا نسجن الناس ونخرجهم في سياسة باب دوار. وعاند كثيرون، وأغلقنا بعض الأنفاق التي نعرف أماكن أفواهها، وحفرت أنفاق أخرى. ولكن التخريب انخفض بشكل كبير.

بدأت نذر استعمال السلاح في شوارع مدن السماوة. وانفجرت القنابل في عمان ودمشق وإربد. انتهى التخريب في إسرائيل وبدأ عندنا.

كان هناك تخريب للنفوس التي آمنت بالتكافل. اهتزت صورة التكافل في قلوب الجماهير التي سارت وراء الزعيم في هذه الأزمة تمني نفسها بحرب جميلة. الشعب لا يفكر بعقله مثلما يفكر الساسة، وهنا قوته وهنا ضعفه. فإذا كان السياسي غوغائياً يسوقه الشعب ولا يقود الشعب غزا روسيا كي يهزمه الجليد وطموحه. ذاك نابليون وهتلر. وإذا كان الزعيم يملك بجانب الكريزما عقلاً صافياً فهو يدفع من شعبيته كي يحافظ على بلده، وهكذا كان الزعيم.

***

بينما كانت المفاوضات على الجولان تدخل مرحلة التلكؤ مرة أخرى، قدم المناضلون عريضة. بعضهم ممن قاد منظمات التخريب في حرب التخريب، وبعضهم من جماعة الحق وبعضهم من الفلسطينيين الذين أنعشت حرب التخريب في نفوسهم آمالاً بحلم قديم كانت تسميه المنظمات الفلسطينية القديمة «تحرير فلسطين». وطالبت العريضة الحكومة وحزب التكافل بالكف عن التحايل والدبلوماسية وبأن يسعيا جدياً إلى تحرير فلسطين. وتصدى لهم باباتي بوصفه الرأس الحزبي الكبير في التكافل.

دعا الموقعون على العريضة قيادة الحزب إلى محاججة. فالتقيت بهم مع باباتي في عمان، في «منتدى القدس». جلسنا إلى المنصة وغصت القاعة بنحو مئة شخص بين جلوس ووقوف. وقام رجل خمسيني يرتدي قميصاً مقلماً ويرد شعره الأحمر إلى الخلف في تمشيطة مميزة، فقرأ نص العريضة، وكان يقف بين الفقرة والفقرة فيلقي تعليقاً يسخر فيه من الحكومة ومن الجيش ومن الحزب. كان من بقايا حزب اليسار البائد. وإلى يمين القاعة كان يجلس مطلوب جوهر زعيم اليسار السابق وقد اقترب من الثمانين، وكان يقهقه لكل عبارة قهقهة عالية.

أجلسونا أنا وباباتي وحدنا على المنصة كي تكون محاكمة في ثوب محاججة. وانتظر القوم بعد قراءتهم العريضة خطاباً في الرد. فلم نرد. قال باباتي: تفضلوا بالأسئلة.

– هل باع حزبكم فلسطين إلى الأبد؟

– ما معنى باع؟

– باع معناها باع.

وضحك الحاضرون للرجل ذي الشعر الأحمر. وجلس يريد أن يسمع جواباً طويلاً.

– هل كنا نملكها حتى نبيعها؟ هل كان جيشنا يرابط في ربوع فلسطين وفي شوارع مدنها وقراها، ثم تخلى عنها؟ هل كنت أنت قد حررت فلسطين ثم جئنا نحن وبعناها؟

وعلت قهقهة من أجمل ما سمعت من فم مطلوب كانت الها ها ها تخرج كالقذائف من بين شفتيه ومن بين أسنانه التي ظلت مفروقة. وضحك الجمهور لضحكه. وتصدى آخر للسؤال، وقف وسط القاعة ببذلته الأنيقة:

– كانت فلسطين على مرمى حجر. وناضلنا، ودخل الشباب لكي يلقنوا العنصريين درساً ولكي يفجروا رتابة حياتهم التي ظنوها آمنة وادعة، وقررتم أن تفاوضوهم. وعلى ماذا؟ على قطعة أرض صغيرة. ونسيتم فلسطين.

– هل فعلاً كانت فلسطين على مرمى حجر؟

– كل الناس آمنوا بذلك، إلا حكومتكم.

وضحك الحاضرون. وكان باباتي يتصدى باستمرار:

– عندما تقول كل الناس، فهذا بحاجة إلى عملية إحصاء. ولكنني سأصارحك بأن كثيرين فعلاً آمنوا بأننا على وشك خوض حرب تحرير. كانت العواطف متهيجة، والآمال عريضة. بالضبط كما كانت الآمال عريضة قبل نكسة سبعة وستين، وقبل حرب تشرين. لكن حماسة الشعب لا يجوز أن تملي على المستوى السياسي قراره.

– شكراً للصراحة، وسؤالي الآن في عمق التفكير السياسي لحزبكم. هل تؤمنون بتحرير فلسطين؟

– لنؤمن الآن أنا وأنت، ولنفكر في الأمر. عندما نحررها سيكون للفلسطينيين ولليهود حقوق متساوية. أنت طبعاً تعرف أن كل يهود إسرائيل مولودون على أرضها. ولا سبيل إلى الفكرة القديمة بوجوب طردهم.

– يجب أن يدفعوا الثمن.

– كم؟

– ..

– حزبنا يريد تحرير إسرائيل من العنصرية، ويريدها دولة مسالمة، ويريد..

– وماذا عن ملايين اللاجئين الفلسطينيين في الأردن وفي الشام والأنبار وفي كل الدنيا؟

– في الواقع ليس عندي جواب.

والتفت باباتي إلي، فقلت:

– قال محمود درويش: نحن لا نريد أن نعود إلى فلسطين بل نريد أن نذهب.

– وهل هذا جواب مقنع؟ بقي أن نسمع قصيدة!

وضحك الحاضرون علينا ملء أشداقهم. فقال باباتي:

– بما أنه ليس عندنا سوى القصائد، فلنسمع منك جواباً. قل لنا: ماذا عن ملايين الفلسطينيين في الشتات؟

– يعودون جميعاً إلى فلسطين، إلى وطنهم. ألستم تؤمنون بحق العودة؟

– هذا ليس مما وضعناه في أدبيات حزبنا. وأزعم لك أن أدبيات حزبنا لا تحتوي كل شيء.

– فهمت فهمت.. تحتوي الأشياء المهمة التي ليس من ضمنها فلسطين، ولا تحرير فلسطين.. وصلت الفكرة.

وصفق الحاضرون. واكفهر الجو علينا. مواجهة الغوغاء صعبة. وأسارع إلى القول: هؤلاء ليسوا غوغاء. هؤلاء أصعب. هؤلاء قوم مستريحون يريدون من غيرهم أن يحقق مطالب تاريخية كانت ثوابت في الماضي، ومرت عليها الأجيال. وحاولتُ أن أضع الأمور في نصابها:

– هناك من نادى بتحرير الأندلس. نعم، في عصرنا. وهناك من نادى بتحرير روما من الإيطاليين. وهناك من يطالب بتحرير بلاد الشام كلها من أيدي المسلمين لأنها بلاد كانت تتكلم اللغة الآرامية. عندما يدوس التاريخ علينا بقدمين غليظتين نواجهه بما يسميه المحللون البراغماتية. نحن حزب التعايش. هل ندعم مطالب بعض الأقباط بتحرير مصر من المسلمين؟ التحرير مفهوم يختلط فيه التاريخ بالواقع..

قاطعتني وقفة عصام. وقف وكفاه تهبطان وتصعدان كمن يشير إلى جمهور أن يهدأ. كأنه يقول لي: على رسلك يا فتى. وانطلق بصوت جهوري تعود أن يلعلع في المهرجانات:

– لا.. لا. التكافل لا يرضى أن يستعمل التاريخ لكنس الحقوق الثابتة تحت السجادة.

مرحى! ها هو التكافلي الذي خرج ثم عاد ثم اعتذر يضيف إلى أدبياتنا شيئاً مهماً. وما كان لي سوى أن احتفظ برباطة جأشي وأنا في قفص الاتهام. وتابع عصام:

– أقباط وأندلس.. ما هذا؟ نحن نتحدث عن فلسطين، وعن حقوق شعب فلسطين.

كان عصام يضم أصابع كفه مخرجاً السبابة ومشيراً بها بقوة إلى أسفل مع كل دفقة كلام كمن يريد أن يطعن حجة خصمه بسبابته. ثم أخذ يشرح القضية الفلسطينية في تجلياتها المختلفة، ويضع للتكافل صيغة تخلط بين العلاقات مع إسرائيل وبين استمرار الضغط عليها. وراحت كفاه ترسمان في الهواء المحيط به أشكالاً هندسية. رحم الله سحبان وائل، فقد كان هذا الخطيب الأموي يشترط على الخطيب ألا يحرك ساكناً سوى لسانه وإلا فليس بخطيب. ولم ير عصام بأساً ببعض المداهنة للمناضلين، فمجد العمليات النضالية التخريبية، وأدان بالطبع ما نشأ بعدها من تخريب في مدننا. وقعد وسط التصفيق.

قال باباتي:

– هذا مفيد جداً. أوافق عصام على أن العمليات التخريبية كانت ذات أثر في خضم الأزمة الأخيرة، وجرَّت نتائج أخرى فيما بعد انتهاء الأزمة.

كان باباتي يريد امتصاص الشحنة من النفوس. ولكنني أنا لم أرد أن ينتهي الأمر دون توضيح سياستنا:

– مرة أخرى أقول الذهاب إلى فلسطين، وأعني بذلك السعي لتحقيق مصالح الفلسطينيين في داخل إسرائيل وفي الحواضر. نضغط ويضغط معنا كثيرون في العالم لتحقيق ذلك. فإن كان مصطلح تحرير فلسطين يعني شن حرب فهذا خيال سقيم.

وقام ذو الشعر الأحمر الذي رآنا فوتنا فرصة شن حرب واعترض، ولكنني أكملت كلامي بغير انقطاع..

– ذكر بعض الحاضرين أن فلسطين كانت على مرمى حجر.. وأقول في الرد: مثل هذه العنتريات تنتمي إلى عصر المهزومين. والتكافل حقق انتصارات كبيرة وإنجازات عظيمة، وهو ماض لتحقيق المزيد.. بعيداً عن العنتريات.

وتعالت بعض الأصوات المؤيدة، وساد هرج ومرج ممن لسعتهم كلمة العنتريات. كانت اللحظة مناسبة لإنهاء المحاكمة. قام باباتي وقمت. وصافحنا الناس، وسألنا بعضهم عن أحوالهم. وتألفنا القلوب. وفعل عصام فعلنا.. منفرداً عنا.

الزعيم الحق لا يستعين بأطرافه كثيراً.. ولا حتى مختار القرية ذو السلطة الحقيقية يفعل ذلك. إنما يفعله النشطاء في مهرجاناتهم الخطابية، وصغار الحزب الذين يسددون أنظارهم إلى طريق الصعود، والمرشحون للرئاسة الأمريكية. وليضع عصام نفسه في الخانة المناسبة.

***

التقينا بعد ندوة عمان بالزعيم في دمشق، وكان قد شاهد الندوة على موقع من المواقع. التقينا مساء في بيته المشرق في حرستا لقاء زيارة لا لقاء اجتماع. وتحسبت من طبق الفول المحتمل لأن معدتي لم تكن في أحسن أحوالها، ففي عمان كنا قد دعينا في مساء الندوة إلى بيت قيادي تكافلي من أصل غزي، وأسرفتُ في «السماقيَّة» الدسمة ليلتئذ. غاب الزعيم في المطبخ بعض الوقت وجلست

أتأمل باباتي وابنته يتمازحان، أرى بياض عينيها الساحرتين وهي تضاحك أباها، ثم لا تخليني من نظرة فيشع من عينيها بريق الود، ويصفِر صوتها صفرة جميلة في آخر كلمتين من كل عبارة:

– أكلوكما أكلاً في الندوة بعمان!

– أكلونا والله. ولكن أحمد ختمها ختاماً قوياً.

وجاء طبق الفول. وائتدمتُ بالزيت، وبقليل من الجبن. ثم شربنا الشاي. قال الزعيم:

– ندوة ممتازة. التعليقات عليها كانت مختلطة، ولكن من الخير أن يقول الناس ما يفكرون به. وعند الانتخابات ينتخبون بجيوبهم.

لم يعد حزبنا يكتب الكراريس، كان يتيح لكل الناس أن يتكلموا. وكان يضم، في أعضائه، خليطاً من الآراء. ولكن ندوة عمان أنذرت بانشقاق قريب. وسيكون مزعجاً لنا نشوء حزب فلسطيني يضم – هذه المرة – فلسطينيي الشام والأردن وربما لبنان. لكن الأكراد ليسوا أحسن من الفلسطينيين، وبين الشعبين بعض تشابه في الحلم وفي القضية. كان الفلسطينيون يرون أن الغرض الوحيد من توحد الدول المجاورة هو تحرير فلسطين، فكأن أهالي هذه الدول مجرد أدوات لتحقيق ذلك الهدف. كثيراً ما رددوا ببراءة أن قضية فلسطين هي قضية العرب الأولى، وكثيراً ما ردد الآخرون (بغير براءة) المقولة نفسها، يريدون من ترديدها أن يبرروا لأنفسهم العجز عن القيام بأي مشروع نهضوي. وجاء التكافل بمشروع نهضوي.. وبنهضة.

مرة ثانية انشق عصام بمجموعة برلمانية تعد على أصابع اليد الواحدة، وظل التكافليون الفلسطينيون في المعظم مع التكافل. وكان في انشقاقه بعض الخير. فقد تقارب الجمهور اليهودي في إسرائيل مع التكافل. وفي هذا ما يسهل علينا التفاوض، وما يقرب الجولان منا.

ناقشت باباتي مرة في مدى اقترابنا من تحقيق إعادة الجولان. وبعد استعراض المعطيات، والتفكير في الحسابات داخل إسرائيل وعندنا، انطلق باباتي في فورة حماسة:

– وما الجولان بالقياس إلى آلاف طلبة الهندسة من فتية وفتيات يجلسون الآن يرسمون في حجراتهم ويعملون بجد على مشاريع تخرجهم؟ ما الجولان بالقياس إلى ما نراه من نهضة في التصنيع في الأنبار. كنا نحمل هم البنية العشائرية في الأنبار، فإذا الشعب يقوم قومة رائعة؟

كان يتحدث بهدوئه المعتاد، لكن بحماسة:

– ما الجولان بالقياس إلى ما عندنا من تقنيات ابتدعناها نحن في الزراعة بمياه قليلة، وما أصبح لدينا من تفوق في كل المنطقة العربية في توليد الكهرباء من الشمس، وفي صناعاتنا الكيميائية، وفي التعليم؟ هذا عاد علينا بمليارات وضعناها في الطرق السريعة والسكك، وستعود على الصناعة والزراعة بمليارات أكثر. ما الجولان بالقياس إلى الإنسان الذي تحرر من داخله وأخذ يفكر؟

وفكرت، وباباتي يلقي موعظته، في أحدث شحنة سيراميك، فقد وصلنا إلى أستراليا أخيراً ولم تبقَ قارة في العالم بعيدة عن جرزال. صحيح أنني تجمدت صناعياً، أو بالأحرى عرفت حدودي، ولكنني كنت أرى بسعادة كبيرة الشركات تنمو بسرعة فائقة، منسوجات الشام تملأ متاجر أوروبا وأمريكا، وسياراتنا المتوسطة التعقيد والرخيصة الثمن توفر بعض ما كنا ننفقه على شراء السيارات، وكان يستنزف العملة الصعبة. والشوارع والسكك والمطارات.. كل هذا كان يقوم وحده. كان علينا فقط أن نحافظ على الفساد في مستوى منخفض، وأن نحفظ على القضاء استقلاله، وأن نحكم البلد ببرلمان. لم نعد نفكر كثيراً في الصناعة والزراعة والإنشاءات. هذا شغل الوزارات واللجان والبلديات. المستوى السياسي له دماغ مختلف. ولا أدري إن كنت سعيداً بالانتماء – بشكل تام الآن – إلى المستوى السياسي المحض، فقد طالما كنت أحب أن أغمس أصابعي في التفاصيل، وأعد نفسي مخلوقاً عملياً يكره المجردات ويحب المحسوسات. غير أنني كنائب لرئيس الوزراء وضعت نفسي في خانة الرجل الثاني، الخانة التي كثيراً ما كرهتها في الأردن، ولكن.. أن تكون الثاني بعد الزعيم في السماوة كلها ليس بالأمر الرديء.

لم يحب الإسرائيليون التكافل كل الحب. في الواقع كانت مراكز العصف الذهني عندهم ترانا الخصم والبديل لهم، ترانا النفي لوجودهم. لقد حل اليهود في إسرائيل معضلتهم الديموغرافية بفكرة النواة الصلبة، وأنشأوا نظاماً عنصرياً ملطفاً. لا، لم يكن كجنوب إفريقيا. لم يستطع أن يكون.

بعض يهود إسرائيل رأوا أن الصديق العاقل القوي خير من العدو الأحمق الضعيف. لكن مراكز العصف الذهني كانت غالباً ترى غير ذلك. كان علينا أن نتعايش مع نظام نصف عنصري في إسرائيل.

بعد انتهاء حرب التخريب كفت إسرائيل شرها عن لبنان. غير أن اللبنانيين لم يكفوا شرهم عن أنفسهم. تجاوز عدد القتلى العشرة آلاف، وأخذنا نسأل أنفسنا إن كنا سنبدأ العد بعشرات الآلاف بدل العد ألفاً بعد ألف. لكن مجزرة كبيرة في قرية جعلت العالم يصوب أنظاره. وجعلت فرنسا تهم بالتحرك. وعادت إلى الذاكرة مذابح لبنان القديمة.

احتشد جيشنا على الحدود مع لبنان. وحشدت إسرائيل، واجتمع مجلس الأمن. وكان يمكن لهذه المجزرة أن تمر كما مر غيرها في الحرب الأهلية اللبنانية في آخر القرن الماضي. لكن، وقعت مجزرة الرد. ومجزرة ثالثة ورابعة. وبدأ يتحكم في لبنان قبضايات الصف الثاني. لئن كان أمراء الحرب متوحشين فهم يقومون بحسابات سياسية تردعهم بعض الردع، فأما القبضايات فلا يحسبون حساباً إلا ليومهم، فهم أشد بطشاً.

ألقت «سفينة القتلة الأثرياء» مرساتها في ميناء مرسيليا تنتظر إذناً بنزول ركابها. وخرج الفرنسيون في باريس في مظاهرات. فكيف تستقبل فرنسا هؤلاء المجرمين! كان فيهم رجال ونساء وأطفال من كل الطوائف، لكن المصلحة جمعتهم.. يريدون أن يبارحوا السفينة الغارقة التي هي لبنان بعد أن أرسلوا أموالهم قدامهم إلى بنوك فرنسا وسويسرا، فركبوا السفينة التي رجوا أن تكون قارب النجاة. ومنعت السلطات ركاب السفينة، التي سمتها الصحف الفرنسية «سفينة القتلة الأثرياء»، من النزول، فلبثت في الميناء، وصنعت أزمة صغيرة. وامتنعت فرنسا عن استقبال كل اللبنانيين بقرار حكومي. ورأى المسيحيون خاصة في هذا خذلاناً.

تزودت السفينة وعادت إلى مصر. ومع أن التكافل أخذ يحكم مصر منذ أشهر بعد أن كان غير اسمه قبل زمن، فقد سمح للسفينة بالرسو، ومنح الركاب وعائلاتهم اللجوء السياسي، وانتهت الأزمة. ولم يكن لزيارة الزعيم إلى القاهرة علاقة بقضية السفينة، لكنه استغل مشكلة السفينة ليستر غرض الزيارة الحقيقي. ولم أرافقه، بل مكثت في الشام أتابع الأمور.

كانت خلاصة مباحثات الزعيم في القاهرة: لكم دينكم ولي دين. لا علاقة حزبية بين تكافل السماوة و«تضامن» مصر. سندعم استقرار الحكم في مصر والسودان كما ظللنا ندعمه، وما نطلبه بشدة هو التعاون الاقتصادي المتكافئ، وضمان استثماراتنا في مصر وفي السودان. ولمصر أن تستثمر عندنا ولها الامتيازات عينها التي نتمتع بها في مصر والسودان. وكان البيان الرسمي موحياً بعدم وجود رابطة سياسية الأمر الذي لقي ارتياحاً عند تضامنيي مصر.

كانت شاحناتنا المحملة بالأغذية للاجئين داخل لبنان هي المركبات الوحيدة التي تعبر الحدود. لم يكن فيها منشورات ولا أسلحة. كانت معونات لوجه الله. وكل ما نريده للبنان أن يتمكن من حل مشكلاته وحده. وبالطبع وضعنا شتى السيناريوهات: ماذا لو انضم لبنان إلى السماوة، وماذا لو نجحنا في إقامة نظام محاصصة جديد، وماذا لو جندنا من اللبنانيين اللاجئين عندنا، واللبنانيين اللاجئين المنقطعين على الحدود جيشاً وجعلناه ينشئ نظاماً شبه عسكري، وماذا لو خضنا حرب اغتيالات على القبضايات.

لكن كل هذه الخيارات تحمل معها مخاطر علينا، فأما على لبنان فكل وضع جديد، كائناً ما كان، هو أفضل مما يعيشه اليوم.

حضرنا مؤتمر أصدقاء لبنان في القاهرة، ومصر قد رفعت يدها منذ مدة عن لبنان ولم تعد تناصر فريقاً فيه على فريق. وحضرت فرنسا، وأمريكا، وإسرائيل، وتركيا، وإيران. وفي المؤتمر الذي مثلتُ فيه السماوة قدمت كشفاً بالمعونات التي نقدمها، وفتحت باب التعهدات بالمعونة. وسجلت كل دولة مقابل اسمها رقماً مخزياً. وفهمت أن فرنسا تريدنا أن نتدخل لحل الأزمة اللبنانية حتى لو اقتضى ذلك ضم لبنان إلى السماوة، ففرنسا تلاقي إحراجاً داخلياً، حيث يضغط اللوبي المسيحي اللبناني في باريس على الحكومة، ويضغط بالمقابل الشعب الفرنسي الذي يطالب بنفض اليد من لبنان. وإسرائيل متخوفة من اضطراب الوضع اللبناني، وإيران لا تريد أن ترمي أموالها في بالوعة. وأمريكا غير مهتمة لا بالمساعدة ولا بحل الأزمة أصلاً. واستعرضت مع وزير الخارجية الأمريكي السيناريوهات، وبعد حين جاء الرد من واشنطن بأن ضم لبنان للسماوة هو الأمر الطبيعي، ولكن واشنطن لن تتدخل إذا سبب لنا هذا الضم مشكلة.

تريث الزعيم. فمثل هذه الأزمة معقدة في جذورها، لا في غصونها. وهو يعرف لبنان أكثر من أي إنسان، وله علاقات قديمة بالعقلاء من أقطاب الطوائف اللبنانية جميعاً.

في غمرة الفوضى اللبنانية قامت ميليشيا لبنانية بعملية مسلحة داخل إسرائيل، شبيهة بعمليات حرب التخريب. ورأت إسرائيل في العملية فرصة لتعطيل محادثات استعادة الجولان. فشنت غارات قتلت فيها مئتي إنسان، معظمهم من المدنيين. كأنما استنامت إلى فكرة أن الغارة لن تلقى اهتماماً كبيراً لأن الحرب الأهلية اللبنانية أغرقت نشرات الأخبار بالفظائع، فلا بأس بفظيعة

جديدة تصيد فيها إسرائيل عصفورين بحجر: تعطل المفاوضات، وتستعيد بعض هيبتها بعدما أنهكتها حرب التخريب. وفي الوقت نفسه شددت إسرائيل قبضتها العنصرية، فمواقع اليمين والوسط هللت للرد. وأصبح عنوان الخبر في أحد المواقع شعاراً للتوجه العنصري المكشوف: «هكذا.. هكذا!». وكانت لكثيرين من يهود «النواة الصلبة» مسيرات حملوا فيها هذا الشعار عينه تأييداً للنهج المتشدد. وبدأت سياسة الفصل العنصري داخل إسرائيل تتعمق، وراجع فلسطينيو الداخل الإسرائيلي أنفسهم، فهم ينالون الفتات اقتصادياً، لكنهم يظلون في نظر الدولة مواطنين من درجة دنيا، وقيدت حركة فلسطينيي الحواضر. واستمرأت النواة الصلبة في إسرائيل الوضع الجديد.

كان الرخاء المتزايد في السماوة عنصراً في تحول مشاعر الفلسطينيين داخل إسرائيل وفي الحواضر، فلم يعودوا يرون في العيش ضمن الدولة الإسرائيلية الغنية، أو تحت سطوتها، ميزة كبيرة.. فالسماوة أيضاً غنية، وهي تزداد غنى وثراء وتزداد فيها الفرص.

فهل نحصل على الجولان مقابل السكوت على عنصرية إسرائيل المتزايدة؟ وهل نسكت أصلاً؟

لم يفلح التكافل الفلسطيني في إسرائيل وفي الحواضر، في تقديم مشروع سوى الحوار، والهجوم إعلامياً على العنصرية. والتحرك السلمي ظل دائماً مصدر قوةٍ وضعف للفكر التكافلي.

اشتعلت جبهة لبنان ضد إسرائيل بعد الغارة، وظلت الردود الإسرائيلية تتوالى، وبدأ الرحيل الكبير من الجنوب. ومحط الرحال؟ هو المكان الذي فيه خيام وأكياس طحين، هو الحدود مع السماوة. وأصبنا سياسياً بالشلل. نريد الجولان ولا نحصل عليها، ونريد الأمان لناس يروننا أهلهم، لكنهم مجانين، يقتلون بعضهم بعضاً، وتقتلهم إسرائيل، فإذا أرادت ميليشيا من ميليشياتهم تبييض صفحتها وطنياً شنت هجوماً على إسرائيل، وليتحمل المدنيون العواقب.

***

استقالت ابتسام من وزارة التعليم فجأة. جلست إليها أراجعها في الأمر. فصارحتني بعد طول مماطلة:

– لا أستطيع أن أهضم موقف السماوة. لا لبنانياً ولا فلسطينياً.

– الدولة الكبيرة كالشاحنة الكبيرة.. بطيئة الحركة.

– وهي بحاجة إلى أن يُفتح لها الطريق.

– نحن مكبلون حالياً بالجولان..

– هل نصدق أن إسرائيل يمكن أن تتخلى عن الجولان.

– يمكن، مع النفس الطويل.

– إسرائيل تريك وجهاً متحضراً تخدع به العالم، وتنتهج فكراً انتقامياً، وتتجه نحو الفصل العنصري الكامل. برلمانها صار الآن مفضوحاً مع خروج الفلسطينيين منه. فحتى القناع المتحضر قد انحسر. وانظر إلى غارتها الأخيرة على لبنان! إسرائيل اليوم هي إسرائيل قبل سبعين سنة.

مشكلة الأردنيين أنهم يصبحون فلسطينيين عندما تكشر إسرائيل عن أنيابها. فماذا تريد ابتسام؟

– استقالة فقط.

وذهبت ابتسام إلى عمان.

وتم تعيين أول وزير لبناني في حكومة السماوة.. أحد قدامى التكافليين ممن هاجروا في وقت باكر. عين وزيراً للاقتصاد وانتقلت عفاف إلى التعليم. وانتبهت وزارات الخارجية في الغرب إلى هذا التعيين. ولكنه لم يعطل دعوة الزعيم لإلقاء كلمة في الكونغرس الأمريكي، ودعوة أخرى للتحدث إلى اللوبي اليهودي في واشنطن.

تحدث الزعيم للكونغرس عن الاقتصاد، وعن التعاون السياسي والاقتصادي بين السماوة والولايات المتحدة، وعن وجوب تخلي إسرائيل عن السياسات التفريقية. وشرح طبيعة التوجه الانتقامي الذي تنتهجه أي دولة، وكيف أنه لا يليق بدولة متحضرة، وشدد على المطالبة بالجولان.

وكرر حديثه في المنتدى اليهودي. وعندما سُئل عن ضمان وجود دولة إسرائيل وأمانها قال إن السماوة ليس لها مطامع في إسرائيل، وطالب يهود أمريكا بحماية يهود إسرائيل من العنصرية.

وسئل عن الوزير اللبناني في حكومة السماوة، فقال إن اقتصاد لبنان قدم للمنطقة دروساً ثمينة في الاقتصاد الحر والتجارة النشطة، وإن لبنان سيعلمنا الكثير في المستقبل أيضاً.

كانت هذه إشارة مهمة. ورجع الزعيم إلى دمشق ليجد في انتظاره كبار ضباط الجيش اللبناني المطهر. فقد أتم الجيش اللبناني تطهير صفوفه ممن على أيديهم دماء طائفية، وغدا ينتظر إشارة من الزعيم.

تولى الجيش اللبناني الحكم، ودخل جيش السماوة بقوات كثيفة، وبدأت حملة تطهير البلاد من الميليشيات. سقط قتلى كثيرون، وبدأ يسود الأمن بتدرج سريع. ولم يسمح لنا اللبنانيون بإجراء استفتاء أو انتخابات، كانوا بحاجة إلى من يحكمهم. ولولا أن الأمور تطورت في العراق على نحو مفاجئ لما سمحنا لهم بأن يتجنبوا الانتخابات والتعديلات الدستورية المطلوبة لسنة كاملة.

في هذه السنة كان العراق يدخل تحت العباءة دون تردد. لم يبرح باباتي عمان. ولم يذهب إلى النجف ولا أكل المدگوگة منذ سنتين. كان يقود الحزب من عمان غالباً، ومن دمشق حيناً. يقول لي إنه كلما أخذ أهبته للقدوم إلى دمشق يبدأ بالبحث عن جواز سفره، غير مستوعب كل الاستيعاب أنهما مدينتان في دولة واحدة حتى بعد مضي كل هذا الوقت.

دخل العراق دولة السماوة كالسائر في نومه. وكالسائرين في نومنا أصبحنا من حيث السكان والقدرة الاقتصادية القطب الثالث في غرب آسيا مع إيران وتركيا.

زرت باباتي في عمان للتحضير لمؤتمر التكافل المقبل في بغداد. كان شبح السبعين قد ظهر على وجهه دون أن يذهب ببريق عينيه. نزل جلد حاجبيه على عينيه، وبدت السنون على رقبته ويديه. ولكن ابتسامته البريئة كانت تطرد من وجهه ثلاثين سنة فأراه مثلما رأيته أول مرة قبل نحو ثلاثين سنة. قال يرد على مخاوفي بشأن التسارع المقلق للأحداث:

– توحدت ألمانيا على قفا حرب مع فرنسا، وتوحدت إيطاليا في عملية لملمة سريعة، قامت بها دويلة فقيرة في الشمال اسمها بيدمونت. أتدري!

قال «أتدري» وأخذ باباتي يبوح:

– كلما كنت أقرأ تاريخ الوحدة الألمانية والإيطالية في زمن الفتوة، وأنا أدرس في النجف، ثم في إيران، كانت تنتابني رعدة، ويخفق قلبي. وعندما التقيت بالزعيم خفق قلبي خفقة تشبه تلك الخفقات. في العراق كنا نشعر أننا عرب ولكن، مضطرون إلى تغليب الهوية الشيعية على العروبية في خضم الوحل الطائفي. ومع تعاظم النفوذ الإيراني كان الشعور بالعروبة يطغى.

– ألست متخوفاً على هذه المساحة التي فرشنا أنفسنا عليها؟

– من جهة لا: خذ إيران، فهي متماسكة رغم أن الفرس فيها لا يزيدون عن الستين بالمئة، وتركيا متماسكة وليست صافية، لا في القومية ولا في المذاهب. وكلتا الدولتين تزاوج بين الانتماء العرقي والمذهبي. ونحن فقط من يملك اللغة العربية العظيمة.

كنا نحن، آباء الحزب، نبذل جهداً في البحث عمن يرثنا. وكنا نفكر طويلاً في الحزب الذي يجب أن يرثنا. لكنه كان واضحاً أننا سنحكم طويلاً.

لم يغب عن بال المخططين الاستراتيجيين، عندنا وعند غيرنا، أننا أصبحنا نطل على ثلاثة بحار: المتوسط والخليج والبحر الأحمر. ولم يغب عن بال دول الخليج أننا أصبحنا قوة تهدد كياناتها. لكننا انتهجنا مع تكافليي دول الخليج ما انتهجناه مع تكافليي مصر. ورسمنا خطاً سميكاً بيننا وبينهم، ورجونا تكافليي الخليج على اختلاف دولهم أن يغيروا الاسم أسوة بتكافليي مصر.

صحيح أننا لم نقارب في المساحة إيران ولا تركيا، ولا السعودية ولا مصر. لكننا أصبحنا القطب الصاعد. وزاد مستوى الدخل الفردي عندنا عنه في أي من دول الجوار عدا تركيا.

في هذه الرحلة البغدادية مع باباتي رتبنا مع التكافل العراقي مشاركته في المؤتمر المقبل للحزب. دخلت العراق السماوة، ولم يبق إلا التفاصيل والمؤتمرات، وتأُلُّف القلوب، وتلبية مصالح بعض الفئات.

اصفر ورق الشجر في خريف عام 2082، لكن نخيل العراق أخذ يتمايل بفرح وينشر سعفه كي يحرك الريح لتأتية بالمطر والخير ووعد بالكثير.

19

كان واضحاً رغم الصورة المهتزة – التي التقطها شخص من وراء زجاج سيارته – أن الجنود أطلقوا النار على رجال عشرة وجوههم إلى الحائط. أصغرهم في الخامسة عشرة من عمره، وأكبرهم في الخمسين. وأي حائط.. سور القدس عند باب الأسباط. قيل إن شيئاً أسقط على الجنود من فوق السور، ولكن الصورة لا تكذب.. رشاشاتهم كانت مصوبة إلى رجال وجوههم إلى الحائط، وأسقطوهم أرضاً، ولم ينج منهم أحد.

أقل من هذا بكثير كان كفيلاً بتفجير الانتفاضة السادسة. ولم يكن أهل القدس المرشحين الأوائل للبدء بالانتفاضة، فقد ضيقت عليهم إسرائيل وعزلتهم عن باقي القرى والمدن الفلسطينية عشرات السنين حتى غدوا كالدجاج في القفص.

في هذا المكان.. على مرمى حجر من الأقصى وعلى مرمى حجر من الكنيسة التي يسميها أهل القدس «ستنا مريم»، بدأت الانتفاضة السادسة التي أشبهت الأولى في عفويتها، وستشبه الثانية في أنها مسلحة، وأشبهت الثالثة في أنها عمت كل مكان في فلسطين التاريخية، وتميزت عن كل ما سبقها بعرامة غير مسبوقة وبسرعة اشتعالها.. فكأنها وُلدت كبيرة.

كانت إسرائيل في غنى عن هذه الانتفاضة، فقد تفاقمت مشكلاتها القديمة ونشأت مشكلات جديدة. كانت الهجرة اليهودية منها قد تحولت إلى نزيف، هاجر الذين رفضوا الصهيونية أولاً، وباكراً، وتبعهم الذين رفضوا العنصرية السافرة، ثم أخذ يهاجر كل من وجد فرصة في الخارج، يسافرون.. لكن لا يرجعون. وكان الجيش الإسرائيلي قد تخلص من كل العناصر العربية، وبدأ

يتحول إلى عصابة مثلما بدأ قبل قرن ونصف. وتزامن هذا مع تفسخ القناع الأخلاقي الذي ما فتئت إسرائيل تخفي وجهها الحقيقي عن العالم وراءه.

لقد دعا عقلاء اليهود في إسرائيل وفي أمريكا إلى إيجاد حل جذري يتمثل إما في دولة ديمقراطية حقيقية لكل السكان، وإما في دولتين مع تعديلات حدودية «مؤلمة»، بحيث يعيش الفلسطينيون في دولتهم واليهود في دولتهم.. وتفنن هؤلاء العقلاء في وضع القيود على الدولة الفلسطينية المقترحة فهي منزوعة السلاح، وهي محاطة من كل جانب بإسرائيل، فلا حدود لها إلا مع إسرائيل. وهي بالطبع تزود إسرائيل بالأيدي العاملة الرخيصة.

هذا قبل أن تندلع الانتفاضة. وعندما اندلعت أحس كل يهودي في الدنيا بخوف على الدولة الحلم، دولة إسرائيل، وبغضب على هذه العصبة السفيهة التي لم تتخلَّ عن فكرة «النواة الصلبة» رغم كل المقالات التي نشرتها النيويورك تايمز بأقلام يهود لهم وزن في أمريكا.

استنكرنا مثل كل الناس المقتلة عند باب الأسباط. ولكن ابتسام وعصام في الأردن لم يكتفيا بالاستنكار، بل أخذا يقودان المظاهرات وينظمان الدعم المادي والسياسي في الأردن للانتفاضة. ومع التخلخل الأمني في إسرائيل تدفق السلاح بترتيبات شتى، من جنوب لبنان ومن سيناء بمصر ومن الأردن، ومن معسكرات الجيش الإسرائيلي أحياناً. وعادت منظمات التخريب إلى الانتعاش بعد أن أصبحت في حكم المنتهية. وفُتحت الجبهات داخل إسرائيل: في النقب، وفي قرى الجليل، وفي الضفة. وجرت في الأغوار معارك كر وفر، ولم يعد مجدياً لا أمنياً ولا اقتصادياً للمزارع الإسرائيلية أن تبقى في الأغوار الجنوبية. فأصبحت المنطقة شبه محررة ولمّا يمضِ على بدء الانتفاضة السادسة ثلاثة أشهر.

وعرضت إسرائيل إنهاء مفاوضات الجولان بأبخس ثمن، فلا شيء يُطلب منا سوى التعهد بجولان منزوعة السلاح. ورفضنا الشرط. كانت الجبهة الشمالية هادئة فقد منع جيشنا شن أي هجمات على إسرائيل، وإن لم يكن جاداً في منع تهريب السلاح.

وتلكّأنا. وقالت وزيرة خارجيتنا رزان لنظيرها الأمريكي الذي هرول إلى المنطقة إننا «لا نسعى ولا نريد القضاء على إسرائيل»، فأما حمايتها «فعليها أن تحمي نفسها من الوحشية». وعلى الفور فسر الفلسطينيون تصريحها على أنه يعني أن ما يفعله الفلسطينيون هو الوحشية. وكان

واضحاً لنا ولكل منصف أنها تعني وحشية إسرائيل نفسها. ونزلت صور الزعيم من على جدران المتاجر والبيوت في الأراضي الفلسطينية. لم يعد بطلهم. هو في نظرهم رجل يريد الجولان لا غير.

القضية الفلسطينية كالمرأة الجذابة، تعرف ويعرف من حولها أنها جذابة. فهل هي فعلاً قضية العرب الأولى؟ أخذنا نعترف بيننا وبين أنفسنا أنها كذلك. أو لعل القضاء على إسرائيل هو قضية العرب الأولى؟ ربما. ومن القضايا ما هو ممكن التحقيق ومنها ما هو مستحيل، ومنها ما يتحقق فيجر تحققه بلاء كبيراً.

اشتعلت الجولان، وأخذ من بقي فيها من عربها يحكمون أنفسهم في قراهم ومزارعهم مع الرحيل المتواصل للمستوطنين اليهود، ولم نحرك ساكناً. ولم يستطع الناس أن يفهموا أن دولتنا لا تستطيع أن تشارك في ثورة. نحن دولة، ولنا حسابات تختلف عن حسابات الثوار. وانتهى الأمر.

مع دخول الانتفاضة عامها الثاني لم تزدد إلا قوة، وإلا تسلحاً، ولم يكن للتقنيات العسكرية الإسرائيلية المتطورة حَوْلٌ ولا طَوْلٌ مع الرشاش والقنبلة، ولا مع ثورة شعب لم ينسَ يوماً أنه تعرض لاغتصاب أرضه. وترددت على ألسنة السفهاء في إسرائيل عبارة «خيار شمشون» الذي يُقصد به استعمال السلاح النووي. وكان يمكننا أن نغطي بمثل هذه السفاهة إحجامنا عن التدخل في الانتفاضة لصالح الفلسطينيين، لكننا التزمنا الصمت بكبرياء. ومضينا نقارع إسرائيل في المحافل الدولية قراعاً دبلوماسياً. وعندما تكرر استعمال السفهاء لهذه العبارة اتفقت الحكومة الإسرائيلية مع الأمريكيين على إرسال خبراء لضبط السلاح النووي. والمقابل طبعاً تعهد أمريكي بحماية دولة إسرائيل بحدودها الحالية. ولم نعلق بخير ولا بشر، لكننا شعرنا ببعض الأمان، فالسلاح النووي، لو استخدم، لن يسقط إلا على رأس دمشق.

***

كان عصام قد انتقل إلى جبال نابلس مقاتلاً وقائداً من قادة الانتفاضة، وكانت ابتسام من الأردن تدير شبكة واسعة للإمدادات، تأخذ المال من ميزانيتنا بشكل تبرعات للمنكوبين وتشتري به ما تشتري: سلاحاً أو دقيقاً، وتضرب في الأرض تجمع المال للانتفاضة. وكان لها أمثال ومثيلات في مصر، وفي دمشق وفي غزة وفي الرياض.

كان عدد من اليهود الذين رفضوا دولة إسرائيل يعملون في مختبراتنا، وكان وضعهم محرجاً لهم ولنا. ولكننا حافظنا على أمنهم، واستفدنا من وجودهم في الحرب الإعلامية الدولية التي كانت تصيبنا برشاشها كلما تعرض شباب الانتفاضة للمدنيين الإسرائيليين. أبقينا صورتنا نحن، دولة السماوة، صورة الدولة الرزينة التي تنأى بنفسها عن المشاركة في ثورة شجاعة غالباً ومتوحشة أحياناً.

كنا نتعرض لضغط فلسطيني في فلسطين نفسها وبين أوساط الفلسطينيين في الشام والأردن ولبنان، ولكن الناس ليسوا حمقى. كانوا يشعرون بما نحن مكبلون به من قيود، ويرضون بما نقدم من دعم ظاهر وآخر خفي. وعصام كان أكثر الناس فهماً لهذا، ألم يكن رئيس وزراء ثماني سنوات في الأردن؟ لكنه ظل ينالنا بالتجريح وهو في معقله بجبال نابلس.

وعاد عصام إلى عمان ليناضل سياسياً، لكن ابتسام انفصلت عنه وظلت تعمل بصمت. أخذ ينادي بعودة فلسطينيي الأردن إلى فلسطين. كانت كلمة الحق التي أُريد بها باطل. لا ينتقل المرء من أرض الرفاهية إلى أرض الطاعون. هي قنبلة صوت سياسية ومن الثائرين من يعجبه صوته أكان ما يقوله حقاً أم تهريجاً.

أشبهت هذه الانتفاضة السادسة في طولها الانتفاضة الرابعة. فقد دخلت سنتها الثالثة وهي أشد ما تكون. وكان التطهير العرقي يجري على أرض فلسطين التاريخية بإرادة يهودية قوية، وبقلة تخطيط فلسطيني. ونزفت فلسطين سبعة آلاف قتيل، مقابل ألفي إسرائيلي.

أخذنا في دمشق نرسم الخرائط، وجمعنا الخبراء الفلسطينيين وغير الفلسطينيين: خبراء في علم السكان، وفي الجغرافيا السياسية، وفي الاقتصاد، وخبراء يهوداً أيضاً. كلهم جلسوا يقدرون الوضع ويرسمون الخرائط. وفي واشنطن والقدس كانت ترسم الخرائط. وتتابع اللجان ما يجري على الأرض من تطهير عرقي على الجانبين. وكلما هدأت حدة الانتفاضة كان جو من القلق ينتابنا في دمشق.

وفتح عصام قناة تفاوضية سرية مع إسرائيل التي عرضت عليه الضفة والمثلث، فبهذا تتخلص إسرائيل من جزء كبير من العبء السكاني العربي بأقل خسارة في الأرض. ولكن خرائطنا في دمشق كانت تشير إلى الجليل كله وتصل في طموحها إلى حيفا. وتحمس كثيرون من سكان

الحواضر لخيار الضفة والمثلث، فالتفاوض السري لا يبقى سرياً مع وجود مواقع إسرائيلية ثرثارة، ولا يبقى سرياً عن مخابراتنا ومواقعنا التي نشرت التفاصيل بغرض إحباط القسمة الظالمة. ورأى الجليل والنقب في هذه الصفقة خيانة.

وبدأ الاقتتال في المناطق الفلسطينية. وشارك فيه عصام، وتمكن من رص صفوف المقاتلين في جنوب الضفة خلف مشروعه. ولكن إسرائيل أوقعت بحلفائها المرتقبين، وأوسعتهم تقتيلاً، كان جيشها يتصرف كعصابة مسلحة. وانسحب عصام مرة أخرى إلى الأردن مكتفياً بالكلام والدعوات الحارة إلى توحيد الصف. وتوحد الصف بفعل أعمال الجيش الإسرائيلي لا بفعل خطب عصام وتصريحاته. وتوحد بفعل اليد السياسية الخفية لحكومتنا. فقد استعملنا المعونات والخدمات الطبية التي نقدمها كي ننال النفوذ السياسي الحقيقي على الأرض. واشتعل الجليل كله فأخذ السكان اليهود ينحدرون جنوباً. وأعيد رسم الخرائط مراراً. وشكلت إسرائيل حكومة وطنية تضم جميع القوى السياسية. وأرسلت وفدها إلى دمشق. ففي دمشق مفتاح استمرار الانتفاضة، ومفتاح إشعال المناطق المختلفة. أزرار التحكم عندنا.

في اجتماع آخر في واشنطن حضره الأمريكيون وعقلاء اليهود في أمريكا ونحن وإسرائيل قدمت رزان خريطتنا. كان للحضور المميز للزعيم في زياراته السابقة لواشنطن أثر كبير في الإحساس الذي سيطر على الفرقاء بأن دولة السماوة هي الضامن الحقيقي لدولة إسرائيل اليهودية المنشودة، وكان الواقع نفسه يشير إلى دولة فلسطينية حقيقية ودولة يهودية. ليس أننا نمانع في مواطنين يهود في دولتنا، ولكن الحلم اليهودي القديم لم يبارح أذهان اليهود. وقد تغلغل في قلوب العقلاء فهم جديد للدولة اليهودية، فهي دولة تمثل صمام أمان تاريخياً لليهود، لكنها لا تجمع يهود العالم كلهم تحت سقف واحد. مثلها في ذلك مثل كردستان، وكذا ستكون فلسطين المنشودة، فهي لن تكون السقف الذي يجمع كل فلسطينيي العالم.

وتشكل فريق سياسي مشترك بجانبه لجنة فنية مشتركة. وأعيد رسم الخرائط. والمكان دمشق. ومع اقتراب الحل اشتدت المعارك، وحملت عنا مصر جزءاً من عبء الدعم، ورفعت عنا الكثير من الحرج السياسي. وطلبت واشنطن إشراك خبراء بريطانيين فرفضنا الطلب بشدة. ليس لأننا تذكرنا وعد بلفور، ولكن لأن السياسة الخارجية البريطانية تتميز بخبث الضعيف.

كان باباتي بوصلة وقطباً لأعضائنا في الفريق السياسي واللجنة الفنية. يجلسون إليه في المساءات ويعرضون فحوى ما دار، فإذا قال «ماذا لو؟» عرفوا أن وراء هاتين الكلمتين فكرة مهمة. اضطر واضطررنا كلنا إلى درس أرض فلسطين بطينها ورملها وجبالها وسهولها وصحرائها، وبما تحت الأرض من مياه جوفية، وبالواقع السكاني قبل بدء الانتفاضة، وبعد وصولها إلى خمسة عشر ألف قتيل من الطرفين.

لم تدهشنا قدرات المفاوض الإسرائيلي، ولا أدهشتنا معلوماته. ما أدهشنا حقاً كان التحايل السخيف، وتبديد الوقت بحجج أيديولوجية لا مكان لها في العالم البراغماتي.

صارعنا على حيفا كثيراً وخسرناها، واكتفينا بعكا، وصارعنا على إيلات طويلاً وكسبناها. وعندما أخذ مفاوضونا يميلون إلى كسب النقب على حساب قطعة كبيرة من الجليل رسم باباتي على الخريطة قوساً من شمال طبريا إلى جنوب عكا يحتضن في بطنه الناصرة. وظلت هذه القوس موجودة حتى النهاية وهي ما يعرف اليوم بقوس باباتي. فمن سأل عن سبب تسمية الشارع الرئيسي في الناصرة باسم «شارع باباتي»، فقد عرف الجواب. والواقع أن هذه القوس – التي دارت عليها مفاوضات شرسة وخسرنا مقابلها نصف النقب حتى جنوب ديمونة – حمت الجزء الأكبر من بحيرة طبريا التي ظلت شواطئها مشتركة وبقيت تمثل خزاناً مائياً يتم اقتسام مخزونه بمعاهدات مائية منفصلة.

ولم يطل الصراع على القدس. تعود القدس كما كانت قبل مئة سنة ونيف: قسماً عربياً وقسماً يهودياً، ولليهود ممر واسع إلى حائط البراق وساحة، وتؤخذ في المقابل مساحة مماثلة فوق باب الجديد تصل إلى باب الخليل ويقام سور على مدخل شارع يافا.

اشترط الإسرائيليون عدم إعطاء أي يهودي جواز سفر في دولة السماوة، ورُفض الشرط. مع قيام دولة السماوة بعبء التفاوض شبه السري، استشاط عصام نزقاً، وراح يدعو إلى دولة فلسطينية، ويقول في كل مناسبة إن تحرير فلسطين تم بأيد فلسطينية وقد آن للفلسطينيين بعد دهر من الانتظار أن تكون لهم دولتهم، وستكون مزدهرة، وستكون سويسرا الشرق. وبالطبع لم نحفل بكلامه، ولا نحن صرحنا بما يعاكسه. كنا نفاوض عن الفلسطينيين وكان فريقنا في معظمه من الفلسطينيين، جئنا بهم من كل مكان.

واتجه الزعيم إلى أن نكتفي بالجولان على أن نشرب من طبريا، وأن يترك للفلسطينيين حق تقرير المصير. وكانت إسرائيل تميل إلى هذا الخيار. فدولة فلسطينية ضعيفة على حدودها قد تكون أسلم لها، وقد تكون لقمة سائغة في مقبل الأيام.

في الأيام الأخيرة للتفاوض كان القتال قتال تطهير عرقي، وأصبح يجري بناء على الخريطة المتبلورة.

ما كان أسهل العراق وأصعب فلسطين. أفلسطين حقاً قضية العرب والمسلمين الأولى؟ يبدو أنها كذلك. ربما لأنها اغتُصبت بخطة مدروسة، ولأن دولة إسرائيل ظلت دولة خائفة وعدوانية، ولأن العالم كله شاهد اغتصاب فلسطين وغض الطرف. أم لأن الفلسطينيين أصروا على عدم نسيان قضيتهم؟ ولكن، هل تنتهي الحكاية عند قيام دولة فلسطينية؟ كان العقلاء عندنا وعند يهود إسرائيل وعند الفلسطينيين أيضاً يعرفون أن اقتسام فلسطين التاريخية على هذا النحو، نصفاً لكل شعب، يعني استقراراً تاريخياً. وحتى عصام لم يتمكن من الخروج على هذا الإجماع.

بدأت الترتيبات لحضور الرئيس الأمريكي إلى دمشق ليضع يده الغليظة على الطاولة ويتوسط الفرقاء وهم يوقعون على الاتفاق، لم يكن لنا من خيار سوى أن ندعو عصام ليشترك مع زعيم مقاتلي الجليل في التوقيع. وفي صفقة بينهما كان عصام هو من سيوقع. ولم يشأ الزعيم أن يحضر، بل طلب إلى جلالة الملك أن يكون الشاهد من طرفنا.

في هذه المعمعة كان باباتي على موعد.

***

عندما وصلت وجدت الزعيم واقفاً ووجهه إلى الباب المغلق، وأسماء متعلقة بذراعه ورأسها على كتفه في شبه إغماء. وسمح الطبيب له بالدخول، وطلب عدم دخول أسماء إلا بعد أن تهدأ، فحالة باباتي لا تسمح له بأن يتوتر. دخل الزعيم، وأغلق الباب وراءه، فانهارت أسماء وانتشلتها الممرضة التي كانت تحرس الباب، وأخذتها إلى غرفة مجاورة. وخرج الزعيم بعد دقيقة وعيناه محمرتان. وقال لي: سيعيش، لكنه فقد النطق. ومضى إلى غرفة أسماء. لم أستطع حبس دموعي. لكنني تماسكت، ودخلت.

باباتي غير باباتي الذي أعرفه، في أنفه أنبوب، وفي ذراعة أنبوب. وعيناه زائغتان. أمسكت يده فعرفني وشد على يدي، وهو نصف غائب.

سمعت صرخة أسماء، وأدركت أنه سمعها، إذ هز رأسه. ودخلت أسماء مع الزعيم دقيقة وخرجا. وبقينا مسمرين أمام باب الغرفة، والأطباء يتعاقبون ويشرحون، ويعقدون حلقة لبحث خير طريقة لتثبيت الحالة. لا مجال لجراحة، فباباتي في السادسة والسبعين. لم تكن أسماء معنا، ونحن نستمع إلى الأطباء. كانت تغيب عن وعيها ثم تصحو برجفة، وهي متعلقة بذراع زوجها.

نام باباتي بتأثير حقنة، وخرجنا. فإذا الممرات تحتشد بالناس، خرجنا من باب المستشفى فإذا حشد هائل. طمأن الزعيم الناس إلى أن باباتي بخير وسيعيش، ولكن السكتة قوية.

بعد أيام كان باباتي قد نقل إلى بيت الزعيم في حرستا كي ترعاه ابنته ومعها ممرضة وممرض. وكنا ننشغل بآخر بنود المفاوضات ثم نعود في المساء لنجالس باباتي الذي فقد النطق، والحركة في نصف جسمه. لكنه كان يسمعنا ويتجاوب بعض التجاوب، وسرعان ما يمل، فنخرج.

كان من همي ألا أرى لباباتي دمعة، وألا أسمع أنه ذرف دمعة. ولم أرَ ولم أسمع. ما أقسانا! نريد للأب أن يكون صخرة نحتمي بها، ولا نسمح لها بأن تضعف. كان باباتي رضي النفس في مرضه مثلما كان في صحته. تلمع في وجهه بين الحين والحين ابتسامته العذبة، ثم سرعان ما ينقبض. عندما ذكرنا له أن عصام طلب رؤيته أشاح بوجهه، فاعتذرنا لعصام، الذي كان في هذا الأوان في الشام يستعد لحضور حفل التوقيع.

صبيحة التوقيع بكرت إلى باباتي الراقد في بيت الزعيم، وكان الزعيم قد خرج من بيته، ولم أجد الممرضين. كانت أسماء وحدها وأبوها نائم في غرفته. سألت عن الدواء والغداء، فأما الدواء فقد أعطته إياه الممرضة قبل انصرافها. وأما الغداء فبالطبع لا تعرف عنه أسماء شيئاً. أعجبني أن أقف في المطبخ أصنع حساء لباباتي يتناوله ظهراً. وقفت أقطع البصلة ثم الكوسا، ومقابلي جلست أسماء، وهي الآن قد امتلأت قليلاً بعد أن قطعت الخامسة والأربعين، جلست على طرف الطاولة تحرك ساقيها وقد عاد الحبور إلى الوجه الجميل، وعاد البريق إلى العينين الساحرتين. رأت أسماء يدي طباخ ماهر، وإني لكذلك منذ أيام كفتة، وضحكت إلي ومني. و..

– متى ستعلمني الطبخ؟

– البركة في الزعيم..

– لا والله! هو طبق الفول الذي تعرفه، لا يصنع غيره. ستنبت في بطني شتلة فول.

ثم فاجأتني:

– أتعرف أنك كنت فارس أحلامي سنين قبل أن ألتقي بأحمد.. أحمد الزعيم.

وضحكتْ للمفارقة فأنا أيضاً أحمد.

– ليس لي في الطيب نصيب!

– أنت سافرت إلى أمريكا.

قالتها بصوتها الذي يزقزق براءةً وفرحاً.

هززت رأسي، واحمر عنقي. ومضيت أقطع الكوسا بقوة كي أقطع تيار الحرج الذي يعتريني. هي لم تكن مهرة أحلامي، فقد كانت طفلة، ولم أرها في بيت أبيها سوى مرة أو مرتين، ولم أسمع لها صوتاً في تلك الأيام الأولى. لكن ربما كانت تتلصص عليَّ من شق غرفتها وأنا أزور باباتي.

ورفعت نظري إلى أسماء أسأل عن مكان القدر الصغيرة، فرأيتها تبتسم ابتسامة عبث بريئة. يا للزمن، ازدادت هي فتنة وازددتُ قبحاً، تراجع شعري عن جبهتي كثيراً، ودار الشيب حول رأسي. نعم، صارت أختاً.. ولكن فتنتها تمنعني أن أكون أخاً. جميل أن تظل أسماء في أفق حياتي زهرة أشمها.. أفضل من أن تكون – ورحت أخرط الكوسا بقوة حتى أغلب حرجي – كوساية آكلها.

قطع جرس الباب علينا محادثتنا الغريبة، فقفزت أسماء. ثم دخلت نداء وأسماء تطوق إحداهما الأخرى من كتف ومن خاصرة كتلميذتين صديقتين حميمتين خارجتين من المدرسة، فنداء لا تزيد عن أسماء إلا سنتين.

وجلستا في المطبخ. قالت نداء:

– هيثم في البلد. جاء كي يرى باباتي.

– متى جاء؟

– أمس مساء، ولكنه نزل في فندق، لأنه يتابع بعض الأشغال.

واتصلنا بهيثم واستعجلناه، فمنذ أشهر لم أره. كان باباتي قد صحا عندما جاء هيثم. أكب هيثم على يد باباتي يقبلها ودموعه تنحدر من عينيه، ويقول «يا أستاذ». لم يجرؤ أن يتبع «أستاذ» بـ «باباتي»، فهذا الاسم الذي أطلقناه على المعلم الكبير هو جريمتنا المشتركة أنا وهيثم. وعرف باباتي هيثم رغم أنه لم يره منذ بضع سنين. وقضينا ضحى ممتعاً. وكان علي أن أنصرف كي أتهيأ لحضور حفل التوقيع بين الناس. أما الزعيم فكان في هذه الأثناء يرحب بكبار الضيوف: الرؤساء والكبراء وعصام طبعاً، قبل أن يتركهم ليأخذوا أماكنهم في القصر الملكي حيث يكون التوقيع.

انصرفت لحضور الحفل، وعاد الزعيم إلى البيت.

***

تحدث جلالة الملك عن جهود آبائه الهاشميين، وذكر الموقف الصعب الذي مرت به السماوة في هذه المواجهات «التي نكب بها الشعب الفلسطيني وعانى منها الشعب اليهودي». وتحدث الرئيس الأمريكي ووعد «إسرائيل الجديدة القوية بالدعم غير المحدود وبضمان أمنها وحدودها». وتحدث عصام عن الأحداث الجسام التي مررنا بها «ففي فترتي كرئيس للوزراء خضنا حرباً خسرناها كلانا، واليوم ننهي كل الحروب، ونتطلع إلى المستقبل». وتحدث رئيس وزراء الحكومة الوطنية في إسرائيل عن «أمن إسرائيل، وطن الشعب اليهودي وحده، الوطن الذي لن يقع في مأزق الديموغرافيا بعد اليوم».

لم يرد للجولان ذكر في الاتفاقية ولا في خطب الزعماء. كان جيشنا قد دخلها في ساعات المساء الماضي باتفاق ضمني ودون جلبة.

قابلت الزعيم في اليوم التالي للتوقيع الذي حضرته، وسردت له سرداً رسمياً:

– مضت المناسبة بسلام، وسافر الجميع، وودع جلالة الملك الرئيس الأمريكي وبقي في المطار حتى ودع عصام ثم رئيس الوزراء الإسرائيلي.

لم يعلق الزعيم، فتابعت، أريد الغمز من عصام:

– ما أسرع ما يريد الناس إعادة كتابة التاريخ!

– ذلك أكثر فاعلية، فلو تركت النسخة الحقيقية مدة من الزمن لصعب عليك أن تبدل فيها.

واستأنف الزعيم، كأنما يمرر إليَّ موقفاً رسمياً بطريقة غير رسمية:

– كان شجاعاً، ودخل الخطر وقاتل.. ونعم، خاض في السياسة. كل ما نرجوه له أن يوفق في الوقوف أمام المطامع الإسرائيلية.

فهمت موقفنا. وأيدنا الدولة الفلسطينية الناشئة.

انتشر رسم كاريكاتيري يحمل عبارة «خسرناها كلانا» ويظهر فيه عصام ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، وفي الزاوية صورة للزعيم وبقربه عبارة: لكن هذا انتصر!

وخطب عصام خطابه الأول: «لا حياة لدولة بدون انتخابات، طبعاً سنتوجه إلى صناديق الاقتراع، طبعاً وقطعاً سيقول الشعب كلمته، نحن نسبح..» ووقف وقفة «نسبح في سماء تقرير المصير الذي جاءت به سواعدنا».

ورسموه يسبح في السماء.

كان في جيب عصام مال خليجي وفير، واستطاع أن يجمع حوله بعض الوجوه الطامحة، وأتى من الأردن بطقم كامل من أنصاره، بعضهم كان قد دعم الانتفاضة الفلسطينية بالكلام، وقليل منهم من فعل أكثر من ذلك. كانوا شلته. وأسبغ عليهم تواريخ نضالية، ومالاً. فأما المقاتلون الذين التقى بهم على أرض فلسطين في أيام الانتفاضة فنصفهم قتل، ونصفهم ممن لا طموح سياسياً له. وظل مقاتلو الجليل ووجوهه بمبعدة. وبدأ عصام يجمع السلاح من مناضلي الانتفاضة. سلم التكافليون سلاحهم. فقد انتهت الانتفاضة، والتكافل لا يحمل السلاح ضمن الدولة.

كانت حكومة عصام قد عزلت عدداً من البنود الضريبية، على الأسمنت وعلى الدقيق وعلى بعض السلع الأخرى، لتكون تحت تصرف الرئيس «غير المنتخب». وكان عصام يستعمل هذا المال لشراء الذمم. ونجح في شراء ذمم كثيرة، وحكم سنة وافية قبل أن تندلع الحرب الأهلية. ظل شعار «بندقية واحدة» يتردد في دولة فلسطين الوليدة، ولكنه أصبح نكتة لاذعة مع اشتداد الحرب

الأهلية. فقد أصبح الطرفان يحاربان ببندقية عوزي الإسرائيلية المعروفة. كانت إسرائيل سعيدة جداً بتسويق العوزي إلى الجانبين، وبأسعار مغرية. ومن هنا جاء الاسم الشعبي لتلك الحرب الأهلية «حرب العوزي».

يا للخسارة! هذا الرجل الذي خضت في أيام حكمه بالأردن حربي الصغيرة على الفساد، ووجدته غير فاسد شخصياً، كان أقدر الناس على الإفساد. ومن الزعماء من يفاخر بأنه لم يدخل جيبه قرش، لكنه لا يرى سُبَّة في أن يستعمل المال لإفساد الناس وابتزاز المواقف منهم وجعلهم أدوات.

لقد اجتمع له النشاط التنظيمي، والحركة الدائبة، والشجاعة. ولكنه رجل لا ينجح وحده، لا يملك عقلاً عميقاً ولا قاعدة متينة من المبادئ، هو جدار من طين.

تأخر الفلسطينيون في فلسطين الجديدة في إدراك أن الخمسة عشر ألف قتيل في «حرب التحرير»، كما أخذت تُسمى، قد يصبحون عشرين أو ثلاثين ألفاً في مدة قصيرة بسبب الحرب الأهلية. ولم يكن فلسطينيو الأردن مهتمين كثيراً، ربما لأنهم تأردنوا وأصبح من بعض همهم أن يكون فلسطينيو فلسطين في جهة وهم في جهة. كأن لسان حالهم يقول: رب أسعدهم وأبعدهم.

ومع اشتداد الاحتراب أصبحت فلسطين الجديدة بعيدة كل البعد عن فلسطينيي السماوة الذين واصلوا حياتهم في عمان ودمشق وبيروت مكتفين بالدعوات الصالحات لأهلهم وراء نهر الأردن.

تفسخت الحكومة الفلسطينية، وتسرب وزراء عصام واحداً واحداً إلى عمان، وفي تطور لافت اختطف عصام وأودع السجن في عكا. وبعث الزعيم فريقاً من رجاله لاستنقاذه خوفاً على حياته. وجيء به إلى عمان. ورفضت ابتسام أن تقابله. ليس لأنها عادت إلى التكافل الذي لم تفارقه رسمياً أصلاً، ولكن لأنها اندفعت في النضال الفلسطيني بقلب بريء ورأت الانتصار ورأت الفساد ثم الاحتراب. واختار عصام أن يمكث في عمان يحدث الناس في ناديه الأثير عن بطولاته، وعما تعرض له من غدر.

جاء إلى دمشق وفد من أهل الجليل يحمل مشروع حل، ويحمل شروطه، ورده الزعيم رداً حميداً، وجاء وفد من الضفة بأفكاره وشروطه، ورده الزعيم رداً حميداً.

قد رسخ في نفوس الفلسطينيين في فلسطين الجديدة أن فلسطين دولة مستقلة ذات سيادة. وهذا حق. ورسخ في نفوسهم أنها دولة مقدسة السيادة ومقدسة الاستقلال. وكيف يكون ذلك، وفي السماوة من الفلسطينيين بقدر ما في فلسطين نفسها؟ لكن بعض الأفكار تحفر نفسها في الرؤوس بغض النظر عن صحتها. هو الشوق القديم وهو الحلم بالسيادة والاستقلال.

واستمرت الحرب الأهلية الفلسطينية بضعة أشهر، تشتد حيناً وتتراخى حيناً. وبدأت الأنظار تتجه صوب دمشق. كان ربيع عام 2086 بهيجاً في دمشق، لكن الحدث لن يكون في دمشق.

20

أعلن الزعيم أنه سيوجه كلمة إلى الشعب الفلسطيني بعد صلاة الجمعة، واختار ساحة الجامع الحسيني الكبير في عمان.

كنت أنوب عن الزعيم في صبيحة هذه الجمعة في ترؤس جلسة الحكومة بدمشق، وانفردت برزان بعد الاجتماع وتداولنا في الأبعاد الممكنة لخطاب الزعيم. فلم يكن بين يدينا بالطبع نص الخطاب، لأنه لا نص للخطاب، فالزعيم لا يكتب نصاً ولا رؤوس أقلام. قد أغناه انغماسه المطلق في السياسة عن ترتيب أفكاره على الورق. وهو لا ينسى نقطة ولا يخطئ في كلمة. نعم، أخطأ على الأرض في رفع عصام عندما رفعه، وأخطأ في نفخ الحياة في مجلس الأعيان المائت، فأحياه وظل هذا المجلس نادياً سمجاً للأردن وحدها، وبالمناسبة فقد التحق عصام بمجلس الأعيان، بوصفه رئيس وزراء سابقاً.

كنت أعلم أن الزعيم يوشك على تحريك فلسطين باتجاهنا. هذا فقط. ووضعت رزان خططها للتحرك إقليمياً ودولياً. وصحونا يوم الجمعة نترقب البث المباشر من ساحة الجامع الحسيني الكبير في عمان.

بعد انقضاء الصلاة اعتلى الزعيم منصة خشبية جاعلاً ظهره للمسجد ومواجهاً الحشد الذي ملأ الساحة والشوارع القريبة. ولم يكن الجمهور قد حفظ نشيد السماوة بعد، ولا تعلق به، فأخذ يردد النشيد الوطني الأردني القديم. ثم دخل نُحاس الجيش بفرقة ضخمة وعزف نشيد السماوة. وجر اللحن الكلمات فصدح الجمهور بصوت واحد.

ثم اعتلى الزعيم المنصة واهتاج الجمهور الذي لم يسبق لمن فيه من الشباب أن سمع الزعيم في موقف كهذا. شاهد الناس عياناً أو على الشاشات الكبيرة المنصوبة في كل مكان هذا الرجل المربوع الذي يرتدي طاقية (مثل طاقية المزارع الذي كان يراعي حديقتنا في عبدون، ومثل طاقية الشيخ راشد الصالح الذي أشعل الجليل ناراً في حرب التحرير ثم اعتزل في بيته في الحرب الأهلية). رأوا الرجل الذي بعث الرجال إلى الموت حتى يحرر العقبة، والذي حرر الأردن من إقليميته الضيقة، وجمع العربي والكردي والعلوي والسني في رابطة إخاء. وهدأ الجمهور، فجاءه صوت الزعيم يمد حروفه بترنم عجيب:

«متى تنقشع هذه الغيوم السود عن سمائك يا فلسطين! متى تعرفين موضع قدميك؟ متى تشرق الشمس على أرض تاهت في صحراء الظلم، فلما انقشع الظلم وانبسط الطريق أغمضت عينيها؟».

ثم أخذ يهدر هدير الرعد:

«ما دعونا لبنان بل قد دعانا، ما قصدنا العراق لكن أتانا، وأنا اليوم يا فلسطين أدعو دمك الحر، إنه من دِمانا، ظل ذاك السلاح حراً فلما بعتموه صار السلاح جبانا.

طوبى لشعب عرف نصفه فالتحم به. طوبى لشعب واجه الموت في سبيل حريته وعانق الحياة كي يسلمها لأبنائه وأحفاده أمناً وسلاماً. طوبى لشعب يأبى الفساد. طوبى لشعب عرف صديقه من عدوه.

يا بؤس للمرء يضع له عدوه سعراً يعلقه في عنقه. يا بؤس للحكم يمشي مغمض العينين نحو الهاوية.

يا شعبي الضائع..».

وصمت الزعيم. ورددت الجماهير: حياك.

«لا يعيد الزمنَ القهقرى إلا من عميت قلوبهم. يا شعباً ثار كالموج، لا تلعبْ بك الريح. يا شعباً عرف القهر، اقهر خوفك، اقهر الانتظار وراء الباب.

يا شعبي الضائع..».

ورددت الجماهير التي عرفت اللازمة: حياك. ورق صوت الزعيم فكان كأنه يتغنى. كان يستخرج من أعماق حنجرته نغمات تضارع معاني كلماته دفئاً وعمقاً. كان المعنى يتفجر من صوته الذي يتدرج في طبقات الأرض حيناً وفي أطباق السماء حيناً.

«يا شعبي الضائع، هذا باباتي يجلس في أريكته ويرانا ويراك. جاء يحمل شوق العراق، وكان لنا ضميراً وكان معلماً، وما دعونا العراق ولا دعا باباتي العراق، لكن العراق رأى نور العدل وحده وأتانا وملأ بيتنا عزة وسلاماً وحباً. عاش العراق. عاش الأردن. عاشت الشام. عاش لبنان. عاش شعب الأكراد حراً أبياً.. يعيش بيننا بسلام ويعيش في دولته بسلام، له منا الحب، وله أن يكون حراً في أرضنا وفي أرضه. عاشت السماوة.

يا شعبي الضائع..

يدعونك إلى الرصاصة، وندعوك إلى الخبز والأمن والحرية.

يا شعبي الضائع..

عاشت فلسطين».

ونزل الزعيم.

لم يرفع قبضتيه ولا أشار بيديه. كان له من طبقات حنجرته ما يغنيه عن ذلك.

رأينا المشهد ونحن في بيت الزعيم في حرستا، نداء وأنا وبنتي وابني وأسماء.. وباباتي. شهق باباتي شهقة عند ذكر اسمه. وغطى عينيه.

كانت دعوة الزعيم صريحة.. دعوة لفلسطين كي تنضم.

***

عادت وفود فلسطين إلى دمشق، دفعها شعب فلسطين دفعاً. ولم تتم رزان جولتها الإقليمية إلا والفلسطينيون يضعون السلاح في حربهم الأهلية. كانوا ينتظرون المخلص. وخلصهم.

وقرر الفلسطينيون أن الزعيم ليس حورانياً ولا أرمنياً ولا يهودياً ولا زعترياً. لا، هو فلسطيني. ولفقوا رواية عن أنه من أبناء مهجري مخيم اليرموك البائد بدمشق، أبيدت عائلته وظل مع أبيه في السعودية ومات أبوه، فتبنته عائلة سعودية في الرياض، وأرسلته ليدرس في لبنان، ومن هنا محبته للسعودية. وذيل القصة يشبه ذيول قصص أخرى عن أصل الزعيم.

انقشعت الغيوم عن سماء فلسطين. انقشعت فعلاً وتلونت فلسطين وكل السماوة بأزهار أيار، وبين الفرح والندم كان كل بيت فلسطيني وكل متجر وكل مؤسسة يرفع صورة الزعيم.

وعلى عجل جرت في دمشق المباحثات الأخيرة مع زعامات الضفة والجليل، وعادوا إلى قواعدهم الشعبية، وعقدوا الاجتماعات، وجاءت وذهبت المقترحات والتعديلات بين دمشق وعكا في مماحكة فلسطينية تذكر المرء بالمماحكات الإسرائيلية. ثم لإرضاء أهل الضفة أيضاً تقرر أن يكون التوقيع في عمان.

لم يسبق للزعيم أن وضع قدماً في فلسطين. كنت معه في عمان في لقاء التوقيع الأخير على التحام فلسطين بالسماوة، وكانت ترافقه أسماء التي لا تستطيع أن تفارقه. تركت أباها في عهدة نداء ذلك اليوم. وانتهينا من الرسميات عند الضحى. نظر الزعيم في ساعته، ورفع رأسه فجأة وقال للوفد الفلسطيني: آتي معكم. لا نعلن عن الزيارة، أريد فقط أن أرى فلسطين. وحسبنا الوقت: ساعتين ونكون في القدس، نراها في ساعة، ثم نعود في ساعتين إلى عمان ونركب طائرتنا مع هبوط الظلام إلى دمشق. وصحبت الزعيم وزوجته.

صعدت بنا السيارة من كنيسة ستنا مريم إلى باب الأسباط. ووقفنا صامتين أمام نصب شهداء الانتفاضة السادسة، في المكان الذي قتل فيه الشبان العشرة ووجوههم إلى الحائط. ودخلنا القدس القديمة من باب الأسباط. وأطللنا على الأقصى من باب حُطَّة، ولمعت تحت شمس الظهيرة قبة الصخرة، ولم يدخل الزعيم. كأنما أبى أن يكون ثالث عمر وصلاح الدين، أبى له تواضعه أن يضع نفسه في أيقونة، وقفنا دقيقة نتعبد بالنظر إلى قبة الصخرة وذهَبُها يخطف الأبصار. ثم انثنى الزعيم وطلب أن يرى كنيسة القيامة، فدخلنا من شارع الواد إلى باب خان الزيت ثم إلى القيامة، ووقفنا بالباب هنيهة. ثم مضينا لنخرج من باب الخليل الذي يواجه شارع يافا فهناك تنتظرنا سياراتنا. وشرح لنا مرافقونا أن كل غازٍ للقدس دخل من هذا الباب. قال الزعيم: ومن هنا نخرج فما غزونا القدس، بل حررها أهلها.

وفي الساحة الفسيحة قبل الخروج من باب الخليل، احتشد الناس وهتفوا. وسايروا الموكب. خرجنا وكانت سياراتنا تنتظر، ولكننا سايرنا الجموع قليلاً وشاهدنا على البعد الجدار الجديد الذي أُقيم على مدخل شارع يافا ليفصل الدولة اليهودية عن الدولة الفلسطينية. ووقف الزعيم يراقب الجدار الذي يعلوه برج مراقبة أقامه الإسرائيليون. كانت أسماء إلى جانبه، وكنت على مقربة.

وسمعنا أزيز الرصاص.

سقطت أسماء وهي متعلقة بذراع الزعيم وتقول: أحمد. ثم سقط الزعيم، وهو يقول: أحمد.

كانت تعني: أحمد الزعتري الحوراني. وكان يعني: أحمد السلطي السريجاوي.

***

كانت إرادة القدر أقوى من إرادة الزعيم. لا بد من الأقصى. وأُدخل الزعيم وأُدخلت أسماء إلى الحرم القدسي بحضور رؤساء العالم. وهناك بقيا. وخرج العنوان على موقع إسرائيلي:

«أخيراً!».

غادرتُ القدس وقد انحنيت لثقل ما حملت.